

ظلال المستقبل

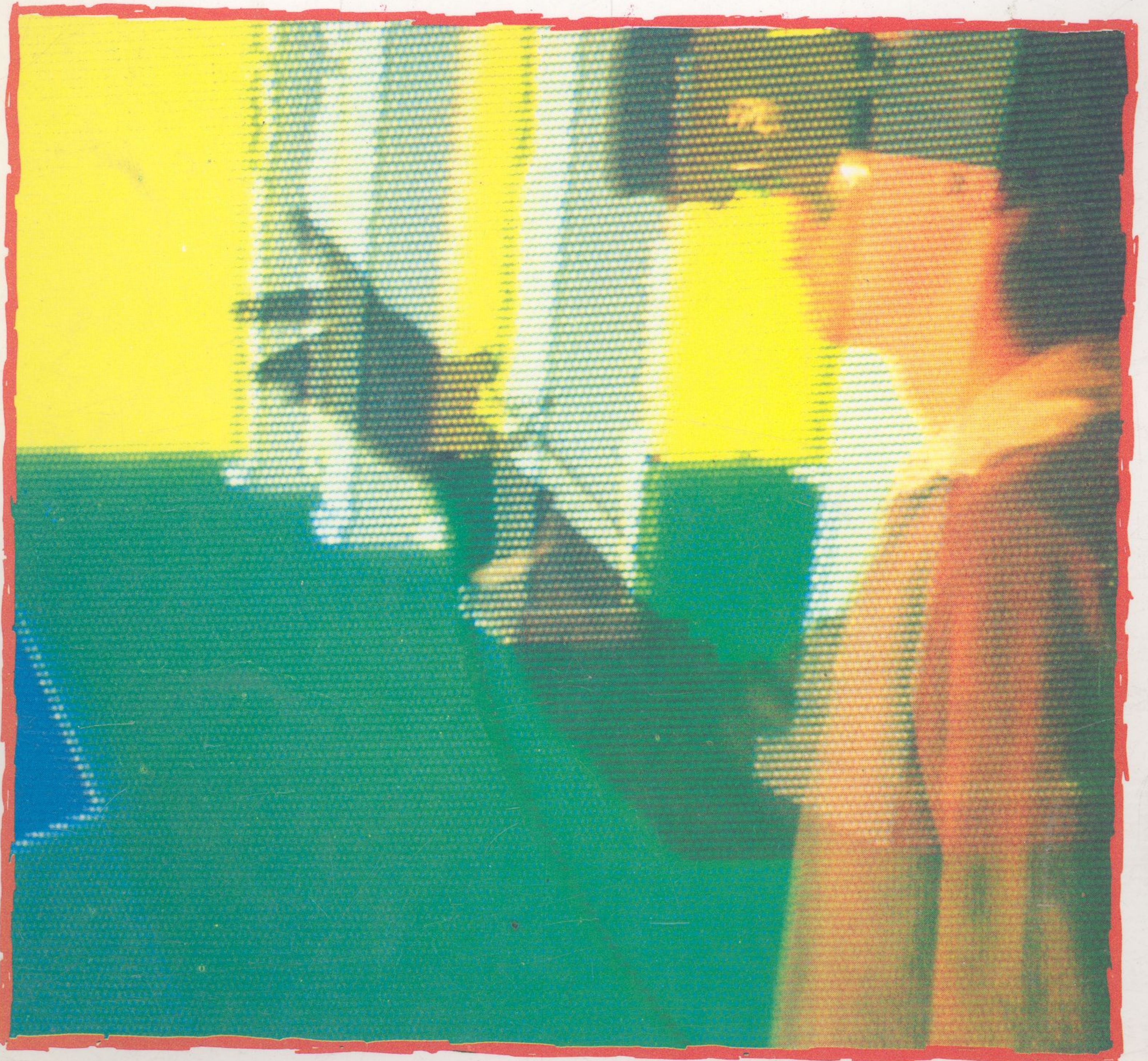
ه.ج. ولز والقصاص العاهي والنبوة

تأليف: باترك پارندر
ترجمة: بكر عباس

المجلس
الأعلى
للثقافة



المشروع القومي للترجمة



ظلال المستقبل

هــجـ٠ وئز والقصص العلمى والنبوءة

تأليف : پاترك پارندر

ترجمة : بكر عباس

إلى : جيني

Shadows of the Future

H . G . Wells,

Science Fiction & Prophecy

by

Patrick Parrinder

Professor of English,

The University of Reading

Liverpool University Press

تمهيد

فى الثانى عشر من شهر إبريل عام ١٩٩٦ قرأت فى جريدة الأهرام وعلى صفحة الأدب التى يشرف عليها الدكتور عبد العزيز شرف ، مقالاً طريفاً كتبته الدكتور عبد الفتاح الديدى ، تحت عنوان «انصاف : عبد العزيز جاويد وترجمة ولز» يبين فيها مآثر ولز على الثقافة ويشير باعتزاز إلى جهود عبد العزيز جاويد فى ترجمة ولز ويدعو إلى إحياء هذا التراث بين الطلاب الذين سيفيدون كثيراً لو توفرت لهم فرص الوصول إلى ولز عن طريق الترجمة .

وعندما قابلت صديقى الأستاذ باتريك پارندر ، أكبر حجة فى ولز ، بعد أشهر قليلة من قراءة المقال ، تذكرت الدعوة الخيرة التى قدمها الدكتور عبد الفتاح الديدى حول ولز ورأيت أن أقترح على المجلس الأعلى ترجمة آخر منجزات الأستاذ پارندر النقدية التى كانت قد صدرت فى صيف عام ١٩٩٦ . وعندما حاز الاقتراح على القبول بادرت على الفور بالبحث عن مترجم يستطيع أن يضطلع بهذه المهمة ، وقد أسعف الحظ بمترجم قدير ، هو الأستاذ بكر عباس ، الذى له الشكر فى إنجاز هذه المهمة المعقدة . فالكتاب الذى بين أيدينا الآن كُتب بلغة نقدية رفيعة المستوى كان لا بد أن ينبرى لها مترجم يتمتع بكفاءة عالية .

واعترافاً بالجميل فإنى أود أن اقتطف مقالة الديدى هنا لتكون جزءاً رئيسياً من هذا التمهيد .

قرأت فى بعض الصحف أن وزير التعليم رأى أن يدعو المعلمين بجميع مدارس الوزارة على اختلاف مستوياتها إلى الاطلاع على بعض الكتب ، بقصد توسيع الدائرة الفكرية لديهم ، وتوثيق النواحي الثقافية ، وإثارة الرغبة فى الاتصال المباشر بالعلم والحياة ، فضلاً عن نقل ذلك كله إلى تلاميذهم . وفى ذلك ما فيه من حكمة التباعد عن التوافه ، فذكرت على الفور صديقى العزيز العلامة الانجليزى «هـ . ج . ولز» الذى ظلت كتاباته رفيقاً لى مدى حياتى الأدبية كلها . تذكرت كيف كان الأستاذ سلامة موسى يدعونا إلى مواكبته سواء أكان ذلك فى قصصه العلمية أو مؤلفاته التاريخية .

وعندئذ تذكرت كتابه الرئيسى «معالم تاريخ الانسانية» الذى أصدره لأول مرة بعد الحرب العالمية الأولى مباشرة ، وطبع أكثر من ٢٠ طبعة . وقد جمع ولز فى هذا الكتاب إلى التاريخ كمادة دراسية ، موضوعات وآراء علمية وفلسفية وأدبية واقتصادية ، إنه كتاب ضخم واسع المحتوى . وبدأ بتاريخ الفلك ونشأة الكون ، ثم دخل إلى الأرض والجيولوجيا ، فإلى الحياة فى نشأتها الأولى حتى انتهى إلى بزوغ الحضارة فى أرض مصر ، بعد الحديث عن أجناس الانسان ولغاته وحياته البدائية . ثم انطلق يدرس مختلف حضاراته ويعالج تقلبات الزمن بدوله ودياناته وعصوره . كل ذلك تاريخ ، ولكنه مكتوب بمنهج علمى عجيب . إذ الكاتب ليس مدرساً عادياً للتاريخ وإنما هو أستاذ للعلوم بجامعة لندن . أفعجب إذن أن نراه يطرق التاريخ بمطرقة العلوم ومناهجها! . .

ذلك ما قد حصل ، فالتاريخ عنده ليس فقط حروباً وملوكاً ، بل هو أنشطة شعوب وأمم . هو آراء وأفكار جماعات بشرية ، وهو يسب الحروب ، ويدعو إلى الاشتراكية الهادئة ويذم الامبريالية والشيوعية والديكتاتورية والرأسمالية الجشعة ، وهو يؤمن بانتخاب حر وديمقراطية نظيفة فى اقتصاد هذا العالم وانتاجه: المكون من «فلاح» منتج فقير معدم ، وصانع تكنولوجيا غنى فاحش الغنى . فهو من ثم يدعو الشعوب جميعاً إلى عمل بورصة - «سوق عالمية عامة» - يتبادل فيها الغنى غناه مع الفقير ويتقاسمون الرزق بالتساوى .

وينوب العالم الثالث بانتشار عدالة التوزيع . يريد حرية وليبرالية وديمقراطية وثقافة عالمية واستنارة شاملة وبعداً عن التعصب الدينى والتفكير الرجعى بل تقدمية وديمقراطية نظيفة وبعده عن سفك الدماء فى الحروب ، فالسلام أبقى وأصلح للبشرية . إن «ولز» ذلك المفكر العظيم والداعية الفيلسوف إلى هذه المبادئ السامية الذى سبق أحداث التاريخ ، فأراؤه قد بدأت تتحقق الآن فى صورة التجمعات والتكتلات، لم ينل حقه من التقدير عند الشعب المصرى . ومن ثم وجب إنصافه وإحقاق حقه ، ونشر آرائه بين معلمى مصر عسى أن تتسرب من بين أيديهم إلى تلاميذهم . وهنا أذكر بالإنصاف الرجل الذى قدم إلينا ولز ،

وهو الأستاذ عبد العزيز توفيق جاويد ، إنه معلم ممتاز ومترجم فائق حتى أنى
أستطيع القراءة إذناً أن ألقبه بـ «شيخ المترجمين» - لهذا الزمان - فإنه تطوع -
كما عبر عن ذلك أستاذة محمد شفيق غربال ومن تلقاء نفسه - فترجم هذا
الكتاب الضخم ، بلسان عربي مميز واضح العبارة ، حاز فيما أعلم رضى
المرحوم عبد العزيز فهمي باشا ، وكما قال له الأستاذ محمد فريد أبو حديد في
تعليقه على الكتاب «كتاب - المعالم» - : لقد كنت أوضح من المؤلف نفسه في
بعض النقاط !! ..

ومن عجب أن تمر إعادة طبع هذا الكتاب بهيئة الكتاب دون أن تهز عالم
الثقافة العربى !! .. والأستاذ جاويد كما هو معلوم يعيش رهن محبسى أبى
العلاء . وقد شعر المرحوم يحيى حقى بفضل هذا الرجل ، وبالسعادة التامة حين
رشحه عام ١٩٨١ لنيل جائزة الدولة التشجيعية فى الترجمة مع وسام العلوم
والفنون من الطبقة الأولى ، وظل يصرف فى مداوالات لجنة الترجمة بالمجلس الأعلى
للثقافة هو والأستاذ أحمد خاكي على أن يمنحاه الجائزة ويرفعاه فوق كل من
نافسه عليها اعترافاً بفضلته فى الترجمة؛ واجتمع إلى رأيهما رأى اللجنة والإدارة
التي كنت أحد أعضائها وقلنا جميعاً «هنيئاً لشيخ المترجمين !! ..»

محمد شاهين

الجامعة الأردنية ، ١٩٩٧

تصدير

الشعراء سدنة أسرار وحى لم تدركه الأفهام ، أو هم مرايا تعكس الظلال
الهائلة التى يلقيها المستقبل على الحاضر .

شِلى : دفاع عن الشعر

وبضرب من الجنون الذى تلبسنى وأخذ يتنامى فى طوحت بنفسى فى
أفاق المستقبل .

آلة الزمن

تتركز هذه الدراسة عن ولز والقصص العلمى حول « آلة الزمن »
The Time Machine التى أعتبرها أحد « كتب النبوءات » فى أواخر القرن
التاسع عشر ، إذ تلقى بظلمها على المستقبل . فالسفر فى الزمن وفكرة آلة الزمن
لم يكن لهما من الرواج مثلما نجده فى هذه الأيام ، ذلك أننا ما زلنا نعيش تحت
تأثير السحر الذى نفثه اختراع ولز قبل قرن من الزمان .

وكالمسافر فى الزمن نفسه اتخذت « آلة الزمن » فى هذه الدراسة قاعدة
لاجتلاء المحيط الأدبى والثقافى فى دوائر ما تنفك تنداح وتتسع . ففى القسم
الأول عالجت فى فصول متتابعة فكرة النبوءة الأدبية (ونظيرها المحاكاة الساخرة
parody) من حيث اتصالها بصنف القصص العلمى Science fiction ؛
واستمرار حالة النبوءة وتاريخها فى حياة ولز الأدبية ؛ وإمكانات الفضاء
والزمن ، ومفهوم إنزال الإنسان عن كرسىه فى « آلة الزمن » و« جزيرة الدكتور
مورو » The Island of Dr. Moreau ؛ ونظرية ولز فى التاريخ كما تعكسها
الرومانسيات العلمية ، وما يدين به لكتاب غِبْنُ « أفول الامبراطورية الرومانية
وسقوطها » Gibbon: Decline and Fall of the Roman Empire
(ابتداء من « آلة الزمن ») ؛ وتعريفه الأدبى لذاته من حيث كونه مواطناً عالمياً ،
وبحثه الخيالى عن عالم جديد ؛ والتركيب المعقد ليوطوبيا ولز . وتناولت فى القسم

الثانى تأثير ولز فى اثنين من اللاطوبائيين - هما يفجنى زمياتين Yevgeny Zimyatin وجورج أورول George Orwell ، وما خلفه للفكر العلمى الشعبى فى القرن العشرين وللقصص العلمى فى بريطانيا وأمريكا . أما استكشاف المنظر الواقعى لوادى التيمز فى « آلة الزمن » واستخدامه كخلفية فى قصص الكوارث الأخرى فيمكن الوقوع عليهما فى «أرهاصات : مقالات حول القصص العلمى المبكر وبوادره» Anticipations: Essays on Early Science Fiction and Pre-cursors تحرير ديفد سيد David Seed لسلسلة نصوص من القصص العلمى ودراسات حوله .

ولعله من المناسب أن نعرض منذ البداية لثلاثة أمور تميز هذا الكتاب كثيراً أو قليلاً عن سائر الدراسات النقدية لولز وقصصه العلمى :

١- رغم كون ولز كاتباً مكثراً ، وفى كتاباته تفاوت شديد ، وقد وضع معظم روائعه فى مطلع حياته الأدبية ، فإنه ينبغى قراءته على نطاق واسع وبتعمق لفهم أفضل أعماله . فالأعمال اللاحقة تلقى ضوءاً على السابقة . والتميز بين نتاج «الفنان» ونتاج «الصحفى» ، أو بين الأعمال «التخيلية» المبكرة والأعمال «التعليمية اللاحقة» (كما فعل الكثير من النقاد) له فوائده ، ولكنه يبذل فى الوقت نفسه حب الاستطلاع ويؤدى فى النهاية إلى تشويه الحقائق .

٢- بما أنه من المسلم به أن أفضل أعماله ظهرت قبل سنة ١٩١٠ ، فإن الدراسات التقليدية للتاريخ الأدبى والثقافى للنصف الأول من القرن العشرين تميل جميعها إلى التقليل من أهمية ولز ، وتهمل بنفس المقدار الحركة العلمية فى ذلك الوقت ، والصلة بين الكتابات القصصية وغير القصصية ، وبزوغ صنف من القصص يسمى القصص العلمى . ولذلك نقدم «ظلال المستقبل» (وبخاصة الفصل الأخير منه) من قبيل الإسهام فى تاريخ الأحداث وخطابها لم يكتب بعد .

٣- نجد فى ولز التجسيد الأتم لمفهوم خاص - وإن يكن غير واسع الانتشار - لإمكانات الكتابة فى القرن العشرين ، وهو الكاتب متنبئاً . فالنقد الأدبى أدار ظهره منذ وفاة ولز لهذا الجانب من عمله . فلا أصحاب

«النقد الجديد» ولا نقاد ما بعد البنيوية وما بعد الحداثة وجدوا في النبوءة الأدبية موضوعاً جديراً بالاهتمام . (لقد رآها ف. ر. ليفس F. R. Leavis على هذا النحو ولكنه ندّد بولز والنبوءة الولزية دون تروّ ، مسبغاً الثناء على متنبئ منافس) . أما كتب السيرة فإن المسألة الكبرى التي شغلت السّير المتأخرة له تدور حول ما إذا كان متنبئاً حقيقياً أو كاذباً . لقد عاش وكتب وأنظار الجمهور مركزة عليه ، ولذلك فإن الخلافات الراهنة في كتب السيرة الموضوعة عنه لا تعود ، من هذه الناحية ، أن تكون مناظرات بدأت وهو على قيد الحياة .

إن همّي في « ظلال المستقبل » هو أن أبين كيف أن ولز طور وسبر الإمكانات الأدبية للنبوءة من طرق جديدة . لقد وقع وهو كاتب ناشئ تحت تأثير كارلايل Carlyle العميق . وهو كاتب تبشيري ومعلم مثل بليك Blake وشلي Shelley وإمرسن Emerson ورسكن Ruskin وأرنولد Arnold وموريس Morris وييتس Yeats وشو Shaw وأورول ود . هـ . لورنس D. H. Lawrence وألدوس هكسلي Aldous Huxley ودوريس لسنغ Doris Lessing . وقد تحدّر ، ككثير من هؤلاء ، من أصل بروتستانتي إنجيلي ، ووضع إنجيلاً لاحقاً حول حالة الاطمئنان الانساني تشجيعاً لسامعيه التائهين في البرية . غير أن ولز وجد أن طريقة كارلايل فيما يتعلق بالنبوءة الاجتماعية ذات صبغة عبرية قوية وذات صفة مجازية متراخية ، فلا تقي بأغراضه ؛ فسعى إلى رفدها بالفكرة الهلنستية – الأشد غيبية – عن النبوءة من حيث أنها تهیی كشفاً دقيقاً لأحداث المستقبل . وبالإضافة إلى ذلك فإن إنجيله لم يكن حول العمل أو الفن أو الثقافة أو الاشتراكية أو الجنس أو تحرير الذات أو حتى عن العلم ، وإنما كان عن المستقبل ذاته وما يمكن أن يأتى به . وهو أقرب من سائر المتنبئين الحديثين إلى المثل الأعلى للشاعر باعتباره من سدنة أسرار وحى لم تدركه الأفهام ، وإلى الروح العالمية المكاشفة في سونيتة شيكسبير رقم ١٠٤* التي تحلم – بما يشبه الهوس – بما سيأتى .

* ليس في السونيتة ١٠٤ ما يوحى بما يقوله الكاتب، ولعل هنا خطأ مطبعياً أو وهماً وأن المقصود هو السونيتة ١٠٧ (المترجم) .

وهناك دائماً احتمال بأن يكون ثمة نفور قوى من كشف المستقبل . ومثل شلى ، بنظرته إلى الشاعر على أنه مرآة تعكس ظلالاً ، كان وإن يعرف أمثولة كهف أفلاطون* ، وقد وضع مرة (فى « بلد العميان » The Country of the Blind) صيغته الخاصة لها . وهو فى حالة كونه متنبئاً تتعثر قدماءه - مثل سجين أفلاطون - وهو يسير صوب النور : هو وحده الذى يفهم الطبيعة الحقيقية للظلال المترججة التى يراها زملاؤه السجناء على جدران الكهف ، ولكنه لا يستطيع إيصال معرفته إليهم . ويدخل فى تقمصه دوره شىء من تحطيم الذات كما أدرك فى «آلة الزمن» وما بعدها . ولم يكن يتوقع بالضرورة تفهم الأجيال القادمة أو غفرانها . وقد كتب أفلاطون من قبل فى «الجمهورية» عن سجينه بعد فك قيوده : «سيقول الناس إنه عاد من المكان العالى مطفاً العينين ، وأنه كان من الأفضل لو لم يعن له أن يفكر فى الصعود ؛ وإذا حاول شخص أن يفك قيود شخص آخر وأن يقوده صعوداً إلى النور فإنهم - أى السجناء - سيعدمون الجانى إذا أمسكوا به» .

لقد ظهرت طبعات سابقة من الفصول التالية لأول مرة فى Foundation (الفصل الخامس) وفى Fiction Studies - Science (الفصلان السابع والثامن) وفى Wellsian (الفصل السادس وأجزاء من الفصلين الثالث والرابع) . وظهر بعض مادة الفصل الثانى لأول مرة فى Europe . وظهر الفصل السادس أيضاً فى The End of the Earth (تحرير سيمون غاتريل Simon Gatrell) والفصل السابع فى H. G. Wells and Modern Science Fiction (تحرير داركو سوفن Darko Suvin وروبرت م . فلمس Robert M. Philmus) . وظهر الفصل التاسع بصيغة أخرى فى Science Fiction: A Critical Guide تحرير باتريك پارنדר . وقد نقحت هذه الفصول جميعها تمهيداً لإدخالها فى هذا الكتاب . وأشكر الصحف التى سمحت بإعادة طبعها .

* أمثولة الكهف فى أول الكتاب السابع من «الجمهورية» وفيه يشرح أفلاطون على لسان سقراط دلالات الأمثولة (المترجم) .

ويتعذر عليّ أن أعدّد ما تراكم عليّ من الديون في الكتابة عن ولز والتفكير فيه عبر سنتين طويلة - وهذه لحسن الحظ مهمة لا تصل إلى نهاية ولا أظنني استنفدتها هنا . ومن بين الأصدقاء الولزيين الذين اكتسبت صداقتهم منذ أن بدأت نشر عملي أود أن أذكر أولاً زملائي في إدارة جمعية هـ . جـ . ولز ، وعلى الأخص جون غرين ، جون هامند ، سلفيا هاردي ، كرس رولف ، مايكل دريبر (مايكل شيربورن) ، بيتر هيونوت ، بوب واتكنز . وهناك من لا يحصرهم عدّ قدموا لي الكثير من الإيحاء والتشجيع والأفكار ، أخص بالذكر منهم بريان ألدس ، برنارد برغوتزي ، ماريا تريزا شيالانت ، روبرت كروسلي ، مايكل فُت ، ديفد هيوز ، ديفد ليك ، برنارد لُونغ ، كاريو باجيتي ، روبرت فلمس ، بوني كايم سكوت ، ديفد سمث ، بريان ستيبلفورد ، ليون ستوثر ، جان بيير فيرنييه ، فيرتاندو بورتا (تلميذي) . فلهم الفضل في كل ما يستحسن في هذا الكتاب ، وكم تمنيت ، من أجلهم ، لو كان بوسعني أن آتي به على نحو أفضل .

وأود أن أسجل أيضاً امتناني لجامعة ردينغ وزملائي فيها لمؤازرتهم بحثي على مرّ السنين ، ولوظفي «غرفة الكتب النادرة» في جامعة إلينوي ، وللأصدقاء الكثيرين في دائرة اللغة الانجليزية هناك . وأخيراً أزجي شكرى من أعماق قلبي إلى جين بون تيلر - التي أهديت هذا الكتاب إليها - على مودتها ومؤازرتها دون حدود .

باترك پارندر

جامعة ردينغ ، ١٩٩٤

الفصل الأول

القصص العلمى و"شكل الأشياء الآتية"

قبل شيوع القصص العلمى كان الذى يؤرخ للأشياء قبل وقوعها مضرب المثل فى الحمق والجنون^١ . فالمسيحية باعتبارها ديناً موحى به كان لديها كتابها المقدس - أى كتاب النبوءات المحجوبة - وأكثر ما يستطيع متنبئ جديد أن يفعله هو أن يقدم تنبؤات ثانوية تستمد مرجعيتها من الكتاب المقدس . وكان مثل هؤلاء المتنبئين ينظر إليهم أتباعهم بالتبجيل ، بينما يزور عنهم آخرون فى ازدراء . أما اليوم فانهم قد يعدون فى المصابين بالفصام . وكان هناك آخرون يدعون أن لديهم قدراً من استبصار المستقبل - كالمنجمين والعرافين وقارئى البخت - ولكنهم أبقوا على هامش المجتمع . وهذا كله يناقض كل المناقضة ما كانت عليه الحال فى الزمن القديم ، عندما كان الناس يؤمنون إيماناً عاماً راسخاً بقدرات الكهانة والعرافة .

لقد بدأت الحكاية العلمانية عن المستقبل فى منتصف القرن السابع عشر ، ثم أخذت تتقوى إلى أن أصابت قصة السير جورج تشسنى* « معركة دوركنغ » (١٨٧١) Sir George Chesney: The Battle of Dorking نجاحاً سريعاً ، وأصبحت شكلاً معتمداً لقصص تجارى . وأكثر الروايات عن المستقبل رواجاً ، من تشسنى إلى رواية جورج أورويل « ١٩٨٤ » (١٩٤٨) Four Nineteen Eighty ورواية نفل شوت « على الشاطئ » (١٩٥٧) Nevil Shute : On the Beach ، تعكس وتستخدم التوجس العام من الكوارث السياسية والعسكرية المحتملة . وفى الوقت نفسه فإن القصص العلمى ، منذ أن بدأ هـ . ج . ولز ينشر عمله ، ولّد « تاريخ المستقبل » على مستوى زمنى أرفع وأوسع مما يسرته رواية الكوارث . والنمط الغالب على روايات تاريخ المستقبل أو الروايات المسلسلة هو

* كان جنرالاً فى الهند وكتب روايته هذه يصور فيها هجوماً خيالياً على انجلترا ليظهر ضعف الاستعداد العسكرى . (المترجم) .

أنها تبنى على أساس ترتيب زمنى متوقع بالتفصيل ، وما تدعيه من منزلة تنبؤية يكون محاطاً بطبقات من الغموض . فرواية أولاف ستيپلدن « الرجال الآخرون والأولون » (١٩٣٠) Olaf Stapledon : Last and First Men - وهي عبارة عن تاريخ مفصل لما بعد الحضارة الانسانية فى مليونى السنة القادمة - يقدمها « رجل مستقبلى » من نبتون يدعى أنه « الملهم الحق » ويتحدث من خلال عقل المؤلف^٢ . غير أن المقدمة مسبقة بتصدير بتوقيع أولاف ستيپلدن يعلن فيه أن الكتاب عبارة عن قصة رومانسية من صنع الخيال (ص ١١) . ويقول ستيپلدن فى تصديره إن محاولة التنبؤ بما « سيحدث على وجه الحقيقة » هى على التأكيد محاولة عديمة الجدوى لأن القصص عن المستقبل لا يعدو أن يكون مقالة فى خلق الأسطورة . « إنه ليس علماً بل فناً » (ص ١١-١٢) . ويكفى أن نذكر تمييز أرسطو فى « كتاب الشعر* » بين الشعر و« ما يقع فعلاً » أو التاريخ لنشك فى أن الأشياء ليست بهذه البساطة .

لقد وجد أرسطو أن الشعر أعم وأكثر فلسفة من التاريخ لأنه الشعر لا يبين ما وقع فعلاً بل ما ينبغى أن يقع على وجه الاحتمال أو الضرورة . وبعبارة أخرى فإن الشعر هو ما يسميه ستيپلدن « خلق الأسطورة » . غير أن إسقاط التمييز بين الشعر والواقع الفعلى على المستقبل يظل مسألة فيها نظر ، لأنه ليس ثمة « ما وقع فعلاً » . ولذلك يقول ستيپلدن فى تصديره إنه يريد السير فى طريق وسط بين « التاريخ المجرد » من ناحية والفتازيا المجردة من ناحية أخرى :

إن إطلاق الخيال وراء المستقبل البعيد . . . هو محاولة لرؤية الجنس البشرى فى محيطه الكونى وحمل قلوبنا على تقبل قيم جديدة .

ولكن لكى يكون لهذا البناء الخيالى للمستقبل المحتمل أى قدر من الفعالية يجب إخضاع خيالنا لنظام صارم . يجب أن نعمل على عدم تجاوز حدود الإمكان التى تفرضها حالة معينة للثقافة التى نعيش فى ظلها . (ص ١١)

* فى الإشارات إلى « كتاب الشعر » رجعت إلى ترجمة إحسان عباس له . (المترجم) .

وأى شخص يستطيع أن يحدد ما يجب ، أو ما يحتمل ، أن يحدث يكتسب لقب المتنبي، على الأقل إذا كانت الأحداث المتنبا بها مثيرة للإعجاب بالقدر الكافي ، ولا شك أنها فى حالة ستيبلدن من هذا القبيل . وقد قيل عن واحد من أعظم الأنبياء « إن الذين صدقوا محمداً . . . آمنوا بنبوته ، وأما الذين لم يصدقوا فقد دعوه شاعراً »^٢ . هناك ما سماه أندرو مارتين Andrew Martin « الصلة السرية » بين النبوة والأدب الخيالي ، ثم إن القدرة على خلق الأساطير التى يقصدها ستيبلدن فى « الرجال الأخيرون والأولون » يمكن أن تعتبر شكلاً أدبياً للقدرة على التنبؤ ، طالما أن جدارتها بالقبول لا تقوم ولا تسقط بناء على أى نوع خاص من التنبؤات .

لقد قال الناقد آى . أ . رتشردرس I. A. Richards - فى محاضرة ألقاها عام ١٩٦٠ عن مستقبل الشعر - عن النبوة ما يلى :

جربى العرف ، وبحق ، أن النبى يرتعش ، فعليه واجب مزدوج : واجب تطويع المستقبل بكلماته وواجب كونه نبياً صادقاً لا كاذباً . وجزاء النبى الكاذب ، كما نذكر ، هو أن يرجم بالحجارة حتى الموت^٥ .

فى هذه الشطحة الرومنطيقية المتعمدة يضع رتشردرس فى قرن نوعين من النبوة : الصورة الكلاسيكية للكهنة المرتعشة أو العرافة (Sibyl) والفكرة العبرية للواعظ الذى قد يتعرض للموت رجماً بالحجارة . وقد اقتبست ملاحظاته من بحث حول قصائد تعتبر « التشريع غير المعترف به للعالم » (ص ١٠٦) ، وهو ادعاء قد يمكن - مع بعض التحفظات - اطلاقه على القصص العلمى .

ورتشردرس نفسه معروف على نطاق أوسع بأنه متنبي (عادة خامد) بمعنى آخر فضفاض . فمشاركتة فى « اللغة الانجليزية الأساسية(*) » Basic English ، وهى شكل منطقى مبسط للغة الانجليزية ، أدت لدى بعض الأوساط إلى اعتبارها المعادل الفكرى للرجم . وفى الحقيقية توجد بعض الصلات بين

(*) وضعها رتشردرس بالاشتراك مع تشارلز أوغدن عام ١٩٣٠ ، وتتألف هذه اللغة من ٨٥٠ كلمة تم اختيارها

بعناية ، منها ٦٠٠ كلمة أسماء و ١٥٠ كلمة أفعال والباقى عوامل ، (المترجم) .

رتشردس و هـ . ج . ولز ؛ فرتشردس وتلميذه وليم إمپسن William Empson كانا قد رُبطا بالتنوير العلمى المبكر الذى سنتناوله فى الفصل التاسع ؛ وقد اعترف بالتأثير البناء لولز على أفكاره الفلسفية المبكرة^٦ . إن مهمة « المتنبي الاجتماعى » أو المفكر المدفوع والمتطلع إلى الأمام قد انتزعت رتشردرس من موطنه الأصلي ، وهو النقد الأدبى فى كيمبرج ، مثلما انتزعت هـ . ج . ولز من تيار الرواية العادية .

فما هى العلاقة - إذا كانت ثمة علاقة - بين النبوءة الاجتماعية والنبوءة الإبداعية أو الأدبية - بين مواعظ المفكر التبشيري وكتابة القصة التنبؤية ؟ فى القرنين السابع عشر والثامن عشر لم تكن الروايات المبكرة عن المستقبل تشترك فى كثير مع النبوءات الدينية فى ذلك الوقت ، ويرى پول ك . ألكن - فى « أصول القصص المستقبلية » Paul K. Alkon: Origins of Futuristic Fiction - أن هناك تناقضاً جذرياً بين شكلى الخطاب هذين . فالنبوءة الدينية - من حيث أنها شكل من تأويل الكتاب المقدس - أمثولية (allegorical) مسحوبة على الماضى ومثقلة بالمرجعية ، أما القصص المستقبلية فيقوم على الابتداع غير المسئول و« تكديس روائى للتفاصيل » . فالمتنبئ الدينى يدعى الصدق ، بينما كل ما يدعيه الروائى هو مجرد الاحتمال^٧ . غير أن القرن التاسع عشر غير مدلولات هذا البحث من أساسها بطرق لا يتطرق إليها ألكن ولا غيره . فمقالة توماس كارلايل « علامات الزمان » (١٨٢٩) Signs of the Times تنحى جانباً ضوضاء النبوءة الألفية(*) وتقيم مكانها النبوءة الاجتماعية أو الثقافية : أى تفحص ورؤية علامات زماننا نحن لا علامات المستقبل^٨ . أما الكتاب

(*) النبوءة الألفية: وردت فى سفر رؤيا يوحنا من العهد الجديد . وملخصها أن المسيح يأتى فى آخر الزمان بكل بهائه ويجمع العادلين ويغلب الأعداء ويقيد الشيطان ويبيع القديسين ، ويقوم على الأرض حكماً مجيداً مليئاً بالنعم والبركات الروحية والمادية ، ويشارك فيه القديسون . وتدوم هذه المملكة ألف سنة يطلق بعدها الشيطان ويبيع الأموات جميعاً . فمن كان صالحاً ذهب مع المسيح والقديسين إلى السماء حيث النعيم الأبدى ، وأما الشيطان والأشرار فيلقون فى النار خالدين فيها أبداً . ولهذه الفكرة جذور فى فكرة المخلص فى العهد القديم كرمى دانيال والنبوءات الكثيرة الأخرى حول الموضوع . وتتجدد الفكرة ويزداد المؤمنون بها مع التغييرات الاجتماعية الكبيرة والكوارث العامة . وقد امتدت إلى الإسلام فى فكرة المهدي المنتظر والامام المنتظر وعودة المسيح وظهور الدجال (أنظر الموسوعة البريطانية (Millenium) و (Doctrines and Dogmas) والانترنت (Millenium and Millenarianism) . (المترجم)

البروتستانتيون الرومنطيقيون - مثل وردزورث وشلي وماثيو آرنولد - فيعاملون لغة نبوءة الكتاب المقدس على أنها مصدر للمجاز للدلالة على دور الشاعر أو الناقد . ويتتبع كارلايل - فى « الأبطال وعبادة البطل » Heroes and Hero Worship خطأً للتحدّر الروحى من مؤسسى ديانات التوحيد العظيمة - يسوع ومحمد - إلى الأديب المغترب المكافح فى عصره . ولا ينكر أن ما كان فى طريقه إلى الضياع فى ثنايا هذه التطبيقات المجازية لفكرة النبوءة هو مفهوم قول الحق عن المستقبل . فأن يكتب كاتب للمستقبل باعتباره « مشرعاً غير معترف به » أو عبقرىاً أسىء فهمه ، ليس كمن يتنبأ به . غير أن تاريخية القرن التاسع عشر تفترض ضمناً أن معرفة الحاضر معرفة تامة تعنى معرفة المستقبل طالما أن أحدهما يتبع الآخر لا محالة . ولذلك فإن المتنبيين الاجتماعيين ينبهون قراءهم إلى الحاضر بانذارهم بما يؤدى إليه الحاضر بالضرورة .

لقد لعبت النبوءة الاجتماعية دوراً فى أدب الرفض السياسى على مدى القرن العشرين . فتاريخ معارضة الأسلحة النووية يتضمن كتابات نبوءية بأقلام مفكرين مشهورين ، من مثل بيرترند رسل Bertrand Russel وإي . پ . تومبسن E. P. Thompson ، يستعملون سيناريو المستقبل، ويعمدون إلى القصص العلمى فى بعض أساليبهم السردية . ومن أحدث التطورات فى هذا الصدد استخدام سيناريو المستقبل من قبل صانعى السياسة والخبراء الأكاديميين الذين لا يعنون بمخاطبة جمهور كبير . (صحيح أن هذا السيناريو يستخدم منذ زمن بعيد فى مجالات تخصصية كالاستراتيجية الحربية) . وقد جعل التكن الاجتماعى والسياسى موضوعاً يدرس باعتباره علم المستقبل أو « دراسات المستقبل » ، وهو باب مؤسس على الاعتقاد بأن « الجهود الجادة » لرؤية ما ينتظرنا يمكن أن تساعدنا على التحكم فى مقدراتنا . وقد دعا و . وارن واغر W. Warren Wagar ، وهو مؤرخ معاصر لولز وواحد من مريديه ، إلى علم « للفرضيات » (hypothetics) يهدف إلى « استقصاء مختلف الفرضيات

حول المستقبل بتفصيل فنى لتقدير مدى صحتها « (ص ١٥) . ومع ذلك فإن واغّر يقدم موجزه لتاريخ القرن الحادى والعشرين فى شكل كتاب مدرسى عن المستقبل جمعه شخص خيالى أوجد ليشهد على صحته مثلما فعل الراوى النبتونى عند ستيبلدن .

كذلك فإن نبوءات كارلايل الثقافية تنطوى هى أيضاً على عنصر هام من الابتكار القصصى - الأستاذ تيوفلزدروك Teufelsdröckh والأستاذ ساورتيغ Sauerteig - وقد بنيت على مفهوم قوى لروح العصر Zeitgeist والتغيرات الكبرى . وكارلايل هو منظر التاريخ بأعلى معنى - هو فى الحقيقة يتجاوز فكرة أرسطو عن التاريخ - لأن التاريخ عنده هو « الوثيقة النبوءية الحقيقية » التى يمكن بواسطتها تأويل المستقبل أو الحدى به^{١٠} . وهذا يجعل التاريخية والقصص المستقبلية فى تماس وثيق ، وهو تماس يمكن أن يلمح فى زمن كارلايل نفسه - مثلاً فى رواية ماري شلى « الرجل الأخير » (١٨٢٦) Mary Shelley: The Last Man - وكثيراً ما يتجدد خلال قرن ونصف من الانتقال من النبوءة الاجتماعية إلى « الدراسات المستقبلية » . وما يميز الابتكار القصصى فى هذا المجال هو معرفته بتكافؤ الأضداد ، واستخدامه أشكالاً سردية متفاوته ومبهمه ، واستعداده للجوء إلى المحاكاة الساخرة للذات . وفى مقدمة « الرجل الأخير » تزور ماري شلى وزوجها كهف العرافة الكومية (*) Cumaean Sibyl فى بايى Baiae عام ١٨١٨ . وتنتثر على أرض الكهف أوراق الأشجار ولحاؤها مكتوباً عليها بلغات مختلفة بما فى ذلك الانجليزية . وبين صحائف العرافة البسيطة هذه تأتى (ويا للعجب !) القصة التالية^{١١} . ولما جاء إدغار ألن پو Edgar Allan Poe بعد شلى لم نعد نعرف دائماً نوع المحاكاة الساخرة التى يعنىها ، ولكن لا يوجد ثمة غموض فى قصته « ميلونتا توتا » (١٨٤٩) Mellonta Tauta . فالعنوان

(*) نسبة إلى كومي وهى مدينة رومانية قديمة على ساحل البحر قريباً من مدينة نابلى اليوم . والعرافة « سبل » كانت فى الأصل امرأة تعيش قرب طروادة ، وكان أبولو يلهمها النبوءات المغمزة على طريقة بيثيا عرافة دلفى . وأصبح اسمها يطلق على جميع العرافات . (المترجم)

مستمد من عبارة لسوفوكليس تعنى « هذه الأشياء فى المستقبل » ، والأسطر الأولى من الرسالة المكتوبة على متن بالون فى ١ إبريل (نيسان) ٢٨٤٨ تعلن ، فى حد ذاتها ، أنها خدعة .

وكما يذكرنا آي . أ . رتشردس ، هناك جزاء للمتنبئ الكاذب . ومهارة الروائى المستقبلى تكمن فى أن يدعى شيئاً من صلاحية النبوءة بينما يتجنب عقوبة الانكشاف . فالوقائع تفضح المتنبئ الكاذب . وقد تحدث ولز عن « التحدى المحطّم للذات »^{١٢} الذى ينطوى عليه القصص عن المستقبل ، وهو تحدّ يفضل بعض الكتاب ، دون بعضهم ، مواجهته بصورة مباشرة جداً . ومقالة پو الكونية «وجدتها» Eureka - وهى بطبيعة الحال قصيدة نثرية أكثر منها رواية - تخفى التهكم بصورة رائعة فى ادعائها الصدق (« أقدم إليكم كتاب الحقائق هذا ، لا بصفته يحكى الحقيقة ، ولكن للجمال الذى يكمن فى حقائقه ، مما يجعله صادقاً - هذا ما أكدّه كاتبه »)^{١٣} . وأولاف ستيپلدن من رجال القصص العلمى الخّص ، فهو يحذر الادعاء بالصدق الحرفى ، كما أنه يحرص على ألا يرى مصدراً للأكاذيب . فما أن ادعى أنه فى « الرجال الأخيرون والأولون » صاحب أسطورة لا نبوءة حتى شعر أن عليه أن يميز بين الأسطورة الصادقة والزائفة :

الأسطورة الصادقة هي التي تعبر، ضمن عالم ذي ثقافة معينة، تعبيراً غنياً - وربما كان في كثير من الأحيان مأساوياً - عن أعلي درجات الإعجاب الممكنة في إطار تلك الثقافة . أما الأسطورة الزائفة فهي التي إما أن تتجاوز بعنف حدود المصادقية التي يقرها قالب تلك الثقافة ، أو تعبر عن نواح معجبة لم تصل إلي مستوي النواحي التي توصلت إليها بأفضل رؤية لثقافتها . (ص ١١-١٣)

ويدعى ستيپلدن بأنه فى تأليفه « الرجال الأخيرون والأولون » ينتج أسطورة صادقة لا فانتازيا غير منضبطة . وفى هذا دفاع مزدوج يحميه من الحدّ على النبوءة الزائفة .

أما ولز فإنه كان ، فى حالات نفسية مختلفة ، يضع نفسه عند نقاط متفاوتة من الحد الفاصل بين هزل پو وجدّ ستيپلدن وجدّيته . غير أنه كان ، على نقيض ستيپلدن ، يحرص على أن يُعترف بنبوته . ولكن طريقته فى التصدى للنبوة تنطوى على نفخ الذات والاستخفاف بها فى أن معاً . لم يكن هناك كاتب أشد ولعاً بإنتاج سيناريو المستقبل من ولز ؛ وعناوينه التنبؤية – مثل « الحرب التى ستنتهى الحروب » The War That Will End War و« شكل الأشياء الآتية » The Shape of Things to Come – قد درجت فى اللغة وأصبحت تجدها فى أى معجم للاقتباس . ومع ذلك فإنه يدعى أنه ندم على إنفاق كل هذا الوقت فى « فن سريع الزوال رغم كونه مسلياً »^{١٤} . وقد قال فى كلمة ألقاها عام ١٩٣٩ حول « اليوطوبيات » : « لا أمل لأية كتابة مستقبلية فى أن تصبح أدباً باقياً . فنحن المتنبيّن نكتب لزماننا وننسى تقريباً قبل أن نموت » (ص ١١٧) . وأعلن فى كلمة أخرى بعنوان « قصص حول المستقبل » أن الكتاب المتنبيّن يجب أن يهدفوا إلى « وهم الحقيقة » فينتجوا أثر « الرواية التاريخية بصورة مقلوبة » (ص ٢٤٧) ؛ ولكن هذا كان صعباً على الرواية وأسوأ حالاً فى السينما حيث ينبغى توجيه أدق الاهتمام إلى التفاصيل المرئية . وهو لم يجرب قط رواية (تميزاً لها عن القصة الرومانسية أو التاريخ الزائف) مقامة فى المستقبل لأنه لم يستطع قط أن يرضى عن الفصل الأول (ص ٢٤٩) . وعندما أخذ يعدّ أسباب كون مناظر الذروة فى الفلم الذى أنتجه مع ألكساندر كوردا Alexander Korda – بعيدة عن الاحتمال انتهى إلى القول :

لنفرض أن لدى واحد منا أو كلنا رؤيا نبوية حقيقية – دقيقة وبكل التفاصيل – للمباني والغرف والملابس بعد مائة سنة من الآن ، ولنفرض أننا وضعنا ذلك على الشاشة ، فهل يكون ذلك مقنعاً كالمادة التى لفقناها؟ (ص ٢٥٠)

ويقول فردريك جيمسن Fredric Jameson إن أعمق مهمة للقصص العلمي الحديث هي « أن يُصوّر ويُمسح عجزنا عن تخيل المستقبل » ، أى أنه ينجح من حيث أخفق^{١٥} . لقد أدرك ولز وجيمسن كلاهما حالة المفارقة فى النبوءة ، ووجدوا فى تلك المفارقة بارقة أمل ، رغم أن الأمل مختلف فى الحالتين ، فجيمسن يكتشف فى النبوءات الزائفة فى القصص العلمي « الواقع الطبائى المستحيل والذى لا يمكن التعبير عنه » (ص ١٥٧) ؛ بينما يرى ولز أن الكتاب المتنبيين فى المستقبل قد يقعون على الحقيقة بطريقة ما أو بالصدفة ، ويجلبون لقرائهم أخباراً صحيحة « من لا مكان » . ولكنهم عندئذ ، وعندئذ فقط ، يقعون تحت طائلة القدر الأسطورى الذى لقيته كساندرا^(*) ، وسيكونون موضع سخرية بأنهم متنبئون كاذبون .

٢

إن القصص العلمي ليس بالضرورة قصصاً يدور كله فى المستقبل ، ولكنه ذو وشيجة قوية به . وجميع المراقبين متفقون على أن وجود ابتكار ما - وهو ، كما يقول ولز ، « خاصية غريبة أو عالم غريب » - هو ما يميز القصص العلمي^{١٦} . ويرى داركو سوفن Darko Suvin أن الملمح المحدد للقصص العلمي هو « بسيطرة السرد أو هيمنة "جديد" قصصى يدعمه المنطق العقلى »^{١٧} .

فالجديد يقوم بتغيير بيئة المؤلف المجرّبة بطرق محددة ، وقد تكون هذه البيئة المغيرة مكاناً آخر أو زماناً آخر أو كليهما ، ولكن كلما اتسعت معرفتنا بالبيئة الأرضية أو الفضائية زاد الضغط على المؤلف لإبراز التبادل فى الزمن . وفى عام ١٨٧٢ استطاع ساميول بطلر Samuel Butler فى « ايريون »^(**) Erewhon أن يصف بصورة معقولة (وإن تكن ساخرة) عالماً غريباً ينتظر أن يكتشف وراء المدى . ولو كان اليوم لكان عليه أن يستحضر السفر فى الفضاء .

(*) كساندرا : ابنة بريام ملك طروادة وهبها أبولو القدرة على التنبؤ . ولكنها لم تستجب لتودده فقضى عليها ألا يصدقها أحد .

فلم يصدقها الطرواديون عندما حذرتهم من الحصان الخشبى . وقارن بزرقاء اليمامة . (المترجم).

(**) اسم هذه الأرض الخيالية هو مقلوب nowhere . (المترجم) .

ولما كان القصص العلمى يعتمد على وسائل نقل جديدة أو اكتشافات علمية جديدة فإنه يدور حتماً فى المستقبل ما لم يستحضر المؤلف وسائل مصطنعة كاختراع سرى أو ماضٍ بديل.

وإذا ما سلمنا للفنان « بجديده » فإن الخيال المنضبط ، المثل الأعلى عند ستيفلن، وهو الذى يحده الاحتمال ، يشترك فى كثير مع توجه سوشن إلى المنطق العقلى لتدعيم مبدئه . وتتحدث التفسيرات السابقة للقصص العلمى عن ضرورة « التفسير العلمى » لتبرير الجدة القصصية . غير أنه قد يكون هناك اعتراض بأن جميع هذه الصيغ تقوم على مفهوم للمسئولية الفكرية والجديّة لا يحاول القصص العلمى بالضرورة أن يفى به . فالقصص العلمى الحقيقى قلما يشبه السيناريوهات التى يركبها علماء المستقبل أو الباحثون المفكرون إلا فى بعض النواحي السطحية جداً . والسبب فى ذلك هو أن التفسير العلمى أو موكب المنطق العقلى ، وإن يكن أحد أعراف هذا الصنف ، فإنه فى معظم الحالات خيالى أيضاً إلى درجة لا تخفى . وأكثر ما يتقنه الكتّاب هو محاكاة المنطق بصورة جادة أو ساخرة .

ومن هذه الناحية فإن الدور الظاهر للفنان هو الساحر لا المتنبي . وقد وجد هـ . ج . ولز أن رومانسياته العلمية المبكرة تنطوى على إحلال رقية جديدة معقولة محل السحر . وقد كتب فى عام ١٩١٣ فى « مقدمة الرومانسيات العلمية » قائلاً : « بدلاً من المقابلة المعتادة مع الشيطان أو ساحر يمكن أن يستعاض بثثرة علمية تستخدم بصورة بارعة فتكون أكثر جدوى » (ص ٢٤١-٢٤٢) . واستخدام « الثثرة العلمية » جلى واضح سواء بالنسبة « للمسافر فى الزمن » أو الدكتور مورو أو غرفن أو كافور ، الذى يقوم بالشرح . صحيح أن فكرة « المنطق العقلى » تتجاوز تبرير المبتكرات الجديدة ، سواء منها الاختفاء عن النظر أو الهندسة البيولوجية أو آلات الزمن أو السفر فى الزمن أو الفضاء ، إلى بنى العوالم الغريبة والتجارب التى يوصل إليها الابتكار . ومع ذلك فإن الكشف المنطقى فى

جميع رومانسيات ولز يفضى إلى انعكاسات ساخرة تنطوى على المفارقة .
« فالمسافر فى الزمن » الذى يذهب إلى ما بعد فترة موته ليشهد موت الجنس البشرى ، ومستكشف القمر الذى حبس وربما قتل على أيدي السلينيين^(*)
Selenites الذين يعجب بهم ، والغزاة من المريخ الذى لا يبيدهم بنو الانسان وإنما البكتيريا الأرضية - كل هؤلاء ليسوا إلا صورا من الاعتداد بالنفس تطارده ربات الانتقام . . . من المنطق الذى صيغ باتقان بحيث يدل على العدالة المثالية أكثر مما يدل على العدالة العلمية أو المنطقية . وقد أخذ على هذا المنطق الذى تقوم عليه رومانسيات ولز العلمية مأخذ جوهريه منذ أن نشرت أول مرة .
وعلى سبيل المثال بين ولز نفسه أن الرجل الخفى كان لا بد أعمى طالما أن عينيه كانتا خافيتين^{١٨} . وقد لاحظ معاصره كاتب القصص العلمى م . پ . شيل M. P. Shiel أن « المسافر فى الزمن » كان ينبغى أن يموت أثناء سفره فى المستقبل ، وأن حضارة المريخ ما كان ينبغى أن تبقى حتى ولو أبيدت البكتيريا الأرضية^{١٩} . وإذا كان المنطق العلقى ضرورياً لتبرير الابتكار فإن الكثير يعتمد على ما إذا كنا نشعر أو لا نشعر بأن هذه المزاعم يمكن أن تدحض . غير أنها فى الواقع لاحقة بالأثر الفنى وهامشية بالنسبة له .

إن تاريخ القصص العلمى منذ أبعد الأزمنة ، من لوسيان^(**) مروراً بسويفت Swift وڤولتير Voltaire إلى پو ، ملئ بالخدع الأدبية وأشكال المحاكاة الساخرة . وهو لا يختلف من هذه الناحية عن سائر أنواع القصص التى ترمى إلى الإيهام بالحقيقة . والمحاكاة الساخرة ، حسب نظرية ميخائيل باختين Mikhail Bakhtin ، هى إحدى الأدوات الأساسية فى الرواية ، وربما كانت كذلك بالنسبة لكل الأدب . وإذا أمعنا النظر فى قول باختين بأن « كثيراً من الأعمال فى الأدب العالمى لم تحمُ شبهة حول طبيعة المحاكاة الساخرة فيها » فلا بد أن يتوارد إلى الأذهان ما وضعه كتاب القصص العلمى من «تواريخ

(*) سلينى Selene هى إلهة القمر عند اليونان ، وللقمر عندهم إلهات أخرى . (المترجم) .

(**) لوسيان : كاتب يونانى (حوالى ١١٥ إلى حوالى ٢٠٠ م) كتب " حورات الموتى " والرواية الساخرة " التاريخ الصحيح " وكثيراً من المحاكاة الأدبية .

المستقبل» وما ادعوه فيها من تسلسل زمني دقيق وعروض لمنطق عقلي فى غاية الاحكام^{٢٠} . فما الفرق إذن بين قصة مدعومة بالمنطق العقلي وبين قصة مدعومة بالمحاكاة الساخرة للمنطق ؟ والمحاكاة الساخرة للمنطق ، كدحض الحجة بسخف نتائجها هى - بعد كل ما يقال - شكل مقبول من المنطق . وبالمثل يمكن أن يقال إن المحاكاة الساخرة للرياضيات هى شكل من الرياضيات ، وأن المعارضة الموسيقية شكل من أشكال الموسيقى . فالمنطقى والرياضى والموسيقى يجب أن يجدوا هذه المتناقضات الظاهرية مما يمكن تحمله . ولكن هل يستطيع العالم أن يتقبل أنه ليس هناك فروق جوهرية بين تفسير علمى ومحاكاة ساخرة لذلك التفسير؟ .

من الممكن تقديم أمثلة على نظريات علمية بدأت على شكل محاكاة ساخرة . فعالم الرياضيات الفكتورى جيمس كلارك - ماكسول Maxwell James Clerk يعتبر بصورة عامة مسئولاً عن فكرة أن الغاز يتكون من جزيئات لا ترى يصطدم بعضها ببعض ككرات البلياردو . ولكن كلارك - ماكسول لم يكن يستطيع ، فى ظاهر الأمر ، تقديم أى إثبات لهذه الفكرة عندما تقدم بها فى البداية كفرض رجماً بالغيب ، ولكنها انطوت ، فيما يبدو ، على تفسير لأكثر الظواهر الفيزيائية والكيميائية للغازات ، ولذلك أخذ يؤمن بها بصورة تدريجية . ثم أصبح من المقبول بعامة فى دنيا العلم أن النموذج لغاز ما عبارة عن حيز مملوء بكرات صغيرة غير مرئية تتصادم وترتد^{٢١} .

لقد أوردت هذا المثال بصورة « غير علمية » عن قصد مبرزاً عنصر المحاكاة الساخرة . وهذا يقودنا إلى نقطة أخرى : إن العلم الصارم والمنطق العلمى قد لا يتنافران مع المحاكاة الساخرة ولكنهما لا يحتملانها إلا قليلاً . وإذا ما أصبح « الفرض الجنونى » - كفرض كلارك - ماكسول - مصداقاً فإنه لا يعود محاكاة ساخرة . والمنطق ، فى المقابل، يهْمُش المحاكاة الساخرة بون أن يلغيها : ودحض الحجة باظهار سخف نتائجها ليس له مكانة خاصة أو مميزة كأداة

فلسفية . أما الأدب فإنه يجعل إمكان وجود المحاكاة الساخرة فى مقدمة الاعتبارات ، غير أن إدراك وجودها فعلاً يعتمد على أعراف القراءة التى نحيط بها النص . فبعض النقاد ، مثل باختين ووليم إمپسن ، يرون المحاكاة الساخرة فى كل عمل ، بينما لا يراها الآخرون فى أى عمل . والخاصية المميزة للقصص العلمى واستخدامه للمنطق العقلى (الخيالى) باعتباره القاعدة المؤيدة له ، هى انجذابه المتساوى والمتعاكس إلى النبوءة والمحاكاة الساخرة .

٣

تعرف لندا هتشيون Linda Hutcheon المحاكاة الساخرة بأوسع مدلولاتها بأنها «التكرار مع الفارق» ، وتعنى ضمناً المسافة التى توجد لها المفارقة بين العمل السابق والعمل الجديد^{٢٢} . وهكذا إذا كانت المحاكاة الساخرة تنظر إلى الوراثة فإن عنصر النبوءة فى القصص المستقبلية القائم على الجديد العقلى ينظر بالضرورة إلى الأمام . وفكرة أو فرضية وجود النبوءة والمحاكاة الساخرة معاً تتيح لنا أن نتبين الشروط التى يمكن بها تخيل المستقبل أو سرد أحداثه .

إن الجدة المطلقة لا تهمنا طالما أن أروع ما يمكن أن تقدمه النبوءة هو جدة نسبية ، وبخاصة إذا كسيت النبوءة باللغة . فعوالم القصص العلمى ليست حتى كالعوالم التى اكتشفتها أليس^(*) Alice فى وجار الأرنب ، كما لا يمكن وصف عوالم أليس بأنها نبوءية . ومقتضيات الإمكان ومشابهة الحقيقة (ما سماه ستيلدن «الخيال المنضبط») يكفلان إقامة المستقبل على غرار ما نعرفه فقط . فالاتجاهات الخفية للحاضر قد تُجعل واضحة ، وأسوأ المخاوف قد تتحقق ، أو أن مجموعة من القوى المفهومة تماماً قد تستحضر عالماً يختلف عن العالم الذى نظن أننا نساكنه اختلافاً مروعاً ؛ ويجب أن تكون استجابتنا فى كل حالة مشوبة بالمفارقة . ومن الأقوال التى تحرص نصوص القصص العلمى على إثباتها : «إذا استمر ذلك . . .» ، «هكذا هى الحال فى الواقع» ، «إلى هذا تنتهى الأمور» .

(*) «أليس فى بلد العجائب» . (المترجم)

ومن المجازات الأثيرة أن المستقبل محاكاة ساخرة للحاضر . (مما يقبل الأخذ والرد القول بأن قواعد الاحتمال والجدارة بالتصديق التي تنتج مثل هذه المحاكاة الساخرة هي أحد الأسباب الرئيسية التي تجعل كتاب القصص العلمي يخطئون في تصورهم للمستقبل ، غير أن الكاتب الذي يحذر من مستقبل لايتحقق يمكن، كما رأينا فيما تقدم ، أن يدعى التردى برداء النبوءة الثقافية) .

إن وجود النبوءة والمحاكاة الساخرة معاً (أى الجدة الأصيلة والتكرار مع الفارق) كثيراً ما يكون واضحاً فى الجمل الابتدائية فى الأعمال التى يقدم فيها إطار المستقبل على أنه مفروض مباشر دون حاجة بالراوى إلى السفر أوبالقارئ إلى الانتقال إلى ذلك المستقبل . وبداية رواية جورج أورول من الأمثلة المشهورة على ذلك :

كان يوماً ساطعاً فى إبريل (نيسان) وكانت الساعات تدق الثالثة عشرة .

هذه عبارة قصيرة منقّرة (الساعة الأوروبية التى تستمر فى بيان ساعات اليوم الأربع والعشرين تسمى إلى تقوقع الانجليز فى جزيرتهم) تفيدنا بأن علينا أن نتوقع بلاءً مكرباً متخلفاً من الناحية التكنولوجية . والمحاكاة الساخرة للقصص التقليدية التى تبدأ فى الربيع سرعان ما تلقى فى روعنا شعوراً بفقدان الأمل .

إن أورول يكتب كتابة هجاء متبصر . والقصص العلمى يميل عادة إلى «رؤتنة» النبوءة والمحاكاة الساخرة فى الجمل أو الفقرات الافتتاحية التى تجانب البهرجة الأسلوبية ، وتبدو كأنها تحرص على عدم استرعاء الانتباه لها . كم من القراء ، مثلاً، توقف عند كراسى «المسافر فى الزمن» التى كانت من اختراعه فكانت وكأنها تعانقنا وتدغدغنا بدلاً من أن تستسلم للجلوس عليها (الفقرة ١)؟ وأى جو يمكن توفيره أنسب من ذلك الجو للتحدث فى «الأمور العويصة» حيث

يدعو «المسافر» ضيوفه إلى أطراح بعض المفاهيم الفلسفية الأولية التي ترسخت في أذهانهم؟ وبعد أن استسلم الضيوف لعناق شكل جديد من الكراسي أصبحوا ، كوسطاء التنويم المغناطيسي، على استعداد لتقبل ما يوحى به إليهم . ولنا أن نفترض أنه لولا وجود ظهر ثابت صلب يسندهم لتشتت أذهانهم منذ البداية . وبداية « حرب الكواكب » The War of the Worlds أشد ميلودرامية جداً :

ما من أحد كان يمكن أن يصدق في السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر أن عالمنا هذا كان يراقب بدقة واهتمام من قبل قوم يفوقون الإنسان في الذكاء ، ومع ذلك فإنهم عرضة للفناء مثله ؛ وإذا كان الناس يشغلون أنفسهم بشئونهم المختلفة فإنهم كانوا قيد المراقبة والدرس عن كثب مثلما يراقب إنسان بالجمهور المخلوقات العابرة التي تحتشد وتتكاثر في نقطة ماء (الفقرة الأولى من الفصل الأول من الكتاب الأول) .

هنا تسيطر علينا فكرة العكس المنطقي إذ ينظر المراقبون بنفس الطريقة مثلما يراقب «إنسان بالمجهر» العينات البيولوجية ، غير أن الجزء الأول من الجملة كاسح بهدوء بطريقة خاصة . فالراوي يقول ما من أحد كان يمكن أن يصدق ما حدث في السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر، وهو يعنى ضمناً أن كل واحد يصدقه «الآن» . وفي جمل من هذا القبيل يكون المستقبل منظوراً ذهنياً ومادياً ينبغي أن نتأقلم معه ، ولكنه في الوقت نفسه نوع من النكتة . فنحن نُجرّ إلى داخله مع إبقائنا في الوقت نفسه على مبعدة منه . والمستقبل يجب أن يكون مختلفاً ، ولكن الاختلاف يمكن أن يفهم دائماً بمدلولات التكرار الغريب . والجمل من هذا القبيل تثبت ما قد يسميه باختين السرد المزيج الصوت في نص القصص العلمي ، أي خطاباً متوازناً بين النبوءة والمحاكاة الساخرة .

إن الجمل الافتتاحية « فهارس » (كما يقول نسطور في مسرحية شيكسبير «ترويلس وكريسيدا» Troilus and Cressida) ترى فيها كالجنين للكتلة الهائلة من الأشياء التي ستأتي مكتملة (*) (الفصل ١ المشهد ٣ ، الآيات ٣٤٣ – ٣٤٦) .

والكاتب الذى يريد أن يتشغل بمفاهيم النبوة فى صراحة وبصورة قاطعة لا يضيق وقتاً فى التحول من الجنين إلى الكتلة الهائلة . لذلك نجد ولز يبدأ بنموذج مصغر لاختراع «المسافر فى الزمن» الذى يطوح به العالم النفسى فى المستقبل بنقرة من إصبعه . ولا يتوقف «المسافر فى الزمن» أثناء رحلته إلا عندما وُجد على عتبة المستقبل يحرسها تمثال ضخّم لأبى الهول الأبيض . ولرمز النبوة المتأمل هذا عدة مصادر من بينها رواية جول فيرن « أبو الهول الثلجى » Jules Verne: Les Sphinx Des Glaces (هى عطف على رواية پو « آرثرغوردن پم » Narrative of Arthur Gordon Pym) ودوائر التماثيل العظيمة التى تشكل « نوعاً من حجارة ستونهنج **) Stonehenge ، « بليت ونمت عليها النباتات الطفيلية » والتى رآها راوية ساميول بطلر من خلال حجاب من السحب عندما وصل إلى قمة الجبال وأخذ يستعد للهبوط فى إيريون^{٢٣} . ويغمى على بطل بطلر أمام التماثيل ، بينما يرى « المسافر فى الزمن » أبا الهول فى البداية بصورة غير واضحة من خلال سحابة من البرد ، فيستسلم لغيوبة شبيهة بالتنويم المغناطيسى: (يقول) « وقفت أنظر إليه هنيهة – ربما كانت نصف دقيقة أو نصف ساعة » (الفصل الثالث) . وفى كل حالة تثير المواجهة سلسلة من الأسئلة :

(*) يدافع نسطور عن اقتراحه بتكليف أخيل بمنازلة هكتور ، ويضيف أن النجاح وإن يكن خاصاً فلا بد أن ينال العموم قسط منه إيجابياً كان أو سلبياً . «وفى مثل هذه الفهارس ترى، على صغرهما بالقياس إلى مجلداتها الضخمة التالية ، كالجنين للكتلة الهائلة من الأشياء التى ستأتى مكتملة» . (المترجم)

(**) ستونهنج : مجموعة كبيرة من الحجارة القائمة فى سهل سالزبرى بإنجلترا أقيمت فيما يعتقد ما بين ١٨٠٠ و ١٤٠٠ ق . م ، وهى مرتبة فى شكل حلوتى حصان متحدتين فى المركز وحولهما خندق دائرى قطره ٢٠٠ قدم . ويعتقد أنها أقيمت لتحديد طلوع الشمس وغروبها فى مختلف أيام السنة ، ولعلها كانت مركزاً لعبادة الشمس . (المترجم)

ماذا يكون إذن مصيرى على أيدي هؤلاء السكان؟ هل أؤخذ وأقدم قرباناً لحراس الممر الخيفين؟ (ايريون، ص ٥٠) .

ماذا يمكن أن يظهر عندما تسحب تلك الستارة نهائياً؟ ما الذى لا يمكن أن يحدث لبنى البشر؟ وماذا إذا أصبحت القسوة نزعة عامة؟ وماذا إذا كان الجنس (البشرى) قد فقد فى هذه الفترة خواصه الإنسانية وتحول إلى شيء لا إنسانى غير متعاطف ذى قوة ساحقة؟ (آلة الزمن، الفصل الثالث) .

ويقول راوية ولز (فى الفصل الثالث) : « نظرت مرة أخرى إلى الشكل الجاثم » ، وكلمة «الشكل» تذكر « بالأشكال » و« الظلال » النبؤية عند شلى و« الروح المشكّلة » للخيال عند كولرج Coleridge ، مما جعل ولز يضيف إلى عبارة شيكسبير فيما بعد « الأشياء التى ستأتى » .

وكلمة «شكل» هنا لها معنيان، فهى تشير فى آن واحد إلى تشكيل المستقبل فى عمل قصصى، والنظر إلى المستقبل برهبة وتوجس باعتباره شكلاً جاهزاً، وأحد هذين المعنيين من اختصاص رواة أو قصاص القصص المسقبلى ؛ أما المعنى الثانى فيمثل ما يريدون إيصاله من تجربة أو إلهام . ولز وبطلر كلاهما يتمثل مقدماً تلك التجربة من خلال التماثيل التى لا يتبينها المسافر بوضوح وتحفزه إلى توجيه أسئلته التنبؤية . وهذه الأسئلة سيجاب عنها حتماً . وكما قال محمد عصفور فإن النبوءة فى الأدب أداة سردية تثير إحساساً بالترقب لا بد أن يتحقق لى تكون له فاعلية أصلاً^{٢٤} . ورمز النبوءة ضمن النص فى «آلة الزمن» يقوم بوظيفة طقوس تثبيت الانتماء، واصلاً المستقبل الذى ما زال مجهولاً بالماضى الضارب فى القدم والذى جاء منه أبو الهول . ووجود أبى الهول فى المستقبل تكرار غريب (غروتسك) يعنى ضمناً أن ما سيأتى (مثل لغز أبى الهول الشهير الذى جوابه «الانسان»^(*)) ليس أزيد ولا أقل مما عرفناه من قبل .

(*) أبو الهول فى تمثيلية سوفوكليس «أوديب ملكاً» وحش له رأس امرأة وجناحا نسر ومخالبه وجسم أسد ، وكان يلتهم كل من يحاول الدخول إلى ثيبة أو الخروج منها إذا لم يعرف جواب لغزه وهو : ما هو الحيوان الذى يمشى على أربع فى الصباح وعلى اثنتين عند الظهر وعلى ثلاث فى المساء . فلما أجابه أوديب بأنه الانسان فى طفولته وشبابه وشيخوخته هوى الوحش فى البحر ومات . (المترجم)

إن خوف راوى بطلر من أن يقدم قرباناً يحرق حياً ، وتوجّس « المسافر فى الزمن » من جنس « فقد خصائصه الانسانية » ، هما من المقلقات العامة مصبوبة بطبيعة الحال فى مصطلحات القرن التاسع عشر . ومثل هذه النبوءات ربما قرئت أو لم تقرأ فى حينه على أنها محاكاة ساخرة ، ولكننا إذا نظرنا إلى الوراء وجدنا أنه من الممكن قراءتها على أنها كذلك . غير أن هذا لا يحط من هذه الأعمال كما ظن وِاز . فالأسئلة فيها تكرر ، بل وتُجدد ، السؤال الذى ما زال دون جواب : « إذن ما هى الحياة ؟ » ، وهو السؤال الذى يدوى فى يأس شديد فى آخر قصيدة شلى التى لم تتم « انتصار الحياة » . والمأخذ على النبوءة الدقيقة – بأنه حتى لو كانت المعرفة لما سيأتى ممكنة فإنه خير للمرء أن يعيش وهو يجهل المصائب التى تنتظره – كثيراً ما أثير ، وأبلغ ما كان منه ما جاء على لسان شيشرون فى نقده اللاذع لكهنة الوحي القدماء^{٢٥} . ولعل « المسافر فى الزمن » قد أخذ بذلك عندما وقف أمام أبى الهول . غير أن القصص العلمى يعتمد على شغفنا بالمعرفة السابقة لما سيأتى وحاجتنا إلى تأمل ظلال المستقبل كجزء من عملية اكتشاف الذات . وِاز ، ككثير من الكتاب الذين جاؤا بعده فى هذا المجال ، كان مادياً علمياً يؤمن بأن طبيعة الحياة لا تتكشف إلا فى منظور زمنى (أو فى منظور زمنى مكانى فى أفضل الأحوال) . وهذا يعنى أن واجب النبوءة قد ألقى على عاتق أى كاتب يتصدى للإجابة عن سؤال شلى .

هوامش الفصل الأول

- 1- Paul K. Alkon, *Origins of Futuristic Fiction* (Athens and London: University of Georgia Press, 1988), p. 3. The English version of this phrase is used in one of Donne's sermons.
- 2- Olaf Stapledon, *Last and First Men and Last Men in London* (Harmondsworth: Penguin, 1972), p. 15. Subsequent page references in text.
- 3- Mohammad Asfour, 'Literary Prophecy', *Abhath Al-Yarmouk: Literature and Linguistics Series* 4:1 (1986), p. 8.
- 4- Andrew Martin, *The Mask of the Prophet: The Extraordinary Fictions of Jules Verne* (Oxford: Clarendon Press, 1990), p. 209.
- 5- I. A. Richards, 'The Future of Poetry', in *The Screens and Other Poems* (New York: Harcourt, Brace, 1960), p. 105. Subsequent page references in text.
- 6 - In a conversation with me in June 1967 Richards said that the work of Wells which had impressed him most was the pragmatist essay 'Scepticism of the Instrument' (1903). Here Wells argued that the logical categories inherited from Greek thought - number, definition, class and abstract form - were 'regrettable conditions rather than essential facts', conditioned by the imperfections of the human mind as a thinking instrument. Richards later gave to one of his books the title *Speculative Instruments* (1955). See H. G. Wells, *A Modern Utopia* (London: Chapman & Hall, 1905), p. 382.

- 7- Alkon, *Origins of Futuristic Fiction*, pp. 60-61.
- 8 - Thomas Carlyle, 'Signs of the Times' in *Critical and Miscellaneous Essays* (London: Chapman & Hall, n.d.), II, p. 232.
- 9- W. Warren Wagar, *A Short History of the Future*, 2nd edn. (London: Adamantine Press, 1992), p. xii. Subsequent page references in text.
- 10- Thomas Carlyle, 'On History' in *Critical and Miscellaneous Essays*, II, pp. 258-59.
- 11- Mary Shelley, *The Last Man* (London: The Hogarth Press, 1958), p. 3.
- 12- H. G. Wells, 'Utopias', in *Science-Fiction Studies* 27 (July 1982), p. 117.
- 13- Edgar Allan Poe, *Eureka*, in *The Science Fiction of Edgar Allan Poe*, ed. Harold Beaver (Harmondsworth: Penguin, 1976), p. 209.
- 14- H. G. Wells, 'Fiction about the Future', in Patrick Parrinder and Robert M. Philmus, eds., *H. G. Wells's Literary Criticism* (Sussex: Harvester Press, and New Jersey: Barnes & Noble, 1980), p. 250. Subsequent page references in text.
- 15- Fredric Jameson, 'Progress Versus Utopia; or, Can We Imagine the Future?' in *Science-Fiction Studies* 27 (July 1982), p. 153. Subsequent page references in text.
- 16- H. G. Wells, 'Preface to *The Scientific Romances*', in Parrinder and Philmus, eds., *H. G. Wells's Literary Criticism*, p. 241. Subsequent page references in text.

- 17- Darko Suvin, *Positions and Presuppositions in Sciences Fiction* (Basingstoke: Macmillian, 1988), p. 66.
- 18- H. G. Wells, letter to Arnold Bennett (1897) in Harris Wilson, ed., *Arnold Bennett and H. G. Wells: A Record of a Personal and a Literary Friendship* (London: Hart-Davis, 1960), pp. 34-35.
- 19- M. P. Shiel, *Science, Life and Literature* (London: Williams & Norgate, 1950), pp. 108-109.
- 20- M. M. Bakhtin, *The Dialogic Imagination: four Essays*, ed. Michael Holquist (Austin: University of Texas Press, 1981), p. 374.
- 21- See Ian Hacking, *Representing and Intervening: Introductory Topics in the Philosophy of Natural Science* (Cambridge: Cambridge University Press, 1983), p. 30.
- 22- Linda Hutcheon, *A Theory of Parody: The Teachings of Twentieth-Century Art Forms* (New York and London: Methuen, 1985), p. 32.
- 23- Samuel Butler, *Erewhon, or Over the Range* (London: Cape, 1982), p. 48. Subsequent page references in text.
- 24- Mohammad Asfour, 'Literary Prophecy', p. 16.
- 25- Marcus Tullius Cicero, *On Divination*, in *Brutus, On the Nature of the Gods, On Divination, On Duties*, trans. Hubert M. Poteat (Chicago: University of Chicago Press, 1950), pp. 404-05.

الفصل الثاني

المذبح الثلاثي ، القوائم المكسورة ، والخيال القلق

لم يشتهر وِلز بنبوءة واحدة بل بنبوءات عدة ، فقد تنبأ بحروب المستقبل ، واستبق أسلحة الحرب ومن أبرزها الطائرة والدبابة والقنبلة الذرية^١ . وكان داعية لا يكلّ إلى شكل جديد من التنظيم السياسي ، وإلى الدولة العالمية التي كثيراً ما يُلحق بها صفة «الولزية» . وكان يتحدث في عصر الدراجة عن احتمالات هندسة الجينات الوراثية والسفر في الفضاء ، واستخدم أجواء المستقبل في كثير من الأعمال القصصية متأملاً أحياناً الإمكانيات المباشرة وأحياناً المصير النهائي للنوع البشري وكوكبه . وفي كتابه الأخير « العقل وقد ضاقت به السبل » Mind at the End of its Tether أجرى تقييماً لحياته العملية كلها وكتب ما يلي : « إن الاهتمام المعتاد لحياة الكاتب هو الترقب الحرج . فهو يسأل عن كل شيء : إلى أين يؤدي هذا ؟ »^٢ . وقد وصفه جان مدلتن مري John Middleton Murry في تأبينه له بأنه « آخر متنبئ أوروبا البرجوازية »^٣ مع أنه كان أيضاً عالم المستقبل الأول فيها .

لقد استقبل وِلز القرن العشرين بكتاب من المقالات الاستقرائية بعنوان « ردود الفعل المتوقعة للتقدم الميكانيكي والعلمي على حياة الانسان وفكره » Anticipations of the Reaction of Mechanical and Scientific Progress upon Human Life and Thought وبعد خمس سنوات وضع كتاباً في السفر جعل له عنواناً له دلالاته وهو « المستقبل في أميركا » The Future in America ، وفيه فصل يحل « عادة التنبؤ عند العقل » The Prophetic Habit of Mind . وفي « اكتشاف المستقبل » The Discovery of the Future ، وهو حديث ألقاه في المعهد الملكي عام ١٩٠٢ ، ذهب إلى أن الحدس العلمي ممكن ومفيد . وكثير من عناوين أعماله غير القصصية تنم عن اهتمام بعلم المستقبل والترقب الحرج . وهذه تضم « الحرب التي ستنتهي الحروب » و « ماذا سيأتي ؟ »

What Is Coming? و« الحرب والمستقبل » War and the Future و« سنة من التنبؤ » A Year of Prophecy و« التكهّن بشئون العالم » A Forecast of World Affairs و« إلى أين يسير العالم ؟ » The Way the World Is Going و« مصير الجنس البشرى » The Fate of Homo Sapiens و« المنعطف السليم » The Happy Turning . وقد جعل « الترقب » فى أخرياته علامته الفارقة بينما كان فى أولياته يمزج النبوءة بالمحاكاة الساخرة لذاته .

وربما كانت النبوءة والمحاكاة الساخرة مختلطتين فى كتاباته أيام التمرن وهو طالب علوم فى ثمانينات القرن الماضى . وتضم تلك الكتابات « رؤيا من الماضى » A Vision of the Past (وهى قصة حول السفر فى الزمن إلى عصر الديناصور) و« حكاية من القرن العشرين (للمفكرين المتقدمين) » A Tale of the Twentieth Century (for Advanced Thinkers) . وفى سنة ١٨٨٨ ، أى بعد بضعة أشهر من حادث كرة القدم الفاجع الذى وضع حداً لحياته كناظر مدرسة مقيم ، كتب إلى صديقه أ . مورلى ديقز A. Morley Davies : « لقد سعلت فى الآونة الأخيرة وأخرجت المزيد من الرئة المقروحة ، ولذلك بتّ أخشى أن تبتلع الحوصلة الجائعة نبي الرقية التى لم تبْلُغ ، فيهوى العالم الذى لم يأت النذير إلى الجحيم »^٤ . وقد كان ولز فى هذه الآونة قارئاً نهماً لكارلايل ، ولكنه كان يرفض فكر كارلايل المتسم بالنزعة العبرانية والتوراتية بفكرة عن العرافة أقرب إلى الفكرة الهلنستية من حيث الكشف الدقيق لأحداث المستقبل . وفى نفس السنة التى كتب فيها رسالته إلى ديقز نشر « المغامرون العنيدون » The Chronic Argonauts ، وهى أقدم صيغة « لآلة الزمن » ، وكتب إلى صديقه اليزابث هيلى Elizabeth Healey أنها « لم تكن مزحة فهناك تنمة . إنها آخر صوت من كاهنة دلفى ولكن المذبح الثلاثى القوائم لم ينكسر بعد »^٥ .

ومذبح دلفى الثلاثى القوائم كان عبارة عن إناء طبخ بسيط ربما كان يصلح لحرق القرابين أو البخور . وكانت تثبت بالإناء صفيحة معدنية تجعل الحامل صالحاً لأن يكون مقعداً^٦ . ولم تكن لدى الكاهنة أو بيثيا Pythia - وهى عادة

فلاحة عادية فوق الخمسين من العمر - أية قوى خاصة عندما لا تكون جالسة على المذبح^٧. وحسب إحدى الروايات كان المقعد أداة للحيلولة دون وقوع الكاهنة المرتعشة فى الأخدود الموجود تحت صومعتها. غير أنه لا يوجد نص يشير إلى انكسار المذبح فعلاً؛ وقد بقى سليماً بعد الصراع الأسطورى بين أبولو وهرقليس فى محاولة للاستيلاء عليه. ولا شك أن ولز يتمسك بمجاز الانكسار فى رسالته إلى اليزابث هيلى - كما فى رسالته السابقة إلى ديفز - لأن فى ذهنه فكرة كسر الرقية، مما يسمح بابلاغها أو التعبير عنها بالكلام. وتكون العرافة أثناء قيامها بعملية العرافة واقعة تحت تأثير السحر، فتتلقى الكشف الغيبى، وتكون الكلمات التى تخرج منها دالة على الرؤيا ولكنها لا تستطيع التعبير أو الإفصاح عنها بوضوح. وكان الإفصاح عما تقوله العرافة وتسجيله فى أبيات سداسية التفاعيل من مهمة المتنبي، وهو التابع الكهنوتى العالم لبيثيا^٨. ويقول أحد المتحدثين فى حوار فلوطرخس Plutarch « حول الكاهنات العرافات » Pythian Oracles إن كل ما يفعله الإله هو أن يوحى إلى بيثيا برؤيا عامة للحقيقة والمستقبل. أما الكلمات الحقيقية التى تروى بها الرؤيا فهى بلغة إنسانية عادية تختارها هى أو الكهنة^٩. وبالمثل يعرض شلى ضمناً لعملية مزدوجة من الإلهام والإفصاح فى « دفاع عن الشعر » Defence of Poetry حيث يعطينا أبلغ وصف رومنىقى للعملية الإبداعية. فالشعراء عند شلى هم « سدنة وحي لم تدركه الأفهام »^{١٠}. وقد صور ولز الشاب نفسه بهذه المدلولات.

ورغم تأكيده أن « المغامرون العنيون » لم تكن مزحة فإن القطع التى كتبها فى أحداثه أيام كان قيد التمرين كانت نتاج كاتب تحبوه الرغبة فى أن يكون متنبيّاً، ولكن -حتى ذلك الحين- دون أية حقائق مذهلة يكشف عنها. و« حكاية من القرن العشرين » هجائية دون أن تكون لاذعة، وقد استخدم فيها ثيمة الحركة الدائمة التى كان قد استغلها من قبل على سبيل المزحة العملية لتسلية أصدقاء فى الجمعية الخطابية^{١١}. أما « المغامرون العنيون » فهى فى جزء منها معارضة لهوثورن^{١٢}، وهى تتخذ شكل الحكاية النبوية دون محتواها. وفيها يقدم

ولز موجزاً لآلة الزمن - وهى فكرة مشابهة لفكرة الحركة الدائمة - ولكنه لا يحاول أخذ قرائه إلى المستقبل.

و « آلة الزمن » برمز أبى الهول المتأمل ، هى عطف على « المغامرون العنيدون » ، وهى أول قصة نبؤية يضعها ولز . وأول صيغة موجودة « للمسافر فى الزمن » يواجه فيها أبا الهول ظهرت تحت عنوان « سنة ١٢٢٠٣ ب . م : لحظة من المستقبل » فى صحيفة و . إ . هنلى W. E. Henley ناشنال أوبزيرفر عام ١٨٩٤ ، ولكن سبق هذه وصف لمستقبل الجنس البشرى ينطوى على محاكاة ساخرة صريحة . وقد نشرت « إنسان السنة المليون » The Man of the Year Million فى صحيفة پل - مل Pall - Mall Gazette فى نوفمبر ١٨٩٣ . وهنا يقدم ولز موجزاً على طريقة كارلايل لكتاب كبير بعنوان « الشخصية الضرورية لإنسان المستقبل البعيد مستمدة من التيار الحالى للميول » من تأليف أستاذ اسمه هولزكوف Holzkopf من المفروض أنه « أستاذ فى وايسنتشو »^{١٣} Weissnichtwo . وفى الظاهر فإن هذه الشطحة الخيالية (التى اعتمد عليها ولز فى بناء المريخييين فى « حرب الكواكب ») عمل أكاديمى حول دراسة المستقبل ، غير أن الأستاذ الخيالى يشارك ، فيما يبدو ، المؤلف قدرته على وضع نوع من البيان الرؤيوى مكسباً « الانسان القادم » هيئة وشكلاً :

يرتفع على اخیال القلق بناء أوقبة بلورية ، وعبر السطح شبه الشفاف تمر دفقات من أبهى الألوان المنشورية وأنقاها ثم تضمحل وتتغير . وفى مركز هذه القبة الشفافة المتقلبة يوجد حوض دائرى من الرخام الأبيض مملوء بسائل صافٍ عنبرى متحرك ، وتغوص فى هذا السائل وتطفو كائنات عجيبة . أهى طيور؟

إنها من سلالة الانسان - تتعشى . (ص ١١٢)

إن القبة البلورية بالألوان الزائلة المارة عبر سطحها هى فى آن واحد بناء مستقبلى وصورة نبؤية منعكسة ، تستبق قصة ولز القصيرة اللاحقة « البيضة البلورية » The Crystal Egg وتشير إلى الكرة البلورية لقارئ البخت . وتصبح هذه القبة البلورية وما تحتويه ظاهرة بوضوح «للخیال القلق» .

وبعد سنين كثيرة عاد ولز إلى تشبيه الخيال بكرة بلورية ، وذلك فى قطعة تشرح التكوين الإبداعى لقصصه القصيرة المبكرة :

إذا أخذتُ أى شىء تقريباً نقطة ابتداء، وتركتُ أفكارى تتلاعب من حولها ، وجدت أنه يخرج من الظلام فى الحال ، وبشكل يتعذر تفسيره ، حدث صغير ما، ربما كان تافهاً أو مفعماً بالحياة ٠٠٠ رجال صغار فى زوارق صغيرة يخوضون محيطات تسطع عليها الشمس ، ويأتون طافين على الماء من العدم يحضنون بيض حيوانات مخيفة موهلة فى القدم وهم لا يدرون . وقد ينشب صراع عنيف وسط أحواض الزهور فى حدائق الضواحي؛ واكتشف أننى كنت أحقق فى عوالم غامضة بعيدة يحكمها نظام منطقى حقاً ولكنه ليس بالعقلية الصحيحة العامة التى نعرفها^{١٤} .

وحسب مصطلحات ولز فإن صورة المحدث فى عوالم غامضة بعيدة تحمل فى وقت واحد إحياءات بالمراقبة العلمية عبر عدسة تلسكوب أو ميكروسكوب وبالكشف الرؤيوى الذى يتوصل إليه « الخيال القلق » وبتحريف كلمات ت . س . إليوت T. S. Eliot إذ يصف العملية الإبداعية ، نقول إن القصص الناتجة « جاءت »^{١٥} وحسب . ونستطيع أن نلخص القول فى ولز الشاب بأنه كاتب متعطش للإحياء اتجه « خياله القلق » - بالضرورة - نحو المستقبل .

٢

نجد عند ولز أن الفكرة العبرية عن الواعظ والحكيم - موسى أدبى يبين الطريق إلى صيغته عن أرض الميعاد ويحذر من عواقب وخيمة إذا لم تلق رسالته أذناً صاغية - تغشّيها الصور الكلاسيكية لكاهنة دلفى وأبى الهول وسائر الكاهنات العرافات . ولعل النموذج الأكبر للمتنبئة الكلاسيكية هى كساندرا التى كانت نذير الهلاك ، ولكن قدر عليها ألا يصدقها أحد . لذلك تنتهى « إنسان السنة المليون » برؤيا الهلاك التى يراها الأستاذ هولزكوف . فالأرض تبرد ويضطر الناس الباقون إلى البحث عن الدفء تحت الأرض ، « فى الصالات والمختبرات العميقة فى أحشاء الأرض » .

الأرض كلها سوف تغطي بالثلج وركام الجليد ، فقد فنيت كل الحيوانات وكل النباتات باستثناء هذا الفرع الأخير من شجرة الحياة . وقد أخذ الناس الباقون ينزلون أبعد وأبعد في الأعماق متتبعين الحرارة الناضبة من هذا الكوكب ، والمهاوى الأنبوبية المعدنية ومسارب التهوية تفسح المجال للهواء الذى يحتاجون إليه . (ص ١١٣)

وفى هذه الصورة البديلة لعالم المورلوكيين Morlocks يرى الناس الباقون يحفرون قبورهم أعمق وأعمق . والسبيل الوحيد الآخر، الذى سلكه أهل المريخ ، هو الهرب فى الفضاء سعياً لاستعمار عوالم أكثر دفئاً .

أما روايات ولز اللاحقة عن تاريخ المستقبل فإنها على شكل « كتب الأحلام » مع سرد خارجي يهيئ إطاراً لكلام شخصية شاهدة عيان ويعطى لذلك الكلام خاصية تنبؤية مزاحية . فبطل « فى أيام المذنب » In the Days of the Comet يرى أول ما يرى « ذلك الرجل الذى كتب فى البرج » ، ونفترض أن هذه إشارة إلى الافلاطونى فى قصيدة ملثن « المهموم » Il Penseroso . وفى مواطن أخرى تأتى الإشارة الأدبية والاستشهاد « بالأدب غير المكتوب » واضحين جداً . وكثير من « العالم محرراً » The World Set Free يتألف من موجز لرواية سيرة ذاتية رائجة من تأليف فردريك بارنت بعنوان : « تجوال المبتدئ » Wander Jahr . وتقدم « شكل الأشياء الآتية » بأنها « كتاب أحلام الدكتور فليب ريقن » Dream Book of Dr. Philip Raven ، وما يراه ريقن عبارة عن « كتاب عرافة حديث »^{١٦} . وقد كان تاريخ الكاهنات العرافات قناعاً مناسباً لحاجة ولز إلى الانتقال جيئة وذهاباً بين دورى موسى وكساندرا .

وفى الكتاب السادس من إنياذة فرجيل « تلف عرافة كومي الحقيقة بالظلام » وتتنبأ بحروب فى المستقبل ، وأن نهر التيبر سيرغى بتيارات من الدم . ويكاد يكون كل تاريخ للمستقبل يضعه ولز عبارة عن تنبؤ بالحرب ، ابتداء من « حرب الكواكب » حيث الغزاة متعطشون فعلاً إلى الدم ، ولكن نهر التيمز ينقلب أحمر اللون بسبب نمو العشب الأحمر الذى جاء من المريخ . وقبيل نهاية الرواية يهيم

الراوى ذاهلاً فى شوارع لندن التى خيم عليها سكون الموت ويترنم بأغنية غثة عن « آخر رجل ترك حياً ! » (الكتاب الثانى، الفصل التاسع) . وسلفه هو « الرجل الأخير » عند مارى شلى، الذى يفترض أن قصته اكتشفت فى غار كاهنة العرافة فى كومي . وهناك روايات رعب أخرى تتصل بداياتها بكاهنة العرافة مثل رواية ماتورين « ملثم الجوال » Maturin: Melmoth the Wanderer ورواية لويس (*) « الراهب » Lewis: The Monk . وكتب كاهنات العرافة الأصلية Sibylline Books عبارة عن مجموعة من الأقوال التنبؤية يقال إن كاهنة كومي باعته إلى تاركوين (***) ، وقد حفظت فى روما القديمة ، وكان مجلس الشيوخ (Senate) فيها يرجع إليها فى الملهمات . ولذلك فإن « كتاب عرافة حديث » يعنى التنبؤ بكارثة ، واحتفال السلطات بالنبوءة قد يؤدى إلى خلاص الدولة .

وعملًا بدور العراف الحديث الذى تقمصه ولز ، أخذ يجوب العالم لى يجرى محادثات رفيعة المستوى مع لينين وستالين ونيودور وفرانكلين روزفلت . وقد يكون سعيه إلى إرشاد أولئك الساسة ، بدلاً من الطعن فى أسس سلطتهم ، متصلاً برفضه للصور العبرية الأبوية للنبوءة ، وانحيازاً إلى الرمزية الأنثوية للعارفات فى القديم . فرواية « تونو - بنغاي » Tono-Bungay هى رواية اجتماعية نبؤية يجاهد فيها الخيال القلق لدى الراوى (الذكر) لرؤية معالم انجلترا الجديدة التى تحل محل انجلترا القديمة، أى « انجلترا أولاد أولادنا » (الكتاب الأول، الفصل الأول، المقطع الأول***). وهو يقارن مهمته بمشاهدة « عرض القنديل »

★ المقصود هو ماثيو غريغورى لويس ، من كتاب روايات الرعب (١٧٧٥ - ١٨١٨) . (المترجم) .

★★ تقول الأسطورة إن كاهنة كومي عاشت ألف سنة وكانت دليل إينياس إلى العالم التحتانى ، وقد كتبت نبوءاتها فى تسعة مجلدات حفظت فى معبد جوبتر للرجوع إليها فى الملهمات العامة . ولما رفض تاركوين دفع السعر الذى طلبته أحرقت ثلاثة منها وأتبعته بثلاثة أخرى فاضطر تاركوين إلى دفع السعر الأسمى فى الثلاثة الباقية . (المترجم)

★★★ هكذا الإشارات إلى تونو - بنغاي : إلى الكتاب فالفصل فالمقطع . (المترجم) .

الذى كان يعرف باسم « المناظر المتلاشية » Dissolving View ، وهو شكل آخر من صورة تأمل الكرة البلورية . وأخيراً دُفع إلى الشكوى من إخلاصه للحقيقة العلمية « أعز الخيالات منالاً » (٣-٣-١) . وبطل ولز المفكر، وهو ذكر ، توحى إليه ربة (أنثى) ، يمكن أن يقارن بمؤلفة كتاب العرافة القديم ، أو بكاهنة دلفى التى كان صوتها النسوى يتلقى الإلهام تقليدياً من إله (ذكر) . أما أبو الهول الخنثوى فى « آلة الزمن » فيوحى باحتمال المصالحة بين هذه التلميحات المتضاربة إلى طبيعة الجنس فى النبوءة . وما يكشفه أبو الهول « للمسافر فى الزمن » هو جنس بشرى أصبح « غير متعاطف وذا قوة ساحقة » قبل أن يفقد « خصائصه الإنسانية » (الفصل الثالث) .

أنتج ولز بعد « آلة الزمن » بقية رومانسياته العلمية (جزيرة الدكتور مورو ، الرجل الخفى ، حرب الكواكب ، أول رجال على القمر) والجزء الأكبر من قصصه القصيرة بسرعة مذهلة . وكثافة هذا الطور من عمله فى التأليف ، وكونه قد خلفه وراءه من أجل اهتمامات مختلفة جداً ، من أوضح الدلالات على العبقرية الأدبية ، وهى تدفع أيضاً إلى مزيد من التساؤل حول القلق الذى كان يعتور خياله التنبؤى . وكان تشخيص مرضه عقب حادث كرة القدم عام ١٨٨٧ أنه مصاب بالسل . وكسائر المسلولين قبله وبعده وجد نفسه مدفوعاً إلى الكتابة بسرعة ، لا لأنه كان محتاجاً إلى المال وحسب ، بل لأنه ظن أن نهايته قريبة . وفى عام ١٨٩٧ ، أى بعد عشر سنوات من بقاءه فى حالة الخطر ، ذكر فى مقالة قصيرة بعنوان « كيف متّ » How I Died أنه كان ما زال « ميئوساً منه » . وكان « يظن فى عنفوان شبابه أن الموت كان بعيداً منه » وأن الحياة « ما زالت مراحاً من السنين لا نهاية له » ، ولكنه على حين غرة « رأى وجه الموت قريباً من وجهه »^{١٧} . وهكذا فإن الأستاذ فى « إنسان السنة المليون » يقول : « إن كل من يفكر فى هذه الأشياء لا بد أن يرى الأبدية عياناً » (ص ١١٣) . وهذا هو ما فعله « المسافر فى الزمن » عندما تجاوز الفترة الطبيعية لحياته ، فإنه رأى أبا الهول يرقبه بعينين مطفأتين (الفصل الثالث) .

ويخبرنا الراوى أن « المسافر فى الزمن » كان قبل الرحلة قد « فكر فى تقديم بنى الانسان فى اكتئاب ، ولم يرَ فى ركاب الحضارة المتزايد سوى تكديس أحقق لا بد من أن يقع فى النهاية على صانعيه ويقضى عليهم » (الخاتمة) . وإذا لم يكن لهذا التوجس من أثر فإنه كان حافزاً له إلى السفر إلى الأمام ليرى بنفسه . لقد عرفنا مصيرنا ، ولكن ماذا نستطيع أن نفعل بعد ذلك سوى أن ندير أعيننا ؟ أو - كما يقول الراوى عن رؤيا « المسافر فى الزمن » - : « إذا كان الأمر كذلك فلن يبقى لنا إلا أن نحيا وكأنه ليس كذلك » . ويظل المستقبل للراوى مجهولاً مترامياً ، فما زال «أسود مصمتاً» (الخاتمة) . إن كشف « المسافر » واستجابة الراوى قد يجسدان وجهين متساويين ومتقابلين « للقلق التنبؤى » . فالأول هو حاجة المتنبي إلى أن يعرف وأن يحكى ما يمكن أن يحكى - حافز الانسان (وقد كُتب قدره) إلى مواجهة القدر المحتوم - وبرمه بجهل العالم اللامبالي . والثانى - وهو وليد عطف المتنبي على الانسانية بمجملها - هو الحاجة إلى صرف العالم عن معرفة المصير ، فهى فيما يبدو معرفة لا أمل فيها ولا غناء . ماذا يفيدنا أن نعرف أن كل ما نعتبره ذا قيمة سوف يختفى فى يوم من الأيام ؟ لهذا كانت رسالة النبوءة مستورة بالحجاب ، وحيثما كان هناك بصيص من أمل فى الخلاص فإن المتنبي العبرى يتحول من النذير إلى الوعظ والتحذير . وهكذا كان الحال ، فيما يبدو ، مع ولز ، فما أن أخذت صحته تتحسن بعد سنة ١٩٠٠ حتى أخذت لهجة كتبه تتغير من التشاؤم المستسلم إلى تفاؤل غاضب مشحون بالوعيد .

٣

يقدم ولز نفسه فى الفصل الأول من « المستقبل فى أمريكا » لا على أنه « إنسان ميئوس منه » ، وإنما رجل كتب عليه أن يعتاد عقله النبوءة^{١٨} :

عادة العقل هذه تجبه وتحير فهمى للأشياء كما هى ببساطة، مع انشغال ذهنى بتأمل ما ستكون عليه بعد قليل ، وإلى ماذا تؤدي، وما هى البذرة التى ستزرعها، وكيف ستكون علي مر الزمن . . . وتأتى أيام تجعل فيها هذه العادة الحياة شفافه واهية، تبدو متلاشية تماماً، ثم تؤول إلى سلسلة

من العواقب فانية بنفس المقدار، فيتحول الاحساس المتزايد بعدم الاستقرار إلى قلق واكتئاب . ولكن من الناحية الأخرى لا شيء موجوداً، لا شيء على الإطلاق، يظل بأجمعه مبتدلاً أو بليداً أو ميتاً أو ميئوساً منه في حقيقته، ولكن الاهتمام يتحول . (ص ٦-٧)

إن إحساس وإز بآن الأشياء واهية قد عبر عنه مرة بمجاز « المناظر المتلاشية » في «تونو- بنغاي» ومرة أخرى بمقارنة أفق نيويورك المنحسر كما يرى في نهاية «المستقبل في أمريكا» « بالصناديق المكسدة خارج مستودع » (ص ٣٥٨) . ولنذكر أيضاً أوصافه لتجربة السفر في الزمن في « آلة الزمن » وقطعة في « كيف مت » يصف فيها هجوم المرض المفاجئ عليه : « وفجأة ، على حين غرة ظهرت نقطة من الدم على مفصل إصبعي ، وأحسست بطعم غريب في فمي . . . وتحولت الدنيا التي كانت صلبة وأصبحت خافتة ضئيلة » (ص ١٨٢) .

وفي « المستقبل في أمريكا » والأعمال اللاحقة يجد تأييداً فلسفياً لاحتساسه بحتمية الفناء في مقولة هراقليطس « ليس ثمة وجود بل صيرورة » (ص ٥) . والجواب عن السؤال «ماذا نفعل بحياتنا؟» What are we to do with our lives? (جعله عنواناً لأحد كتبه اللاحقة) هو أن النجاح ينبغي أن يقاس بمقدار الاسهام الفردي الذي نستطيع تقديمه إلى تطور الإمكانيات الانسانية . فالفرد الانساني الفريد من نوعه في تطوره ينبغي أن يفهم على أنه تجربة يجريها الجنس البشري ويستطيع أن يستنتج المستقبل . وهذا الاعتقاد ، الذي أوجزه في « إعادة اكتشاف الفريد » Rediscovery of the Unique منذ عام ١٨٩١ ، يصل ما بين دراسته علم الأحياء ما بعد داروين واهتماماته فيما يتعلق بالنبوءة ؛ ثم إنه يؤكد انتماءه الفلسفي إلى المذهب الذرائعي (البرغماتية) - كما أعلن في بحث بعنوان « ارتياب الآلة » عام ١٩٠٣ - ثم فيما بعد إلى الاسمية (nominalism) . وفي هذا الاعتقاد أيضاً مسحة شبه دينية تظهر في بعض كتاباته ابتداء من « الاشياء الأولى والأخيرة - اعتراف بالحقيقة وقاعدة الحياة »

Confession of Faith and Rule of Life First and Last Things الذى نشره أول مرة عام ١٩٠٨ ثم راجعه ونقحه ثلاث مرات بعد ذلك . وهذا الكتاب (الأشياء الأولى والأخيرة) يبين اعتقاده « بأننا حلقات فى تجربة أكبر منا »^{١٩} فالسعى إلى معرفة كلية أكبر يعنى فى جوهره ، بالنسبة إلى ولز ، التطلع إلى عهد من « العقل الجماعى » (Collective Mind) حيث يصبح فى الوعى ما هو الآن فى معظمه فى اللاوعى .

ويحدد ولز فى « المستقبل فى أمريكا » خمس مراحل فى «تاريخ حياة عقله المتنبئ» مبيناً كيف أن عاداته فى التوقع الدقيق مردها إلى تربيته المسيحية على المذهب الألفى فى طفولته . وطالما أن المعركة الفاصلة (Armageddon) ويوم الحشر آتيان فإن الحدس حول المستقبل كان فى البداية « مزحة رهيبة » (ص ٩) . ثم إنه كطالب علم أحياء وجد أن عقيدته الرؤيوية أخذة فى الانحسار ليحل محلها « السواد والغموض فيما يتعلق بالمشهد اللامتناهى للسنين القادمة ، وكان ذلك هائلاً ومخيفاً » (ص ١٠) . وكانت استجابته ، فيما يدعى ، أن يملأ الفراغ «بفهم مفاجئ للإمكانية غير المحدودة» :

لقد صنع المرء مبالغات عجيبة لكل الأشياء المعروفة وقلبها قلباً عجيباً . . . فالكتب التى كتبت عن المستقبل وتبع كتابها الحافز الأول لتحقيق العالم من مضامين العلم على طريقة دارون تنطوى جميعها على شىء من الأخيلة التجريبية عند الأطفال . وأنا نفسى صنعت ، على طريقتى فى التصغير، نسخة من زمانى . (ص ١٠-١١)

ويقول إن « إنسان السنة المليون » و « آلة الزمن » كتابان من هذا القبيل ، وقد أوصلا إلى نهاية مقفلة . أما فى المرحلة الثالثة فإنه اعتزم محاولة « شىء أقرب قليلاً من المصير النهائى للإنسان » (ص ١١) .

واطّراح ولز للأخيلة «المريعة» للرومانسيات العلمية يعكس رغبته ، عام ١٩٠٦ ، فى أن يجعل له اسماً بأنه كاتب مقالات اجتماعية جاد . ومع أن المراحل الخمس لتطوره فى مجال النبوءة تتابعت بسرعة واحدة بعد أخرى ، فإنه - وهنا موطن العجب - كان ينعى على كل مرحلة مطّرحاً أنها كانت شكلاً من النبوءة

الزائفة . (ومثل هذا التجريح للنبوءة الزائفة هو جزء من العُدّة البيانية لدى كل متنبئ تقريباً كما أُلحنا فى الفصل السابق) . وقد نبذ بفضاظة شديدة المرحلتين الثالثة والرابعة من تاريخ حياته العقلية ، وهما المرحلتان اللتان بدأ فيهما يحاول التنبؤ العلمى ، ليتحول بالنبوءة إلى دراسة المستقبل . والسبب الذى قدمه لذلك هو اكتشافه أن طبيعة وظيفتى المتنبئ لا تقبل الفصل بينهما ، وهاتان الوظيفتان هما الارهاص والتحذير (ص ١٥) .

ففى المرحلة الثالثة ، حوالى ١٨٩٨ - ١٨٩٩ ، اتجه ولز إلى استقراء مجتمعات المستقبل من الاتجاهات الاجتماعية والتقنية القائمة آنئذ . لذلك يبدأ « عندما يستيقظ النائم » When The Sleeper Wakes و « قصة من الأيام الآتية » A Story of Days to Come مستخدماً المدينة الحالية المكتظة بالسكان لكى يبنى للقرن الحادى والعشرين مدينة ضخمة محكمة السد ، ولكن النتائج كانت خيالية أكثر من كونها معقولة ، إذ كانت « أشبه بكاريكاتير عملاق للعالم الحالى ، حيث كل شىء قد انتفخ أضعافاً هائلة وتضخم حتى فاق كل قياس » - أو هكذا أخذ يظن (ص ١٢) . أما المرحلة الرابعة - وهى المرحلة التى كان فيها « هجومه على المستقبل » أوثق صلة بالعلم - فتنظوى على إجراء تعديلات من أجل الاتجاهات المتعارضة : « يحاول المرء أن يضع تحليلاً واسعاً وبسيطاً للتاريخ المعاصر، ويسعى إلى استخلاص الأسباب الفاعلة وفرزها ، ويربط ذلك بمجموعة العواقب الحتمية بالضرورة للتوصل إلى تنبؤ مفتعل بمدلولات من السعة والعموم بمقدار قلة الأسباب التى أدخلها فى الاعتبار » (ص ١٢-١٣) . ومرة أخرى فإن هذا قد يبدو انطباعياً أكثر منه علمياً ، غير أن هذا هو المدخل الذى يُطرق فى ما يكتب عن دراسة المستقبل فى القرن العشرين - وهى أعمال لا يحصيها العد - ابتداء من « إرهابات » ولز . وقد دافع عن الطريقة بقوة فى « اكتشاف المستقبل » محتجاً بأنه إذا كان الجيولوجيون وعلماء الآثار قد فتحو فى الآونة الأخيرة ماضياً « استقرائياً » جديداً فقد تكون هناك معرفة استقرائية بالمستقبل ، وزعم أن الفكر العلمى تنبؤى فى أساسه طالما أن النظريات العلمية تُختبر عادة بواسطة الاستدلالات التى تضعها لأحداث المستقبل . فالكشف العلمى للمستقبل بدأ بأمثلة تنبؤ درامية كالحساب الفلكى لفترات عودة المذنب هالى .

وقد ذكر وِلز في « اكتشاف المستقبل » أن احتمالات وقيود المعرفة بالمستقبل يحددها شيء أشبه بمبدأ الحساب الاحصائي الذي تستخدمه شركات التأمين في تحديد الأقساط . ومع أن النتائج الفردية تظل مما لا يمكن معرفته ، فإنه من الممكن التوصل إلى متوسط بدرجة معقولة من الدقة . وقد اعترف وِلز في « المستقبل في أمريكا » أن مثل هذه الطرق «تؤثر فعلاً في نبوءة تتصل بالجانب المادي للحياة» (ص ١٣) . ولكنه يدعى الآن أنه لا يثق بها .

وفي الحقيقة فإن زخم احتجاجه في « اكتشاف المستقبل » قد نقله من الدفاع عن التنبؤ العلمي على أساس الحساب الاحصائي إلى التأكيد بأن التطور الانساني يسير وفق «منحنى صاعد» ضمن إطار التطور الكوني^{٢٠} . وبالإضافة إلى ذلك فإنه تحدث ، في خاتمة مشهورة أكثر رفعا للمعنويات ، عن « عظمة مصير الإنسان » (ص ٣٤) ، وتخيل أن بنى البشر سيصلون إلى النجوم . ثم تأتي المرحلة الخامسة للنبوءة في « المستقبل في أمريكا » لتبرر كسر حدود الدراسة العلمية للمستقبل . لقد ادعى في « المستقبل في أمريكا » أن نظرية «الرجال العظام» في التاريخ قد بولغ فيها ، غير أنه يرى في الكتاب اللاحق « معارضة لا حدود لها » للقوى الميكانيكية في التعامل الانساني وفي « القوى الخيالية » لدى الأفراد غير العاديين (ص ١٥) . لقد أخذ يزعم أنه يضيف « إرادة » شوبنهاور إلى « ضرورة » داروين : « إننا قد نتنبأ بالكثير على اليقين وبأكثر منه على الاحتمال ، ولكن القرارات الأخيرة والقرارات العظيمة تظل مستقرة في قلوب وإرادات الأشخاص المتفردين الذين لا يمكن التكهّن بما يفعلون » (ص ١٦) . وهكذا يذهب إلى أمريكا لا « لبيتدع حساباً رائعاً للبروج » بل ليكتشف « إرادة أمة عظيمة والمصير الذي تشير إليه » (ص ١٧) . وبالإضافة إلى ذلك فإن مواعظ المتنبي وتحذيراته تؤثر في المستقبل الذي يبحث فيه ، ولذلك فإن الوظيفتين التوأمين للمتنبي لا تنفصلان عن بعضهما .

وقد يظهر وِلز في السنوات الأولى من القرن متردداً بين محاولته اكتشاف معنى وغاية في عملية التطور (هذا هو موقفه بصورة عامة في « اكتشاف المستقبل ») ونظرة مستمدة من معلمه توماس هنري هكسلي T. H. Huxley ترى في التطور الانساني عملية متكلفة تعارض المسار الطبيعي للارتقاء في كل نقطة. ومن الجدير بالذكر أن ما ذهب إليه في « اكتشاف المستقبل » قد تغير اتجاهه رأساً بعد قطعة استعرض فيها مختلف أنواع الكوارث الطبيعية التي قد تهدد الحياة على الأرض ؛ ومن الكوارث المحتملة الاصطدام بجرم سماوي ، انتشار وباء جديد ، تسمم الجو بأبخرة من المذنبات ، ظهور جنس جديد من الضواري ، التدمير الذاتي بسبب ذهان جماعي. ويضاف إلى هذه الكوارث المحتملة الحقيقة اليقينة فيما يتعلق بالفناء بسبب برودة الكوكب (ص ٣٤) ٢٢. وكما هي الحال في نهاية « آلة الزمن » فإنه عندما يتأمل رسالة النبوءة العلمية في أقسى أحوالها يلوذ بتحذير المشفق على الانسان. وهكذا يتحول من تبرم كساندرا بقصر نظر الانسان إلى تحفز موسى لقيادة بني البشر من عبوديتهم إلى الوضع الطبيعي.

هذان الوجهان لنبوءة وِلز ثقفهما بصورة واضحة أثناء تأرجح حالاته النفسية تأرجحاً عنيفاً وقت الحرب العالمية الأولى والثانية ، وهما حربان كان قد رأى احتمال نشوبهما قبل مدة من وقوع كل منهما. وكان رد فعله عند بدء العمليات الحربية في أغسطس (آب) ١٩١٤ أن كتب كتابه « الحرب التي ستنتهي الحروب » ، ولكنه أتبع هذا الكتاب بعد عام بكتاب سماه Boon وضمّنه قصته الساخرة « قصة الورقة الراحبة الأخيرة » Story of the Last Trump التي ينفخ فيها صُور النبوءة بالصدفة على الأرض فلا يلقي أحد بالاً لنفيره. وقرب نهاية الحرب كرّس نفسه لغاية إنسانية هي خدمة التربية العالمية عن طريق وضع كتب مدرسية موسوعية ، فكتب في أول هذه الكتب وأوسعها أثراً ، وهو « موجز

٢٢ - عدل وِلز عن هذا القول في حاشية على طبعة عام ١٩١٣ من « اكتشاف المستقبل » معترفاً بأن « اكتشاف النشاط الاشعاعي قد غير كل ذلك » (ص ٣٧).

التاريخ « The Outline of History » ، أن « الحياة أخذت تصبح ، بشكل متزايد ، سباقاً بين التعليم والكارثة »^{٢٢} . وقد أنهى موجزه - كما هو متوقع منه - بقسم خصصه « للمرحلة القادمة من التاريخ » .

وفى أحلك أيام الحرب العالمية الثانية كان ما زال يعتقد أن التعليم يمكن أن يكسب السباق مع الكارثة^{٢٣} . وقد اتهمه جورج أورول فى « ولز وهتلر والدولة العالمية » (١٩٤١) بأنه لا يستطيع بطبعه أن يقدر خطورة التهديد الدكتاتورى بكل أبعادها . وبعد عام كتب ولز أن الحرب ، وإن تكن شيئاً مروعاً ، ليست فى حد ذاتها من طبيعة الجائحة البيولوجية ، وأن ميلاد « الانسان البعدى Man - After - الذى سيخرج من أجسادنا وعقولنا - وهذا الوقت موعد اقتراب مجيئه - ما زال ممكناً بإعمال إرادة الانسان »^{٢٤} . وقد خانت هذه العقيدة عندما بلغ التاسعة والسبعين عام ١٩٤٥ ، ووقف أمام المرحلة النهائية غير المتوقعة من حياة المتنبئ . فالفصول الأولى من « العقل وقد ضاقت به السبل » عبارة عن رفض لكل المقدمات السابقة التى أقام عليها تنبؤه . والفصل الثالث معنون ببساطة « لا نمط للأشياء الآتية » . وهنا نجد ولز مهووساً بفكرة « الغرابة القاسية » (ص ٨) فى « العملية الزمنية » أو « الحركة الكونية » للأحداث الطبيعية ، الناتجة فى كون لم يعد يرحب بالحياة الانسانية . والقوة التى يسميها « الخصم » (The An-tagonist) أصبحت على وشك أن تستكمل التدمير النهائى للبشرية . (والبيئة الوحيدة التى يقدمها ولز هى الطبيعة المتقلبة للبيئة الأرضية التى بدأت فيها الحياة ، وتحديد السرعة بسرعة الضوء) . وهو ، مثل كساندرا ، يقدم استنتاجاته فى شكل يقين يجعلها غير مقبولة ألبتة لدى الانسان العادى العاقل (ص ١) ، ومرة أخرى يشجب نفسه بكونه متنبئاً زائفاً :

كان من الطبيعى أن يفترض وجود حد معين للتغير ، وأن الأشياء والأحداث الجديدة ستظهر ، ولكنها ستظهر بصورة منتظمة لتحفظ التابع الطبيعى للحياة . وفى الفوضى الهائلة التى تعم عالمنا حالياً هناك دائماً افتراض بالرجوع فى نهاية الأمر إلى العقلانية . . . كل ما فى الأمر أن

ثمة تساؤلاً حول ماهية الأشكال التي ستتقمصها المرحلة العقلانية الجديدة... وهذا ما أعمل الكاتب فيه فكره.

لقد بذل جهده في تتبع الاتجاهات التي تتصاعد لولبياً نحو ملتقاها في مرحلة جديدة من قصة الحياة ، وكان كلما أمعن في وزن الحقائق الواقعية الماثلة أمامه تضاءلت قدرته على رؤية أى تلاقٍ مهما يكن ... ومن هنا بقيت الأحداث مشدودة مع بعضها بتماسك منطقي من نوع ما، مثلما تظل الأجرام السماوية كما نعرفها مشدودة إلى بعضها بفعل الجاذبية ، وهي الحبل الذهبي الذي يمسكها . والآن ، كأن هذا الحبل قد اختفي وأخذ كل شيء يندفع كيفما اتفق واينما اتفق بسرعة تتزايد باستمرار . (ص ٥)

هناك صفة رهيبة في برودة الموضوعية في «العقل وقد ضاقت به السبل» ، ومدى الرفض فيه ، وخلوه من الشعور . وهذا الكتاب المذهل انعكاس لاضطراب فكري (كان ولز وقت كتابة هذا الكتاب مريضاً في أيامه الأخيرة) ، وهو في الوقت نفسه آخر ما قدمه إلى أدب النبوءة . وهو شهادة على أحقيته في شغل مركز المتنبي طوال حياته ، بما يحف ذلك من مزلق خداع الذات وتهديد حاضري على الدوام لسلامة العقل واتزانته كما ترتب عليه . وقد شفى في أشهره الأخيرة بقدر كافٍ للتخطيط لطبعة جديدة من فيلم «الأشياء الآتية» وجعله مواكباً للعصر بادخال الأسلحة النووية^{٢٥} . غير أن «العقل وقد ضاقت به السبل» يوحى بأن النبوءة لم تكن عند هذا الكاتب ، في النهاية ، مزحة مهما يكن ما تضمنه من تكرار غريب .

٤

إن ثنائية النبوءة والنزعات المتضاربة في شخصية ولز تنعكس في عمله القصصي المتأخر «لاعب الكروكي» (١٩٣٦) The Croquet Player . ففي « قصة الأشباح » الأمثولية هذه نرى أن جورجى فروبشر Georgie Frobisher – لاعب الكروكي الأناني الذي لا يرجى منه نفع ، وهو المعنى في العنوان – يجد

نفسه منوماً بإيحاء الحكايات المسترسلة التي يقصها نزيلان آخران في منتجع نوبيه ، هما الدكتور فنشأتُن Dr. Finchatton والدكتور نوربرت Dr. Norbert . فيقص الدكتور فنشأتُن كيف أنه عندما كان طبيباً مقيماً في مقاطعة كينزمارش المليئة بالمستنقعات أخذ يعتقد أن المنطقة تسكنها أشباح من ماضى قبيلة بدائية عنيفة . ويستبعد نوربرت - وهو الطبيب النفساني لفنشأتُن - قصة مريضه باعتبارها من خرافات الجنيات لفقت لتبرير حديثه بأن الانسانية كلها على شفا الانتكاس إلى حالة الهمجية . وفنشأتُن هو كساندرا وقد ركبته العفاريت ؛ ويمثل في هذه القصة خيال ولز الشاب المعذب الذي يَلْفَق الأساطير ، وهو مثله أخفق في أن يكون عالماً محترفاً^{٢٦} . أما نوربرت المخلص المنتظر المستبد الذي يشبهه فروبشر بتوماس كارلايل وبأحد أنبياء اليهود ، فهو موسى ولز الذي يتحدث عن خلاص من خلال ثورة في الشؤون الانسانية وميلاد «حضارة أقسى وأقوى كالغولاند»^{٢٧} . فنوربرت يعتقد أن مجهوداً قوياً سيمكن الانسانية من تجاوز «الغضب الآتى» (ص ٧٧) .

كلا الرجلين ، بالنسبة إلى فروبشر القنوع ، به مس مزعج . فنوربرت مصاب بنفس المرض الذي يسعى إلى تشخيصه . إنه مداوٍ مدفوع إلى إنقاذ العالم أملاً في شفاء نفسه . وهذان الرمزان للهوس (الجنونى والانقباضى ، المخلص المنتظر المصاب بالفصام ورجل العلم العصابى) يوضعان في مواجهة لاعب الكروكى غير المبالى الذي يدعى بُعد النظر، ويحكمه - بدلاً من ذلك - أتفه التقاليد الاجتماعية . وجورجى فروبشر - الذى يشارك ولز أحد أسمائه - قد يُرى إسقاطاً لأحد جوانب شخصية مؤلفه ، وهو المسلى في الحفل واللاعب الهاوى المتحمس وكاتب الكوميديات الاجتماعية . لم يكن ولز ابن لاعب كركيت وحسب ، بل قبل سنتين من تأليفه « لاعب الكروكى » هجته خليلته السابقة أوديت كيون Odette Keun بمقالة عنوانها « هـ . ج ولز - اللاعب»^{٢٨} . ومن المحتمل أن يكون مقدراً على فروبشر أن يخرج رجلاً أشد حزناً وأوفر عقلاً بعد سماعه

٢٦ - كان ولز قد رسب في الامتحانات النهائية في ساوث كنزنگتن منهيأ بذلك حياة أكاديمية واعدة كان يمكن أن تؤدي به إلى الأبحاث .

حكاية فنشأتين الشبيهة بحكاية « الملاح القديم » Ancient Mariner وتحذير نوربرت المملّ . وهو يظل - مثل كيبس Kipps والمستر پولى Mr. Polly فى نهاية روايتيهما - نزيل فردوس أرضى غير مستقر ، ولكنه يعترف بشيء من القلق بشأن أحداث العالم وأنه لم يعد ينام نوماً مريحاً كما اعتاد أن يفعل . وربما كان فى داخل هذا اللاعب التافه شيء من التبرم النبوى؟

وكتب ولز فى « كيف متُّ » أنه بعد أن عاش مع «حكم موته» مدة من الزمن ملّ الانهماك فى هذه الأمور الجاهمة . «قلت : أوه ! الموت . . . إنه مملّ ! لقد انتهيت منه» (ص ١٨٤) . وبعد أربعين عاماً ينهى لاعب الكروكى حكايته بنفس الطريقة تقريباً : « لا أهتم . قد يتحطم العالم . قد يعود العصر الحجرى . قد يكون هذا وقت غروب الحضارة كما تقول . آسف ، لكن لا أستطيع أن أفعل شيئاً حيال ذلك هذا الصباح . لدى ارتباطات أخرى . لا فرق - سيان شريعة الماديين والفرس* - أنا ذاهب اليوم لألعب الكروكى مع عمى الساعة الثانية عشرة والنصف » (ص ٨٢) . غير أن تجربة أخرى فى النبوءة اشتعلت وأضاعت الظلام من حولها لفترة قصيرة ثم خبت - شخص متفرد تحول إلى محاكاة ساخرة لذاته . لقد كتب ولز فى مستهل حياته قطعة مشهورة يصف فيها العلم بعبارات شبيهة جداً بهذه ، ولكنها يمكن أن تعتبر حدساً باخفاق النبوءة :

العلم مباراة بدأها الانسان لتوه . ظن أنه كان فى غرفة - أو هيكل فى لحظات العبادة - وأن ضوءه سينعكس عن جدران كتبت عليها أسرار رائعة وأعمدة نقشت عليها أنظمة فلسفية وأنجزت فى انسجام . إنه إحساس غريب ، الآن وقد انتهت الدفقة الأولى وأخذ اللهب يشتعل متوهجاً، أن يرى يديه مضاءتين ، ويلمح نفسه والرقعة التى يقف عليها واضحتين للعين ، ومن حوله - بدلاً من تلك الراحة الانسانية والجمال الذى توقعه - ما زال الظلام مخيماً^{٢٩} .

★ أنظر سفر دانيال ، الإصحاح السادس . (المترجم)

هوامش الفصل الثانى

- 1- In *When the Sleeper Wakes*, 'The Land Ironclads' and *The World Set Free* respectively.
- 2- H. G. Wells, *Mind at the End of Its Tether* (London: Heinemann, 1945); pp. 4-5. Subsequent page references in text.
- 3- Reprinted in Patrick Parrinder, ed., *H. G. Wells: The Critical Heritage* (London and Boston: Routledge & Kegan Paul, 1972), p. 347.
- 4- MS. Wells Collection, University of Illinois.
- 5- MS. Wells Collection, University of Illinois. Quoted in Bernard Loing, *H. G. Wells à l'oeuvre: Les début d'un écrivain (1894-1900)* (Paris: Didier, 1984), p. 406.
- 6- Robert Flacelière, *Greek Oracles*, trans. D. Garman (London: Elek, 1965), p. 44.
- 7- H. W. Parke, *Greek Oracles* (London: Hutchinson, 1967), p. 73.
- 8- Ibid., p. 84.
- 9- Robert Flacelière, *Greek Oracles* , p. 84
- 10- Percy Bysshe Shelley, 'A Defence of Poetry', in *Shelley's Prose in the Bodleian Manuscripts*, ed. A. H. Koszul (London: Frowde, 1910), p. 117.
- 11- See Geoffrey West, *H. G. Wells: A Sketch for a Portrait* (London: Howe, 1930), p. 61.
- 12- See Bernard Bergonzi, *The Early H. G. Wells* (Manchester: Manchester University Press, 1961), pp. 30-31.

- 13- H. G. Wells, 'Of a Book Unwritten' in *Certain Personal matters* (London: Unwin, 1901). p. 108. Subsequent page references in text.
- 14- H. G. Wells, 'Introduction' to *The country of the Blind and Other Stories* (London: Nelson, n.d. [1911], p. iv. Subsequent page references in text.
- 15- T. S. Eliot, 'Tradition and the Individual Talent' in *The Sacred Wood: Essays on Poetry and Criticism* (London: Methuen, 1960), p. 155.
- 16- H. G. Wells, *The Shape of Things to Come: The Ultimate Revolution* (London: Hutchinson, 1933), p. 14.
- 17- H. G. Wells, 'How I Died', in *Certain Personal Matters*, p. 182. Subsequent page references in text.
- 18- H. G. Wells, *The Future in America: A Search after Realities* (London: Chapman & Hall, 1906), p. 11. Subsequent page references in text.
- 19- H. G. Wells, *First and Last Things: A Confession of Faith and Rule of Life* (London: Watts, 1929), p. 65.
- 20- H. G. Wells, *The discovery of the Future with The Common-Sense of World Peace and The Human Adventure*, ed. Patrick Parrinder (London: PNL Press, 1989), p. 35. Subsequent page references in text.
- 21- Compare Leon Stover, 'Applied Natural History: Wells vs. Huxley', in Patrick Parrinder and Christopher Rolfe, eds., *H. G. Wells Under Revision: Proceedings of the International H. G. Wells Symposium, London, July 1986* (Selinsgrove: Susquehanna University Press, and London and Toronto: Associated University Presses, 1990), pp. 125 - 33

- 22- Wells later qualified this in a footnote to the 1913 edition of *The Discovery of the Future* acknowledging that 'the discovery of radioactivity has changed all that' (p. 37).
- 23- H. G. Wells, *The Outline of History: Being a Plain History of Life and Mankind* (London: Cassell, 1920), p. 608. Subsequent page references in text.
- 24- H. G. Wells, *The Conquest of Time* (London: Watts, 1942), p. 57.
- 25- David C. Smith, *H. G. Wells: Desperately Mortal: A Biography* (New Haven and London: Yale University Press, 1986), p. 478.
- 26- Wells had failed his final examinations at South Kensington, Thus terminating an initially promising academic career which might have led on to research.
- 27- H. G. Wells, *The Croquet Player: A Story* (London: Chatto & Windus, 1936), p. 76. Subsequent page references in text.
- 28- Odette Keun, 'H. G. Wells -The Player', *Time and Tide* (13-27 October 1934), pp. 1249
- 29- H. G. Wells, 'The Rediscovery of the Unique', in *Early Writings in Science and Science Fiction*, ed. Robert M. Philmus and David Y. Hughes (Berkeley: University of California Press, 1975), pp. 30-31.

الفصل الثالث

إمكانيات الفضاء والزمن

« آلة الزمن »

قبل نهاية « آلة الزمن » ينتهى « المسافر » من سرد قصة مغامراته ، وينظر إلى مستمعيه من حوله ، كأنه محاضر ينتظر السؤال الأول بعد إلقاء كلمته ؛ وكثير من المحاضرين العصبيين يحاول أن يبدأ اللعبة بسؤال الحضور قبل أن يُسأل . فبدأ بالقول « لا ، لا ، لا أتوقع منكم أن تصدقوا . اعتبروا الأمر كذبة - أو نبوءة . قولوا إننى حلمت بذلك فى الورشة . . . اعتبروا تأكيدى لصحة ما حكيت لكم مجرد حيلة فنية لزيادة اهتمامكم . وإذا اعتبرتموها قصة فما رأيكم فيها ؟ » (الفصل ١٢)* . ثم يتلممون فى كراسيهم ، ثم يقول الصحفي إن مضيفهم ينبغى أن يكون كاتب قصص . ثم إن الراوى - الذى لم يكن يعرف وجهة تفكيره - يعود فى اليوم التالى إلى بيت « المسافر » فى رتشمند فوجده على وشك الانطلاق فى رحلته الثانية التى لا يعود منها أبداً . وكما لاحظ روبرت فلمس Robert Phil-mus فإن اختفاء « المسافر فى الزمن » مرة أخرى وعدم استطاعته العودة يثبتان ، فى إطار القصة ، حقيقة السفر فى الزمن وأنه كان متنبأً لا كذاباً^١ .

وتبدو حكاية « المسافر فى الزمن » للراوى فى « الخاتمة » أنها لحظة تنوير عابرة ، مثل عود الثقاب فى « إعادة اكتشاف الفريد » ، وسط الجهل الشامل والظلام فى المستقبل . ثم إن نور النبوءة هو أيضاً نور العلم - ولكن المخيف هو مدى امتداد الظلام . ويقول ولز شيئاً قريباً من هذا فى « المستقبل فى أمريكا » عندما يتحدث عن فقد إيمانه بقرب تحقق الرؤيا المسيحية الذى كان يحمله أيام مراهقته . فدراسة علم الأحياء فتحت أمامه « آفاقاً لا نهاية لها من السنين القادمة » (ص ١٠) . ثم إن الفضاء بدا وكأنه لا نهاية له ؛ ومن الجدير بالذكر أن ولز كثيراً ما استعمل هذه الكلمة فى أعماله المبكرة استعمالاً مجازياً

* الفصل ١٦ فى بعض الطبعات . (المترجم)

للدلالة على حقبة من الزمن كما في العبارة « مسافة من الزمن »^٢ . وتكامل الفضاء والزمن في دنيا ولز يلخصه عنوان كتابه الذي ضمنه مجموعة من القصص عام ١٨٩٩ ، وهو «حكايات الفضاء والزمن» Tales of Space and Time .

غير أن السفر في الزمن وما يترتب عليه من تداعيات النبوءة يشغل خيال ولز بأشد مما يشغله السفر في الفضاء . ومع أنه اشتهر بكونه رائد القصص العلمي الحديث فإنه لم يلق كبير بالٍ لقصص سفن الفضاء والسفر إلى الكواكب ، ورؤياه المتكلفة في « اكتشاف المستقبل » حول كائنات « سوف تضحك وتمد أيديها بين الكواكب » (ص٣٦) كانت مصدر إلهام لكتاب آخرين ، ولكن لم يكن لها مكان يذكر في نتاج ولز . وباستثناء السرد الباطني العلمي لقصته القصيرة « تحت السكين » Under the Knife فإن قصة « أول رجال على القمر » هي القصة الوحيدة له التي تحكى عن رحلة خارج جو الأرض ؛ ومن الجدير بالذكر أن بدفورد ، راوى القصة ، يمر بتجربة انحلال الهوية في « فضاء لا حدود له » خلال رحلة العودة من القمر ، وهي قصيرة نسبياً . وهو يحكى هذا الجزء من مغامراته بصورة موضوعية هادئة تختلف عن « الحبور الهستيري » (الفصل الثالث) الذي يبديه « المسافر في الزمن » إذ ينطلق في المستقبل . إن خيال ولز يعاني الخوف والارتعاش من السفر في الزمن ، غير أن تجربة الكشف المثيرة في « أول رجال على القمر » لم تلصق بالرحلة وإنما بالاكشافات التي يتوصل إليها المكتشفان على القمر .

فما هو إذن مصدر الإثارة في السفر في الزمن ؟ إنه يعكس انحياز اهتمام ولز العلمي إلى علم الأحياء التطوري وعلم الأحافير أكثر من ميله إلى الفلك والفيزياء ، ولكنه كان أيضاً ذا جاذبية شخصية أكبر ، وهذا الانحياز يعكس قلق خياله ، وهناك ما يحونا إلى أن نعزوه إلى المذهب الألفي الديني الذي نشأ عليه^٣

وإلى إرهابات بالموت المبكر . وقد جاء الاعتراض المنطقي على السفر في الزمن من زميله الروائي إسرائيل زانغويل Israel Zangwill في عموده بمجلة پيل - ميل في سبتمبر ١٨٩٥ . فقد قال زانغويل إن السفر عدة سنوات في الزمن يعنى السفر عبر موت المسافر^٤ . (يمكننا أن نضيف إلى ذلك السفر عبر موت الآلة : كلال المعدن والتآكل كثيراً ما يكون أسرع من فساد جسم الانسان) . ونحن نسلم بأن فكرة « السفر عبر الموت » مضللة لأن ما تحققه آلة الزمن لراكبها هو تجنيبه عاديّات الزمن وتخطيها . وبما أنه بقى حياً ولم يدرج في الشيخوخة إلا بضع ساعات عندما وصل العام ٨٠٢٧٠١ فإن رحلته تتم في إطار زمنى يختلف عن الإطار الزمنى الذى خلفه وراءه ثم عاد إليه^٥ . وقد كان ولز ، بطبيعة الحال ، على وعى على الأقل ببعض التناقضات الظاهرية التى تحيط بكل القصص التى تكتب عن السفر في الزمن . وهذه شديدة البروز فى نهاية القصة عندما يعود الراوى إلى رتشمند في اليوم التالى لعودة « المسافر » ويرى آلة الزمن فى المختبر الخالى قبل اجتماعه بمخترعها فى حجرة التدخين . وكان « المسافر » قد مرّ بهذه اللحظة فى المختبر الخالى مرتين من قبل : مرة أثناء رحلته إلى الأمام ومرة أخرى فى رحلة العودة . ويقول فى المرة الثانية « تراءى لى أننى رأيت هليير Hillyer . . . ولكنه مرّ كالوميض » (الفصل ١٢) . فإذا كان هليير هو الراوى (كما ارتأى غيدلد^٦ Geduld) فإن « المسافر » يراه إما فى هذه اللحظة أو بعيد ذلك عندما يدخل الراوى إلى المختبر مرة أخرى . وفى تلك المناسبة الثانية يلمح الراوى شبح « المسافر » على الآلة أثناء مغادرته - أو وصوله - أو فى كلتا الحالتين . وهناك تعقيدات أخرى يمكن اعتصارها من افتتاح القصة بمثل هذه التناقضات الظاهرية^٧ .

قبل أن يتلقى ولز « حكم موته » بعد حادثة كرة القدم عام ١٨٨٧ كان قد كتب « رؤيا من الماضى » ، وبعدها بقليل كتب « المغامرون العنيون » وهى الصيغة الأولى « لآلة الزمن » التى جعلت فى الزمن الحاضر .

وفى نهاية « المغامرون العنيدون » يعود القس إيليا كوك Elijah Cook من رحلة فى المستقبل أجبر عليها ، ولكننا لا نسمع منه قصة ما حدث هناك ، وقد عبر أصدقاء ولز عن عدم ارتياحهم للنهاية المبتسرة ، ولكن انقضت سنون عديدة قبل أن يتمكن من كتابة التتمة الموعودة بالشكل الذى يرتضيه . وعندما ظهرت آخر الأمر فى كتاب كانت قد نقحت ست مرات على الأقل^٨ . ونستطيع القول إن ولز ظل ست سنوات (١٨٨٨-١٨٩٤) متردداً على شفا قصة نبوئية أصيلة . واغتباطه بأنه نجح فى إكساب المستقبل جسماً وشكلاً ربما كان منعكساً فى التورية (إن كانت تورية) فى الفصل الرابع من « آلة الزمن » حيث يفكر « المسافر » مستغرباً « أن الآبار* ما زالت موجودة » .

تتضمن « المغامرون العنيدون » قصتين يسميهما ولز : « السطحية » و « الباطنية » . والقصة السطحية أو الخارجية يحكيها « المؤلف » (أى ولز نفسه) بينما الباطنية أو الداخلية يحكيها القس إيليا كوك بشكل شذرة غير مكتملة . والشخص الذى لا يحكى قصته أبداً هو نبوغيفل Nebogipfel مخترع آلة الزمن أو « أرغو** العنيدة » Chronic Argo فهو يكتفى بشرح مبادئ السفر فى الزمن فى حديث له مع إيليا كوك . وفى صيغة قصة ولز التى ظهرت فى ناشنال أوبزيرفر بين مارس (آذار) ويونيه (حزيران) ١٨٩٤ نجد نبوغيفل - الذى سمي أو لقب الآن « المسافر فى الزمن » - يقاطعه مستمعوه باستمرار بالتعليقات وصرخات الشك إذ يخلط الكلام الفلسفى بقصة المغامرات . ويظل هناك ما يشد عنان الخيال فى قصته كأنه ما زال ثمة مانع يقيد مؤلفها . فهذه الصيغة ملهوجة من حيث القص مثلما كانت « المغامرون العنيدون » ملهوجة^٩ . أما فى الصيغة النهائية فقد تغلب ولز على معوقاته . وما أن نصحب « المسافر » فى رحلته حتى ننسى ظروف غرفة التدخين فترات طويلة جداً . وأخيراً يفيض

(*) التورية فى كلمة wells فهى تعنى الآبار كما أنها اسم المؤلف . (المترجم)

(**) أرغو هى السفينة التى ركبها جيسن ورفقاؤه فى مغامرتهم لاحتضار الجزة الذهبية ولقوا فى رحلتهم الأحوال ،

ويطلق على ركبائها اسم « Argonauts » الذى أصبح مرادفاً للمغامرين . (المترجم)

صوت عرافة دلفى . لقد أصبح « المسافر » الآن أكثر من مجرد أداة للسرد . لقد أصبح شخصية بطولية ضمن حدود القصة ، كما أصبح تجسيدا للشخصية ذات الرؤيا التي بدأ ولز يكتشفها فى نفسه بثقة متزايدة .

٢

كان القس إيليا كوك من ركاب سفينة الدكتور نبوغفل على غير رضى منه . وعند وصوله عائداً من رحلته فى « المغامرون العنيدون » أخذ يعلن أن لديه عدة شهادات يريد أن يدلى بها . وهذه الشهادات تتعلق بجريمة قتل فى عام ١٨٦٢ (هذا يدل على أن المغامرين قد ساروا خلفاً وأماماً فى الزمن على عكس «المسافر فى الزمن»)، وجريمة اختطاف فى عام ٤٠٠٣ ، و«سلسلة من الاعتداءات على الموظفين العاملين فى السنتين ١٧٩٠ و ١٧٩٠٢»^{١٠} . وفى صيغة « آلة الزمن » التى نشرتها ناشنال أوبزيرفر يوضع عالم الألوين Eloi* (الأخياري) والمورلوكيين Morlocks (الأشرار) فى عام ١٢٢٠٣ ب.م . والتاريخ المسجل على لوحة « آلة الزمن » فى الصيغة النهائية هو ٨٢٠٧٠١ . ثم تأتى «صيغة أخرى» تصل فيها رحلة «المسافر» إلى ٢٩ مليون سنة . وقارئ الصيغ المختلفة يؤخذ بسحر هذه الأرقام الغامضة - وبخاصة الرقم المحير ٨٠٢٧٠١ - ولكن معنى هذه الآماد المترامية فى الزمن الخيالى يحتاج إلى إيضاح .

عندما يواجه ضيوف « المسافر فى الزمن » فكرة زيارة المستقبل يتجلى مدى محدودية آفاقهم (وعلى الأساس نفسه آفاقنا) . فالصحفى يلعب المضيف « بمراسلنا فى يوم بعد غدٍ » (الفصل الثانى) . والمحرف يريد أن يعطيه معلومات عن سباق الخيل فى الأسبوع القادم . ويقترح الشاب استثمار قدر من المال ثم

* فى إنجيل مرقس (الإصحاح ١٥) أن المسيح صاح وهو على الصليب «إِلَوِي إِلَوِي لَمَّا شَبَقْتَنِي» أى «إلهى إلهى لماذا تركتني» وهى فى إنجيل متى «إيلى إيلى ٠٠٠ ٠٠٠» وكان هناك قديس بهذا الاسم (٥٨٨ - ٦٥٩) وكان صانفاً ماهراً جميلاً حسن التهذيب ، وهو حامى أصحاب الصنائع والذى «تحلف به رئيسة الراهبات أعظم الإيمان» فى حكايات كانتربرى لتشوسر (البيت ١٢٠ من المقدمة) . ولعل ولز استمد اسم الأخيار منه .

السفر إلى الأمام لتسلم الأرياح . ومع ذلك فإن رحلة ناشنال أوبزيرقر المتواضعة نسبياً قطعت مدى زمنياً يزيد على ضعف التاريخ المدون للإنسان . لقد كان ولز مطلعاً على مشاهد ما قبل التاريخ التي فتحها علماء الجيولوجيا والآثار في القرن التاسع عشر ، وقد شكلت هذه المعرفة رؤيته للسفر في الزمن . وبحكم كونه تلميذاً في ساوث كنزنگتن فإنه كان ينتمي إلى الجيل الأول من الشباب الذي درس بطبيعة الحال عن العصر الحجري وعصر الديناصور وتكوين الأرض . وسرعان ما أصبح هذا المجال الجديد من المعرفة من مقومات الثقافة العامة ، وقد استحضره ولز في خاتمة « آلة الزمن » حيث يتخيل الراوى « المسافر » قائماً برحلة في العصر الحجري القديم والعصر الجوراسي والعصر الترياسي .

لقد ظهرت الانسانية في مرحلة متأخرة نسبياً في سلسلة النشوء والتطور ، ومع ذلك فإن هذا الجنس الذي ننتمي إليه قديم إلى حد يعز على الخيال . وفي رومانسية ولز العلمية التالية يذكر الدكتور مورو الراوى بأنه « مضى على الانسان مائة ألف عام وهو في طور التكوين » (الفصل ١٤) . وفي الحقيقة فإن تقدير الدكتور مورو أقل من الواقع بكثير، كما يلمح الأفق الزمني في « آلة الزمن » . وفي « موجز التاريخ » جعل ولز ظهور الانساني المنتصب (كانسان جاوه) قبل ستمائة ألف سنة ، ولكن بعد أن أصبح التاريخ يحدد باستعمال الكربون ١٤ ارتفع هذا الرقم إلى ١.٨ مليون سنة^{١١} . وفي سبتمبر (أيلول) ١٩٩٤ ظهرت تقارير تفيد باكتشاف مخلوق شبيه بالانسان من أكلة الفواكه (ربما كان شبيهاً بالألويين في سلم الارتقاء) يقال إنه يرجع إلى ٤.٢ ملايين سنة .

وكان ولز قد ألمح قبل « آلة الزمن » إلى تقسيمات ممكنة للزمن في سلم الارتقاء في المستقبل ، وذلك في « إنسان السنة المليون » . وفي مباحثة جرت حول « معدل التغير في النوع » (ديسمبر - كانون الأول ١٨٩٤) بين الاعتبارات التي قد تكون دفعته إلى إطالة رحلة « المسافر في الزمن » من عشرة آلاف سنة (حسب صيغة ناشنال أوبزيرقر) إلى نحو ثمانين ضعفاً . وقد ادعى ولز أن ثمة حقيقة بيولوجية قلما تلاحظ ، وهي أن معدل التغير الممكن يخضع للفجوة بين

الأجيال، ومن ثم لمعدل سن البلوغ فى النوع. والارتقاء بالاختيار الطبيعى - وهو على وجه الدقة نموذج داروين الذى تمسك به ولز وهكسلى - ما كان ليحدث تغييرات ذات بال فى النوع البشرى فى التاريخ المعروف ، ولذلك فإن أية تغييرات من هذا القبيل لا بد من أن تكون فى أصلها ثقافية لا طبيعية. وكان ولز مصمماً على أن يبين فى « آلة الزمن » نتائج الارتقاء الطبيعى الفرضى لا العمليات الاصطناعية أو اليوجينية (تحسين النسل). وهكذا فإن رحلة «المسافر» عبر ما يقارب مليون سنة تعكس العمر المحتمل للنوع البشرى - حسب مفهوم معاصر ولز - والحد الأدنى لكى ينتج الاختيار الطبيعى كائنات جديدة منحلة منحدره من البشرية الحالية.

ويتأثر الأفق الزمنى لقصة ولز أيضاً بالتقديرات الفيزيائية أنذ لمستقبل المجموعة الشمسية. فالمسافر يصل إلى نقطة لا تضمحل عندها الانسانية وحدها ، وإنما يصيب حرارة الشمس أيضاً انخفاض واضح. وإذا كانت قصة التطور تشير إلى مرونة الأنواع البيولوجية ، فإن قوانين اللورد كلفن Lord Kelvin فى الديناميكا الحرارية صوّرت الكون على أنه حظيرة محدودة والطاقة فيها محدودة. وقد جرب ولز وهو طالب القيام بعرض خادع لآلة حركة دائمة (تدار بمغناطيس كهربائى)^{١٢}، وهى شىء مستحيل فى الديناميكا الحرارية وليست بعيدة عن الشبه بآلة الزمن ، لأن كليهما تعتمد على الالتفاف حول الهيكل العادى لما أسماه - فى مقالة مفقودة - « الكون الساكن »^{١٣} Universe Rigid. والقانون الثانى فى الميكانيكا الحرارية يقرر أن الطاقة تميل دائماً إلى الانتشار، وقد جعل ذلك من الواضح أن الشمس والكواكب الأخرى لا بد أن تبرد مع الزمن وتنطفئ. وتعكس آلة الزمن عملية التحول الداخلى (الأنثروبيا) هذه ، وكذلك حسابات السير جورج داروين Sir George Darwin لأثر شد المد على حركة الأرض. غير أن ولز اعترف بنفسه فى وقت لاحق من حياته بأن تكهناته الفلكية كانت جاهمة جداً^{١٤}. وقد أثبتت دراسة النشاط الاشعاعى أن مصدر حرارة الشمس هو نتيجة التحام نووى حرارى وليس احتراقاً ، فالشمس ليست فحماً

يحرق وإنما هي مفاعل نووى. فازداد العمر المقدر للمجموعة الشمسية عما تضمنه المقياس الزمني في « الرؤيا الأخرى » Further Vision إلى عشرة آلاف مليون سنة ، وربما إلى مليون مليون سنة^{١٥} .

هذه أماد من الزمن يعز على الخيال تصورها وتكاد تكون بلا معنى، ومع ذلك فإن « آلة الزمن » تجعل مستقبلاً يمتد ثلاثين مليون سنة من الممكن تصوره . وهذا هو تأثير الإيهام « بالحقبة الواقعية » لسيطرة عنصري الأسطورة والرؤيا في القصة على القارئ . والسؤال كيف استطاع ولز ذلك يوصلنا إلى حقيقة مسلّم بها ، وهي أن نماذجنا لتخيل المستقبل مستمدة من معرفتنا وفهمنا للماضي . إنه يستطيع أن يكتب عن السفر مليون سنة أو ثلاثين مليون سنة في المستقبل في ضوء ما أجمع عليه الجيولوجيون من أن الأرض أقدم من ذلك بكثير ، ولكن مدى ذلك القدم يظل مسألة فيها نظر . لقد قدر كلّفن أن عمر أقدم الصخور قد لا يصل إلى أكثر من خمسة وعشرين مليون سنة ، بينما ذهب توماس هكسلى إلى أنه يبلغ ، حسب تخمينه ، أربعمائة مليون سنة ؛ وقد لخص ولز هذا الخلاف في « موجز التاريخ » ، ولكنه لم يستطع أن يقيم من نفسه حكماً بين الاثنين . وهو يعيد استعمال أحد مجازاته الأثيرة ويضيف : « ليس الفضاء وحده خالياً من وجهة نظر الحياة والانسانية، ولكن الزمن خالٍ أيضاً . فالحياة وهج ضئيل لم يكد يشعل بعد في هذه الأماد الشاسعة الخالية » (ص ٨) . وفي « آلة الزمن » أطال هذا الوهج الضئيل قليلاً .

٣

إن استخدام ولز للزمن الجيولوجي لا يبين كيف استطاع أن يصور الحضارة الدونية للأولين والمورلوكيين في تاريخ معين في المستقبل ، وهو في الصيغة النهائية عام ٨٠٢٧٠١ . وكثيراً ما عجب القراء لماذا استقر على هذا التاريخ العجيب . وقد نستطيع أن نجد سبيلنا إلى الجواب بالنظر بامعان إلى

الأحاسيس التي أثارها السفر في الزمن كما وصف في القصة . « فالمسافر » يلاحظ إذ يركب آله في المستقبل تزايد سرعة الظواهر الطبيعية : الليل والنهار يتعاقبان حتى ما يكاد أحدهما يميز من الآخر ، والفصول تتغير في ومضات ، والأشجار تنمو وتختفي بسرعة هائلة . وهذا الجانب من القصة يصيبنا بأثر مدوّخ كفيلم يتسارع باطراد ، وقد جعلنا نتساءل : بأي سرعة يسير وكم تستغرق الرحلة . وهو يذكر مرة أخرى أن سرعته تزيد على السنة في الدقيقة ، ولكن إذا كان هذا هو معدل سرعته فإنه يستغرق حوالى ثمانية عشر شهراً ليصل إلى العام ٨٠٢٧٠١ . وتزداد سرعته في وقت لاحق في القصة حتى يقترب من « الرؤيا الثانية » بسرعة تبلغ خمسين سنة في الثانية ، ولكن في الحقيقة إذا كان متوسط السرعة خمسمائة سنة في الثانية فإنه يكون أقرب إلى المعقول^{١٦} . فبهذه السرعة يستطيع أن يصل إلى عصر الأوليين والمورلوكيين في أقل من نصف ساعة .

ويرى « المسافر » خلال الرحلة حضارات متغيرة مثلما يرى ظواهر طبيعية متغيرة . يقول في الفصل الثالث : « رأيت مباني ضخمة ترتفع ثم تتضاءل وتمر كالطم . كم مرة حدث ذلك ؟ رأيت عمارات ضخمة وفخمة ترتفع من حولى ، وكانت أكبر من أية مبانٍ في زماننا ، ومع ذلك فإنها بدت مبنية من الوميض والضباب » . ولم يكن ثمة داعٍ إلى السفر ثلاثة أرباع المليون من السنين لمشاهدة عمارات الحضارات الانسانية المتعاقبة . فمعرفتنا بتاريخ الماضى تفيدنا بأن ٨٠٠ سنة ربما كانت كافية . ولو افترضنا أن مواد البناء تدوم أكثر كثيراً فإن ٨٠٠٠

١٦- « خمسون سنة في الثانية » لأن أقراص آلة الزمن مدرجة بالأيام وآلاف الأيام وملايين الأيام وآلاف ملايين الأيام . ويقول « المسافر » إن عقرب الآلاف كان يدور بسرعة عقرب الثوانى في الساعة (الفصل ١١) . فإذا كانت دورة عقرب الآلاف تمثل مليون يوم فإنه يسير مليون يوم في الدقيقة ، أى ٤٦ سنة في الثانية ؛ ولكن هذا يعنى أنه يستغرق أكثر من أسبوع في قطع ٣٠ مليون سنة . وبطبيعة الحال قد نجد الاشارات إلى أقراص الآلة بعيدة عن الدقة خاصة وأن الوقت المراد قياسه ليس خطياً . فإذا كانت هذه الأقراص تقيس الأيام الأرضية فإننا نعجب كيف استطاعت احتمال أو اعتبار تباطؤ اليوم الأرضى طالما أن نورة واحدة للشمس « بدت وكأنها تمتد عبر قرون » (الفصل ١١) .

سنة تبدو كافية جداً . وإذا افترضنا درجة من الاستمرار في الحضارة الانسانية فإن التغيرات في العمارة تكون أكثر حدوثاً من التغيرات الطبيعية التي يشاهدها المسافر أيضاً في المناخ - « رأيت خضرة أزهى تنساب إلى أعلى على سفح التل وتبقى هناك دون أى فاصل شتائي » (الفصل الثالث) ، دع عنك التغيرات في النوع التي أنتجت الألويين والمورلوكيين .

إن ترتيب الأرقام في ٨٠٢٧٠١ يوحى بوجود رقم تحول داخلي دورى نازل^{١٧} . ونستطيع أن نبين كيف توصل إليه ولز بأن نفترض بأن « آلة الزمن » تجسد مقياسين لزمن المستقبل لا مقياساً واحداً . وهذان المقياسان هما الزمن التاريخي مقيساً بظهور وأفول الثقافات والحضارات ، والزمن البيولوجي مقيساً بنشوء وانحطاط الأنواع . وكل من هذين الزمنين مركب فوق الآخر . وأنا أرى ابتداءً أن ولز قد أسقط اختراع آلة الزمن على بداية القرن العشرين بحيث يمكن تصور حفل العشاء في رتشمند مقاماً في عام ١٩٠١ . (وبالمثل فإن أحداث « حرب الكواكب » التي بدأها ولز بعد نشر « آلة الزمن » مباشرة تقع في السنوات الأولى من القرن العشرين - الكتاب الأول ، الفصل الأول) . وكان قد استخدم أوائل القرن العشرين منطلقاً لقصة « المغامرون العنيدون » حيث أن أبعد نقطة نعرف أنه تم بلوغها هي العامان ١٧٩٠١ - ١٧٩٠٢ ، أى أنها كانت رحلة من ١٦٠٠٠ سنة . أما في « آلة الزمن » فإنه لم يجعل الألويين والمورلوكيين بعد ١٦٠٠٠ سنة وإنما بعد ٨٠٠٨٠٠ سنة بعد عام ١٩٠١ ، وهو رقم مشعب بصورة لها دلالتها . فالثمانمائة سنة ، التي تكفى لظهور وأفول حضارة أو اثنتين في الزمن التاريخي ، توصلنا إلى العام ٢٧٠١ . وقد أضاف ولز إلى هذا الرقم ٨٠٠٠٠٠ سنة أخرى (أى الجزء الأكبر من المليون) من زمن النشوء والارتقاء . وإذا فرضنا أن الرقم ٨٠٢٧٠١ تقرر بعملية من هذا القبيل فإن جاذبيته المثالية كرمز للتحول الداخلي تغرى باستخدامه . ودلالته - التي سنتابع بحثها في الفصل الخامس - تكمن في أن آلة الزمن معدة لمقياسين للزمن ،

زمن النشوء وزمن التدوين التاريخي ، مع أن هذين الزمنين لا ينسجمان في بعض النواحي . وبدون مقياس الزمن على أساس ٨٠٠ سنة لا نستطيع أن نتبين بسهولة التفاصيل المهمة كبقاء أشكال من العمارة الكلاسيكية - لا تخطئها العين - في المستقبل البعيد لتكون منظرًا مألوفًا يطغى عليه أبو الهول وتكتنفه القصور والحدائق الخربة .

٤

أبو الهول والقصور الخربة من العناصر المركزية في رمزية القصة . فأبو الهول هو رمز التوجس والنبوءة . والقصور والحدائق تذكر بمنظر رسومات الكلاسيكية الجديدة والبيوت الريفية ، وفي الوقت نفسه تشير إلى رومانسيات انجليزية طوبائية كانت لا شك ماثلة في أذهان قارئ ولز الأولين ، منها « بعد لندن » لريتشارد جفرز (١٨٨٥) : Richard Jefferies : After London ، « العصر البلوري » لـ و . هـ . هـسن (١٨٨٧) : W. H. Hudson : A Crystal Age ، وفوق هذه جميعاً رواية وليم موريس « أخبار من لا مكان » (١٨٩٠) William Morris: News from Nowhere . وقد اقتضى موت موريس عام ١٨٩٦ من ولز تقديراً عاطفياً وإن يكن فيه شيء من الاستعلاء في Saturday Review . كتب ولز يقول^{١٨} : « لم تكن أرض أحلامه شيئاً من المستقبل وإنما قبساً من ماضٍ مضاء » . ولكن الثناء القلبي هو الذي أُلح فيه إلى الصلات الوثيقة بين « أخبار من لا مكان » و « آلة الزمن » والذي ظهر في أول « يوطوبيا حديثة » A Modern Utopia :

أعتقد أننا لو كنا أحراراً في أن تكون لنا رغباتنا غير المقيدة لاتبنا موريس إلى لا مكانه ، وكان علينا أن نغير طبيعة الانسان وطبيعة الأشياء معاً ؛ يجب أن نجعل الجنس البشري كله عاقلاً ، صبوراً ، نبلاً ، كاملاً . . . في عالم صالح في طبيعته ، ناضج ومشبع بالشمس كالعالم قبل سقوط آدم . غير أن ذلك العصر الذهبي ، ذلك العالم الكامل ، يتأتى في إمكانيات الفضاء والزمن . وفي الفضاء والزمن تتحمل إرادة الحياة أبدية العدوان أكثر وأكثر^{١٩} .

وقد عنون الفصل الخامس فى الطبعة الأولى من « آلة الزمن » « فى العصر الذهبى » . و « إمكانات الفضاء والزمن » فى رؤيا ولز ليست بلا حدود . وما يبدو فى الفضاء والزمن مثل يوطوبيا موريس يمكن أن يصاب بصدع لا يمكن رتقه ، فليس من الممكن وجود فردوس أرضى من هذا القبيل . وعالم الألوئين والمورلوكيين يشيران إلى الملائكة والشياطين ؛ والجنسان ، وهما من نتاج الاختيار الطبيعى ، يُجمعان معاً فى علاقة من الضرورة والتكافل - حالة من « أبدية العدوان » لا يتسنى بدونها لأيهما أن يزدهر .

إن « آلة الزمن » نص لاطوبائى بكل وضوح ، وهى فى الوقت نفسه نص يذكر عن عمدٍ فى عدد من المواقف برواية موريس « أخبار من لامكان » . فمجتمع موريس الرعوى الشعارى متمركز فى هامرسمث فى غربى لندن ، بينما مجتمع الألوئين متمركز على مسافة ميلين أو ثلاثة قبل رتشمند . وكلاهما يعيش فى أرض خضراء بدلاً من المناطق الصناعية والضواحي المنبسطة على حافتي التيمز . والألوئون يأكلون سوية فى قاعات طعام شعبية شأنهم فى ذلك شأن أهل « اللامكان » وسائر المجتمعات الطوبائية المعاصرة . ووليم غست William Guest ، المسافر فى الزمن عند موريس ، يستقى تاريخ إنجلترا فى القرن العشرين والقرن الحادى والعشرين من شيخ فى المتحف البريطانى ، كما أن مسافر ولز يصل فى رحلته إلى قصر الخزف الأخضر ، وهو متحف مهجور للفنون والعلوم مؤسس على مثال القصر البلورى * Crystal Palac ومتحف ساوث كنزنگتن^{٢٠} . وفى مساء اليوم الأول للمسافر مع الألوئين يصعد إلى رأس تل ويستعرض الريف ويقول فى نفسه « الشيوعية ! » (الفصل الرابع) . ولا بد أن تكون

* القصر البلورى بنى فى هايدبارك ، لندن ، ليكون مقراً لمعرض سنة ١٨٥١ ثم نقل إلى سايدنهام ، وشب فيه حريق دمره عام ١٩٣٦ . (المترجم)

٢٠ كان هذا فى القرن التاسع عشر اسم لما هو الآن أربعة متاحف مستقلة مجموعة فى ساوث كنزنگتن وهى : المتحف الجيولوجى ومتحف التاريخ الطبيعى ومتحف العلوم ومتحف فكتوريا وألبرت . وهذا هو المتحف الذى يشير إليه المسافر (لا ذلك القسم من لندن الذى يقع فيه) عندما يصف قصر الخزف الأخضر بأنه « من آثار ساوث كنزنگتن فى زمان لاحق » (الفصل الثامن) .

الشيوعية التي يفكر فيها هي اليوطوبيا الرعوية عند موريس وتوماس مور ، لا المجتمع الصناعي الثوري عند ماركس وسان سيمون* Saint - Simon . وفي مناسبتين يسخر المسافر من التصنع في قصص اليوطوبيا ، وكأنه يحاول أن يثبت في الأذهان أن قصته تفوقها أصالة وموثوقية ، فهو يقول « إن المسافر الحقيقي » لا تتوفر له التفاصيل الهائلة عن المباني والتنظيمات الاجتماعية التي توجد في تلك الكتب (الفصل الخامس) ، « فليس لديه دليل مريح من نمط كتب اليوطوبيا » (الفصل الخامس) ، وإنما عليه أن يتوصل إلى كل شيء بنفسه بالتجربة والخطأ . وليس التركيز هنا على عرض فلسفة طوبائية أسمى ، وإنما على قدرة الملاحظة لدى المسافر وعاداته في الاستقراء والاستنتاج العقلي . وبناء القصة ، واعتمادها على مبدأ التطور ، يوحيان بأن ولز يريد أن يقول إنه يقدم رؤيا أكثر واقعية وأقل انسياقاً مع النزوة الذاتية مما يقدمه موريس والسائرون في ركاب ذلك التقليد ، كأن عالم سنة ١٨٠٢٧٠ أقل تحقيقاً لوطن في النفس من فنتازيا « اللامكان » عند موريس . ويظهر المسافر في الفصول الأولى جهبذاً في علوم عدة : فهو مخترع ومهندس لامع ، يستطيع بمجهوده وحده أن يختبر النتائج التطبيقية لاكتشافاته النظرية في الهندسة الرباعية الأبعاد^{٢١} . وهو يفهم مبادئ علم الأحياء وعلم النفس ؛ وفي دراسة للألويين والمورلوكيين يجد نفسه - بدون دليل يستعين به - في موقف الأنثروبولوجي والاثنوغرافي . وكالاثنوغرافي الميداني يتعلم لغة القوم الذين يحل فيهم ويحاول أن يناقش معهم مسائل لا يجوز الخوض فيها كالآبار الغامضة التي تنتثر في الريف . وهو على وعى دائم بأنه قد يكون مفتقراً إلى بعض المعلومات الضرورية ، ولكنه يحاول في كل مرحلة أن يرد

★ كلود هنري سان سيمون (١٧٦٠-١٨٢٥) فيلسوف فرنسي ومفكر سياسي واقتصادي، كان يعارض السلطة السياسية ويرى أن المجتمع يجب أن ينظم وفق مبدأ الورشة . من أهم مؤلفاته «النظام الصناعي» Le Sys-tème industriel . (المترجم)

٢١ - اكتشاف «المسافر في الزمن» هو أن البعد الرابع هو الزمن ، وهو في هذا يستبق أينشتاين . وكان الرأي الشائع بشأن البعد الرابع في القرن التاسع عشر هو وجود بعد إضافي من الفضاء يوازي «عالم الروح» الذي تتردد عليه الأشباح

ما يتوصل إليه إلى أساس نظري^{٢٢} . ولمسة ولزية مميزة يقلب العلاقات المعتادة بين أنثروبولوجي من القرن التاسع عشر ومادة موضوعه ، مقارناً كلامه عن الأوليين « بالحكاية التي يحملها عن لندن زنجى خرج من وسط أفريقية لأول مرة وزار لندن ثم عاد إلى قبيلته » ، ويضيف أن « هذا الزنجى سيجد كثيرين مستعدين لامداده بالمعلومات ، وعلى أى حال ما أضيق الفرجة بين الزنجى والرجل الأبيض فى زماننا ، وما أوسع الشقة بينى وبين هذه المخلوقات فى العصر الذهبى » (الفصل الخامس) .

ولا بد من الاعتراف بأن المسافر كثيراً ما يتخلى عن موضوعيته العلمية المثالية . وعلى نقيض الطوبائيين الذين يعارضهم ولز ، فإن قصته عبارة عن قصة مغامرات عنيفة ، كما أنها فى الوقت نفسه أشبه ما تكون بتقرير ميدانى . وسلوك المسافر فى اللحظات الحرجة يتصف بالهستيريا والرعب والإهمال ؛ وعندما يواجه المورلوكيين يصبح قاسياً مستيئساً . وهو يجسّد فى كل هذا ما يسميه ولز فى « يوطوبيا حديثة » « إرادة الحياة » . والتعطش إلى الدم فى واقعية ولز المناوئة للطوبائية هو الذى دفع وليم موريس إلى الردّ فى مراجعة ليوطوبيا بلسمى المدنية الاشتراكية « نظرة إلى الوراء » Looking Backward : « إن القراءة السليمة الوحيدة لأى يوطوبيا تكمن فى اعتبارها تعبيراً عن مزاج مؤلفها »^{٢٣} . إن « آلة الزمن » تفضح زيف حلم اليوطوبيا (وهو حلم عاد ولز إلى الأخذ به فى كثير من أعماله اللاحقة) لتكشف أن النوع البشرى يخوض صراعاً وحشياً للبقاء ، وهو صراع لا يستطيع فى نهاية المطاف الفوز فيه لأن كل أنواع الحياة على الأرض مآلها إلى الفناء . وقد مكّن ولز مسافره من تجنب موته الطبيعى - أو أن يخدع الموت - لينزل الموت بالعنف على بعض ذرية البشرية الأبعدين قبل أن يمضى ليشهد الموت الجماعى للجنس والبيئة التى أبقتة على قيد الحياة .

٢٢ - تعتمد تفسيراته فى مناسبتين على المفهوم الأنثروبولوجي المعاصر حول « الباقيين الهمجيين » (الفصل الرابع) .

عندما تحدث موريس عن مزاج المؤلف فإنه كان يستعيد إحدى المقولات الرئيسية فى أواخر القرن التاسع عشر حول نظرية الأدب. فلا بد أنه كان على وعى برد الفعل الواسع ضد ادعاءات الموضوعية العلمية التى كانت تنادى بها حركتا الواقعية والطبيعية ، فكان يُقال إن كل عمل يفضح طابع شخصية صانعه^{٢٤}. وإذا سلمنا بتعقيد وتفرد نص مثل « آلة الزمن » فإن التوجه إلى الشخصية والمزاج يصبح، بالنسبة للقارئ الحديث ، تكراراً ليس فيه بادرة إنارة. ومع ذلك نستطيع القول إنه عندما كان خيال ولز الفنى فى أشد حالاته حيوية ، أى فى الرومانسيات العلمية المبكرة ، فإنه كان أيضاً فى أعنف حالاته. وبعد عشر سنوات من هذه المعاداة اللافتة للطوبائية فى هذه الكتب ، أصبح مستعداً لتقديم رؤيته الخاصة الهادئة نسبياً « ليوطوبيا حديثة ». وهذا التبدل الواضح فى الشعور يوازى فى الواقع التحسن الكبير فى حالته الصحية.

إن المورلوكيين أكلى لحوم البشر ، وأهل المريخ مصاصى الدم ، وحمام الألم الذى يشرح فيه الدكتور مورو الحيوانات الحية ليحولها إلى كائنات بشرية كاذبة – كل هذه وجدت طريقها إلى ذهن ولز فى السنوات التى كان كثيراً ما يجد نفسه فيها طريح الفراش ويصق دماً. وبما أن مرضه شخص (خطأ) على أنه السل فإن أول ألوى يقابله « المسافر فى الزمن » وجهاً لوجه كان « ذا جمال محموم كالمسلول » (الفصل الثالث) : ويساور المسافر شعور عميق نحو هذا المجتمع الذى قدر على أفراده أن يكونوا مسلولين ، حتى إذا ما تسلح بقضيب حديد صدى أخذ يُنزل ما استطاع من الدمار بالسلالة التى تعيش عليهم. وقد عانى ولز نكسة خطيرة أخيرة فى عام ١٨٩٨ بعد أن أنجز رومانسياته المبكرة ، فانتقل إلى الساحل الجنوبى وكلف المهندس المعماري تشارلز فويساي Charles Voysey أن يبنى له بيتاً على الجرف الصخري فى ساندغيت Sandgate وأن يكون مصمماً بحيث يسمح بحركة كرسى المقعدين الذى كان يتوقع أن يظل معتمداً عليه. ولكن سرعان ما أصبح ذلك غير ذى معنى لصاحبه المفرط النشاط والذي لا يلبث أن تعود إليه عافيته.

كما أن تماهيه مع الألوى المسلول أصبح بلاأساس ، فإن حساباته لبرودة الكواكب كما جاءت فى « الآلة الزمن » و « حرب الكواكب » فقدت ما كان لها من اعتبار فى الرأى العلمى المعاصر . وفى « شرح الراديوم » (١٩٠٨) Interpreta- tiM;LHon of Radium - وهو الكتاب الذى دفع ولز إلى تصور إمكانية الحرب الذرية - كتب فردريك صُدَي Frederick Soddy يقول : « إن نظرتنا إلى الكون المادى قد تغيرت بصورة نهائية ، فلم نعد سكان كوكب آيلٍ إلى الفناء بصورة تدريجية بسبب استهلاك طاقته الطبيعية ، وإنما كون يوجد فى الطاقة الداخلية لمكوناته المادية الوسيلة لتجديد نفسها على الدوام فى فترات ممتدة من الزمن » ٢٥ .

وقبيل الحرب العالمية الأولى تحول ولز من متشائم بالتناقص الحرارى إلى موقف أقرب إلى تفاؤل صُدَي بالحرارة النووية عقب اكتشافه للطاقة الداخلية والقدرة على التجدد الذاتى فى جسمه ، فتضاعف بعده عن نظرة مؤلف « آلة الزمن » .

٥

مهما تكن رحلة « المسافر فى الزمن » مضادة للطوبائية بالنتيجة ، فإنها تؤكد أن نوعاً من اليوطوبيا قد تم التوصل إليه فى « العصور الأقرب » ، عندما أمكن - مثلاً - استئصال المرض ، وإبطاء عمليات الفساد الطبيعى إن لم يتم إيقافها ، والسيطرة على تزايد السكان . لقد تم إخضاع الطبيعة - إلى حين (الفصل الرابع) . ثم ظهرت الحضارة ذات الآثار العظيمة والتى ما زالت مبانيتها ومناظرها تلقى ظلالها على عصر الألويين والمورلوكيين . وقد كُتب على المسافر أن يصور معالم الانحطاط الحتمى فى الظاهر الذى حل بالجنس البشرى بعد أن بلغ ذروته ، أو ما سماه الراوى «سن الرشيد للجنس البشرى» (الخاتمة) . وإذا تتبعنا فرض ولز الجبرى بحتمية وجود منحنى نازل للمصائر الانسانية فإنه يكون شخصية رمزية تباشر السعى المكثف نحو الرومانس العلمى أو الرحلة نحو «الرجل الأخير» أو ما بعده ٢٦ .

إن «المسافر فى الزمن» هو صورة أخرى لأبطال الميلودراما القوطية والرومنطيقية فى القرن التاسع عشر، فهو يصل إلى المستقبل وسط عاصفة رعدية ، ولكنه عندما يكتشف أن المورلوكيين قد نقلوا آلهة يتحول جذله إلى هياج يائس . وهذا التهيج العاطفى العنيف يعيد إلى الذاكرة فرانكنشتاين الذى يشكل أنموذجاً أدبياً اعترف به ولز^{٢٧} . وقد جعلت ماري شلى العنوان الفرعى لقصتها «بروميثيوس الحديث» The Modern Prometheus إشارة إلى دور بروميثيوس الأسطورى بأنه خالق البشر*، غير أن « المسافر فى الزمن» أولى بالانتساب إلى بروميثيوس . واسم بروميثيوس يعنى «التبصّر»^{٢٨} foresight . وبما أن بروميثيوس كان أحد الجبابرة Titans فإن «المسافر فى الزمن» يعرف بأنه من جنس «العمالقة» الذين سبقوا الألويين والمورلوكيين وبنوا القصور العظيمة . والألويون يدركون صفته شبه السماوية عندما يسألونه حال وصوله إذا كان قادماً من الشمس (ص ٣٩) . وهو يحمل معه علبة من عيدان الثقاب ، وعندما نفدت سرقة علبة أخرى من قصر الخزف الأخضر . وقد سرق بروميثيوس النار من زيوس ونزل بها إلى الأرض فى سويق الشمرة هدية تنم عن صداقته للبشرية المعذبة . ولكن لا الألويون أكلة الثمار ولا المورلوكيون شبه العميان لائقان لتلقى هدية النار . لقد انحدرت بشرية المستقبل إلى حد أن أعواد الثقاب التى يحملها المسافر لا تستعمل إلا لعباً لا غاية وراعاها أو للدفاع عن النفس ضد المورلوكيين . وفى النهاية يسبب لعبه بالنار دماراً عبثياً بما فى ذلك ، على ما يبدو ، موت وينا Weena التى كانت الصديق الوحيد الذى استطاع أن يتألفه فى العالم الجديد .

وإذا تتبعنا منطق الخيال فيما يتعلق بتماهى «المسافر فى الزمن» مع بروميثيوس استطعنا أن نتوصل إلى حل ممكن للغز اختفائه فى رحلته الثانية . هل من الممكن أن يكون عوقب على جراته بإقدامه على اكتشاف المستقبل متحدياً بذلك الآلهة فقضى عليه أن يظل موثقاً بآلهة ، محكوماً عليه بالسفر الأبدى فى

(*) فى بعض الأساطير أن بروميثيوس صنع الانسان من الصلصال ودله على بعض أسباب الحضارة التى تسهل عيشه ثم سرق له النار إمعاناً فى التسهيل عليه ، فأتار ذلك غضب زيوس الذى أمر بشده معلقاً إلى صخرة فى جبال القفقاس ينقر النسر كبده كل يوم إلى أن قتل هرقليل النسر وقطع وثاق بروميثيوس . (المترجم)

الزمن مثلما أوثق بروميثيوس بصخرة وحكم عليه أن يظل في العذاب الأبدى؟ كل ما نعرفه أن سؤال الراوى «هل يعود أبدا؟» يجب أن يجاب عنه بالنفى . لقد كانت حياة العذاب أيضاً قدر شخصية أخرى مشهورة في الأساطير اليونانية ، ومعه أيضاً يجب أن يتماهى : أعنى أوديب الذى حل لغز أبى الهول الذى كان عن حياة الانسان . وما يخشاه «المسافر في الزمن» عندما ينظر في عيني أبى الهول المطفأتين هو موت بنى الانسان وألا يستطيع البقاء في عالم ما بعد الانسان : «إننى قد أبدو حيواناً متوحشاً من العالم القديم . . . مخلوقاً شريراً يذبح دون تردد» (الفصل الثالث) . ولكنه لا يحجم عن متابعة المهمة التى أخذها على عاتقه ، وهى اجتياز وادى ظلال الموت وإبلاغ أهل زمانه «بشكل الأشياء الآتية» . وهكذا تبدى لى الأمر ، وها أنا أقدمه إليكم على حاله» (الفصل العاشر) .

هوامش الفصل الثالث

- 1- Robert M. Philmus, 'The Logic of "Prophecy" in The Time Machine' in Bernard Bergonzi, ed., H. G. Wells: A Collection of Critical Essays (Englewood Cliffs, N. J.: Prentice-Hall, 1976, pp. 67-68
- 2- See, for example, The Time Machine, ٣ and 4; 'How I Died', p. 182.
- 3- See Norman and Jeanne Mackensie, The Time Traveller: The Life of H. G. Wells (London: Weidenfeld & Nicolson, 1973), especially pp. 24, 121 - 24
- 4- Israel Zangwill, 'Without Prejudice', reprinted in Patrick Parrinder, ed., H. G. Wells: The Critical Heritage, pp. 40 - 42
- 5- Recent discussions of this question include those by Roslynn D. Haynes in H. G. Wells: Discoverer of the Future (London and Basingstoke: Macmillan, 1980), p. 58, and by Harry M. Geduld in The Definitive 'Time Machine': A Critical Edition of H. G. Wells's Scientific Romance, ed. Geduld (Bloomington and Indianapolis: Indiana University Press, 1987), pp. 96-97
- 6 - The Definitive 'Time Machine', p. 118.
- 7- See Ibid., p. 120, n. 6.
- 8- Geoffrey West, H. G. Wells: A Sketch for a Portrait, pp. 288-94
- 9- 'The Chronic Argonauts' and the 'National Observer Time Machine' are reprinted in The Definitive 'Time Machine', pp. 135-52 and 154-74 respectively.

- 10- The Definitive 'Time Machine', p. 145.
- 11- Henry Gee, 'What's our line?' *London Review of Books*, 16 : 2 (27 January 1994), p. 19.
- 12- Geoffrey West, *H. G. Wells: A Sketch for a Portrait*, p. 61.
- 13- See H. G. Wells, 'Preface', *The Time Machine* (New York: Random House, 1931), p. ix.
- 14- *Ibid.*, pp. ix-x.
- 15- See H. G. Wells, *The Discovery of the Future*, p. 17 n.6.
- 16- 'Fifty years per second', because the dials of the Time Machine are calibrated in days, thousands of days, millions of days, and thousands of million, and the Traveler reports that the 'thousands hand was sweeping round as fast as the seconds hands of a watch' (§ 11). If one complete revolution of the 'thousands' dial represents a million days, he is covering a million days a minute, or 46 years per second - but it would still take more than a week to traverse 30 million years. We may, of course, find the references to the dials highly implausible, especially as the time to be measured is not linear. If the dials measure terrestrial days, one must wonder how they cope with or allow for the slowing down of the terrestrial day to the point where a single solar revolution 'seemed to stretch through centuries' (§ 11)!.
 - 17- Cf. William Bellamy, *The Novels of Wells, Bennett and Galsworthy 1890-1910* (London: Routledge & Kegan Paul, 1971), p. 221.
 - 18- H. G. Wells, 'The Well at the World's End', in *H. G. Wells's Literary Criticism*, p. 112.

- 19- H. G. Wells, *A Modern Utopia* (London: Chapman & Hall, 1905), p. 7. Subsequent page references in text.
- 20- This was the nineteenth-century name for what are now four separate museums clustered together in South Kensington: the Geological Museum, the Natural History Museum, the Science Museum and the Victoria and Albert Museum. It is to this Museum (not the district of London in which it is located) to which the Time Traveller refers when he describes the Palace of Green Porcelain as a "'Latter-day South Kensington'" (§ 8).
- 21- The Time Traveller's discovery is that the fourth dimension is Time. In this he anticipates Einstein. The widespread popular view of the fourth dimension in the late nineteenth century was of an extra dimension of space, corresponding to the 'spirit world' and frequented by ghosts. See Michio Kaku, *Hyper-space: A Scientific Odyssey Through Parallel Universes, Time Warps, and The Tenth Dimension* (New York and Oxford: Oxford University Press, 1994), especially p. 84.
- 22- On two occasions his explanations make use of the contemporary anthropological concept of 'savage survivals' (§ 8).
- 23- William Morris, 'Looking Backward', *Commonweal* (22 June 1889), p. 194.
- 24- One influential expression of this view was Henry James's essay 'The Art of Fiction' (1884). See Henry James, *Selected Literary Criticism*, ed. Morris Shapira (London: Heinemann, 1963), p. 66.
- 25- Frederick Soddy, *The Interpretation of Radium: Being the Substance of Six Free Popular Experimental Lectures Delivered at the University of Glasgow*, 3rd edn. (London: Murray, 1912), p. 248.

- 26- On 'last man' fictions see Patrick Parrinder, 'From Mary Shelley to The War of the Worlds; The Thames Valley Catastrophe', in David Seed, ed., *Anticipations: Essays on Early Science Fiction and Its Precursors* (Liverpool: Liverpool University Press, 1995), pp. 58-74.
- 27- See H. G. Wells, preface to *The Scientific Romances of H. G. Wells* (1933), reprinted in *H. G. Wells's Literary Criticism*, pp. 240 -241 Subsequent page references in text.
- 28- Robert Graves, *The Greek Myths* (Harmondsworth: Penguin 1955), I, p. 148.

الفصل الرابع

إحساس بالخلع

« آلة الزمن وجزيرة الدكتور مورو »

يعود « المسافر فى الزمن » من المستقبل مضنى الجسم أشعث ملطخاً بالدم . وما أن صعد الدرج ليبدل ملابسه للعشاء حتى أخذ ضيوفه يعربون عن استغرابهم . فيتساءل محرر الجريدة : « أيرقد صاحبنا دخله المتواضع بالعمل فى وظيفتين ، أم أن له أطوار نبوخذ نصر ؟ » (الفصل الثانى) . والشق الثانى من السؤال أقرب إلى الحقيقة ، غير أن إشارته إلى سفر دانيال قد تعمى على أغلب القراء المحدثين . فهو أبعد ما يكون عن مزاجية العمل ككناس شوارع مثل بعض شخصيات دكنز* Dickens ، وإنما هو كالمملك البابلى الذى فقد عرشه واضطر إلى أكل العشب كالثيران وأن يساكن وحوش البرية (دانيال ٤ : ٣١-٣٣) . فعندما وقف المسافر وجهاً لوجه أمام أبى الهول خشى أن يرى كحيوان متوحش من العالم القديم ؛ وفيما بعد أحس بأنه منبت الصلة بجنسه « مثل حيوان غريب فى عالم مجهول » (الفصل الخامس) .

وبالمثل يلاحظ الراوى فى « حرب الكواكب » أن النوع البشرى بعد غزو المريخيين « لم يعد سيداً وإنما حيواناً بين الحيوانات » . وكان نصيبه أن « يكمن ويراقب ، أن يركض ويختبئ ؛ لقد انتهى خوف الانسان وسيادته » (الكتاب الثانى ، الفصل السادس) . هذا الاحساس « بالخلع عن العرش » (٢ - ٦) كابوس يتكرر فى أعمال ولز المبكرة . « جزيرة الدكتور مورو » و « آلة الزمن » و « حرب الكواكب » كلها توحى بأن قصة نبوخذ نصر يجب أن تقرأ على أنها أمثلة نبوية بمصير الانسان

* هذه إشارة إلى أورليك Orlick فى « الامال الكبيرة » Great Expectations . (المترجم)

إن فقدان سيطرة الانسان على الطبيعة مصدر للخوف والرعب والمفارقة في جميع الرومانسيات العلمية. والمرء أن يتساءل ما الذي كان في نظرة ولز وتجربته مما يدفعه إلى تصوير مسخ الانسان حيواناً بهذه القوة. لقد كانت بنيته الجسدية ضعيفة في السنوات ١٨٨٨ - ١٨٩٨ بسبب مرض ممضٍ، ولكن لم يكن الضعف فيها وحدها، فهو يقول في « السيرة الذاتية » : « إلى أن جاوزت الأربعين ظل الاحساس بالقصور البدني مصدراً دائماً للاكتئاب لم تستطع أية فلسفة تخفيفه »^١. وقد كانت طفولة واحد من أبطاله القصصيين على الأقل - وهو بنهام Benham في « البحث الرائع » Research Magnificent وسنتناوله بالبحث فيما بعد - يهيمن عليها الخوف من الحيوانات. وبعد أن بلغ سن الرشد أصبح مأخوذاً بالقسط الكبيرة، وقد عبر عن ذلك في علاقته مع ريبيكا وست Rebecca West، فقد سمى العشيقان بعضهما النمرة والفهد^٢. ولعل اهتمامه العلمي واختياره لمهنته هما أفضل ما يعكس شعوره المتكافئ نحو الحيوانات؛ فممارسة التشريح ومتعته لا ينفصلان عن تدريس علم الأحياء على الوجه الأمثل. وكتاب ولز « علم الأحياء » Text Book of Biology - قلما يقرأ - هو في الواقع كتاب مدرسي في التشريح. فالجزء الأول منه (الفقاريات) يتألف من أربعة أقسام مخصصة لتشريح وظائف أعضاء الأرنب والضفدع وكنب البحر. وفي مجموعة ولز بجامعة إلينوى يستطيع المرء أن يجد نسخة من الكتاب أهداها إلى كاثرين روبنز Catherine Robbins تلميذته في علم الأحياء ثم زوجته. وفي داخل النسخة تخطيطات بالريشة والحبر من بينها تخطيط لأرنب يشرح إنساناً. ولعل هذا أوجز وأدل تعبير قدمه ولز عن إحساسه « بالخلع عن العرش ».

وفي مقدمته على « الرومانسيات العلمية » عام ١٩٣٣ لم يذكر فرانكنشتاين وحسب، بل ذكر أيضاً « الحمار الذهبي » لأبوليوس Apuleius : The Golden Ass بين أسلافه في الأدب (النقد الأدبي عند هـ. ج. ولز، ص ٢٤٠). ومثل « الحمار الذهبي » الذي يحكى عن الشقاء الذي يعانيه رجل حُبس في

جسم حمار ، يجمع مفهوم ولز للخلع بين الكوميديا والمفارقة مع فهم حاضري للألم والاذلال اللذين نزلهما بال مخلوقات التي دوننا في الهرم الاجتماعي أو الطبيعي . وفي الوقت نفسه فإن الخلع عنده عملية طبيعية لا يحتاج تحقيقه إلى السحر أو خدعة . ومن هذه الناحية فإن في قصصه تعبيراً مباشراً عن الرؤية الدارونية كما لخصها توماس هكسلي مثلاً في مقالاته التي نشرت عام ١٨٦٣ في مجلد بعنوان « مكان الانسان في الطبيعة » Man's Place in Nature . ولا داعي للاسهاب في تبين دين ولز لهكسلي أستاذ في علم الأحياء في مدرسة العلوم Normal School of Science . وقد اعترف ولز بهذا الدين بصورة لبقية ، وأصبح شيئاً مطروقاً في كتب السيرة والنقد^٢ . غير أن رؤيته للخلع تطوّر وتُشوّه بعض العناصر في نظرة هكسلي وداروين بشأن النشوء والارتقاء .

٢

إن كتاب داروين « أصل الأنواع » Origin of the Species ، وهو إنجيل فكرة النشوء والارتقاء ، يُختتم بنغمة تفاؤل عالية . فالمؤلف يتحدث عن روعة النظرة الجديدة إلى الطبيعة حيث « لن ينقل أي نوع مثاله الثابت إلى أي نوع آخر في المستقبل البعيد » ، وأن « قليلاً جداً من الأنواع سوف تنقل ذريتها إلى المستقبل البعيد » . وليس لديه أية مخاوف أن لا يكون البشر ، وهم أرفع الحيوانات ، بين تلك القلة النادرة . وفي الحقيقة « يمكننا أن نتطلع بشيء من الثقة إلى مستقبل مضمون طويل المدى . . . لأن الاختيار الطبيعي لا يعمل إلا بصالح ولصالح كل كائن ، وكل مواهب الطبيعة الجسدية والعقلية ستميل إلى التوجه نحو الكمال .

وقد فقد داروين إيمانه الديني تدريجاً في السنوات التي أعقبت عام ١٨٥٩^٥ ، وفيما يبدو أصبحت النغمة الدينية المشجعة التي ختم بها كتابه متناقضة مع نفسها ، وأصبحت مخالفة لنظريته . إن نظرية الاختيار الطبيعي

٥ - سيرة تشارلز داروين (ص ١٤٩) . يصف داروين نفسه بأنه يؤمن بإله واحد ، ولكنه لم يكن مسيحياً قوياً وقت كتابته «أصل الأنواع» .

تعتمد على نظرة مalthus* التي تقول إن الحيلة صراع تنافسى على البقاء لا رحمة فيه. وقد أبان مalthus فى « مقالة حول القاعدة السكانية » Essay on Principles of Population - حسب قول داروين - أنه يولد من كل نوع أفراد أكثر مما يمكن أن يتاح لهم البقاء.^{٦٠} (والبقاء فى هذا السياق يعنى إنتاج الذرية). والتقدم الارتقائى - سواء أكان خطوة نحو الكمال أو لم يكن - يعتمد على موت الأغلبية قبل الأوان. وقد تشرب ولز مبدأ مماثلاً قبل أن يصبح طالب أحياء من كتاب ونود ريد الرائج فى التاريخ العقلانى « استشهاد الانسان » (١٨٧٢) Winwood Reade: The Martyrdom of Man^٧. فراوى « حرب الكواكب » يعلق إذ يشاهد المريخييين يموتون بفعل البكتيريا الأرضية : « إن الانسان دفع بليون حياة ليشتري حقه بالولادة على الأرض . . . فالى الناس لا يعيشون ولا يموتون عبثاً » (الكتاب الثانى، الفصل الثامن)

ولم يكن هكسلي يشارك داروين تحفظه فى مسائل الإيمان ، فاتجه فى كثير من النواحي إلى نظرة رواقية كرد فعل لغياب الجانب الأخلاقى فى « العملية الكونية » وعدم اكتراثها بكل الغايات الانسانية. ويتضح من مقالته التأملية « الارتقاء والأخلاق » Evolution and Ethics وعمله حول هيوم Hume أنه كان مستعداً للبحث فى التقاليد الفلسفية ، الشرقية منها والغربية ، عن أصل للمبادئ التى شعر أنها ناشئة بالضرورة من دراسة النشوء والارتقاء. وقد ذهب فى هذه المقالة إلى أن احتمال السيطرة على الطبيعة بالتكنولوجيا هو الذى يقف بين الانسانية الحديثة وبين أشد المواقف هدوءاً ونبذاً للعالم عند قدماء الفلاسفة الرواقيين وفلاسفة الهندوس. لقد كان على « الرجل الأخلاقى » فى السابق أن يقر بأن الكون أقوى منه ، غير أنه اكتشف الآن مصادر قوته العلمية. وقد خرج هكسلي على « اللامبالاة » الرواقية منادياً بأن على بني البشر أن يعارضوا العملية الكونية ما وسعهم ذلك.^٨

* توماس روبرت مالثوس (١٧٦٦ - ١٨٢٤) اقتصادى بريطانى ذهب فى «مقالة حول القاعدة السكانية» إلى أن السكان يتزايدون بمتوالية هندسية بينما وسائل إعالتهم تزيد بمتوالية حسابية ، ولذلك لا مجال لتجنب الفقر والشقاء.

وقد كانت سعة رؤية هكسلى مصدر إلهام لا نظير له بالنسبة لولز الشاب الذى أخذ مسابقات سنته الأولى فى علمى الأحياء والحيوان فى ١٨٨٤ - ١٨٨٥ . وقد وصف مساق هكسلى بأنه « قواعد الشكل ونقد الحقيقة » . وفى نهاية المساق « كان قد وضع الانسان بلا مرء فى الخطة العظيمة للفضاء والزمن »^٩ . غير أن هكسلى كان الفيلسوف الكلاسيكى للنشوء ، وكان تلميذه شاعره الغارق فى الرومنطيقية . ويتضح هذا بجلاء بمقارنة مقالات هكسلى المتأخرة ومقالات ولز العلمية المبكرة التى كتبها للصحف فى نفس الوقت تقريباً . فوصف هكسلى المجازى لحالة الطبيعة والعملية الكونية جزء من محاورة ميتافيزيقية ، بينما تبدو استعارات ولز الخيالية غايات فى حد ذاتها . فالحياة الانسانية فى حالة هدوء خادع فى حين أن الحياة دوامة فى تيار الكون^{١٠} . والعلم عود ثقاب أشعله الانسان فى الظلام^{١١} . وما يضيف عليه ولز المسحة الرومنطيقية فى مقالاته ورومانسياته العلمية المبكرة ، مراراً وتكراراً ، هو مسرحية الموت والفناء .

إن مركزية الموت والفناء بالنسبة لرؤى النشوء والارتقاء من الأمور الواضحة بكل جلاء فى المعالم الثقافية العظيمة التى أقيمت فى أواخر القرن التاسع عشر ، أعنى متاحف التاريخ الطبيعى . فهذه المتاحف نشأت من « خزانة الغرائب » التى نثرت فيها الأشياء على غير نظام كما وصفها وردزورث Wordsworth فى « الفاتحة » Prelude عام ١٨٠٥ : « جمع مبهرج ، تؤطره الطبيعة ، من أشياء أمحى من بينها ودّ الجوار » (٣ : ٦٥١) ؛ وهى تعكس الرغبة فى التصنيف وفرض النظام والترتيب على قائمة طويلة من الكائنات العضوية التى يمكن جمعها وعرضها للجمهور . ومع نهاية القرن أخذت هذه المتاحف تتركس لعرض منطق عملية النشوء والارتقاء بترتيب الهياكل العظمية ترتيباً مسرحياً . ومن أبرز الأمثلة قاعة الأحافير والتشريح المقارن فى « حديقة النبات » بباريس والتى أنشئت عام ١٨٩٨ (ما زالت وقت كتابة هذه السطور محتفظة على وجه التقريب بالترتيب الذى كانت عليه يوم افتتاحها) . فعندما تدخل من الباب الرئيسى ترى صفوفاً

كبيرة من العينات التشريحية تسير نحوك وكأنها تمثل الحياة في مسيرة النشوء والارتقاء وعلى رأسها شكل إنسان منحوت ، وهو التمثيل الوحيد لمخلوق بين غابات من العظام . وتاريخ متحف التاريخ الطبيعي في باريس يعود إلى سنة ١٧٩٣ . أما في العالم الناطق بالانجليزية فإن أوجه متاحف القرن التاسع عشر هي التي كانت في جامعات أكسفورد وهارفرد وييل وساوث كنزنجتن حتى فتح متحف ألفرد ووترهاوس للجمهور في إبريل (نيسان) ١٨٨١ ، أي بعد سنتين من مجيء ولز للدراسة في مدرسة العلوم الكائنة عبر الشارع .

وكثيراً ما وُصف متحف ووترهاوس للتاريخ الطبيعي بأنه كاتدرائية أو هيكل للعلم ، ولكنه في الوقت نفسه جلجثة* أو ضريح للحيوانات الميتة . فالقاعات الواسعة مملوءة بالجثث المحنطة والهيكل العظمية والمتحجرات ، وفي بعض الحالات بقوالب الجص . وكسائر متاحف التاريخ الطبيعي فإن هذا المتحف يثير عجب الزائر بعرض تشكيلة من الأنواع المنقرضة والحية في المملكة الحيوانية . وكانت الديناصورات - وهي أكثر الأشياء اجتذاباً للجمهور - من مكتشفات العصر الفكتوري ، وقد استغلها مؤسسو القصر البلوري (وغيرهم) الذين أقاموا النماذج الجصية في سايدنهايم حيث يمكن أن ترى إلى اليوم . (أخذ ولز وهو طفل ليراها ، وفي «كيس» يجعل بطله وأن بورنك يتغازلان في ظل قاعة الزواحف Labyrinthodon) . وإذا كانت هذه المشاهد تعرض تنوع التاريخ الطبيعي وواسع موارده ، فإنها تقوم بصورة خفية بدور المذكر الدائم بالموت: موت الحيوان والانسان .

وكانت المتاحف الجديدة تضم بين أبرز معروضاتها ، منذ البداية ، عظام الانسان وهياكله العظمية . ويفيد الدليل العام لمتحف ساوث كنزنجتن (نشر عام ١٨٨٦) أن بقايا الانسان معروضة في مجموعة الأحافير وبهو العظام والمجموعة الأولية في القاعة المركزية . وكانت واسطة العقد في القاعة الرئيسية عبارة عن

* مكان صلب المسيح وتسمى في الإنجيل أيضاً موضع الجمجمة . (المترجم)

حوت العنبر، بينما تضمنت الحجيرة رقم ١ فى الجانب الغربى هيكلاً عظمياً لإنسان ومعه فى نفس الخزانة قردان كبيران. وكان قبالة تلك الخزانة خزانة عرض فيها بعض الأيدى والأقدام وبضمنها يد إنسان^{١٢}. وما زال فى وسع المرء أن يرى فى متاحف أكسفورد وباريس خزائن العرض الأصلية محتوية على هياكل عظمية للإنسان والثدييات الرئيسية جنباً إلى جنب. وقد وضعت هذه المعروضات هناك لكى تكون براهين على «مكان الإنسان فى الطبيعة» وتحدره النشوء لتوصيلها إلى الأذهان بأكبر زخم. وما زالت حتى الآن تحدث إحساساً بالصدمة. وقد كانت لمتاحف التاريخ الطبيعى وظيفه أخرى إلى جانب عرض الترتيب المنتظم لعالم الطبيعة، فقد كانت مراكز للترويج لنظرية النشوء والارتقاء، كما أنها كانت المؤسسة العامة الوحيدة التى يستطيع أى فرد أن يذهب إليها لتأمل الحقائق المادية حول حياة وموت الإنسان بل والحيوان.

ولم يكن وِلز الكاتب الوحيد فى القرن التاسع عشر الذى استجاب لسحر هذه المتاحف، فنجد أن نيمو Nemo – قبطان جول فيرن* – عنده متحف خاص به على متن الغواصة نُوتلُس Nautilus، بينما ما تتضمنه رواية هيرمن ملقل «موبى دك» Herman Melville: Moby Dick من أحاديث مستفيضة حول الحوت وعلم الحيتان لا يمثل شيئاً بالقياس إلى متحف ضخّم. ويقول ملقل: «لكى تكتب كتاباً عظيماً يجب أن تختار موضوعاً عظيماً»^{١٣}. وهذا قد يفسر أيضاً سر جاذبية الحيوانات الضخمة الغريبة لمتاحف التاريخ الطبيعى بهذه القوة، فإنها تمثل بدائل لسيادة الإنسان الذى خلع عن عرشه. (كتب ملقل عام ١٨٥١ ببصيرة نافذة حول ما إذا كان الحوت مهدداً بالانقراض أم لا). وفى هذه الناحية انتقض وِلز مرة أخرى على كبرياء الإنسان. فقصر الخزف الأخضر فى «آلة الزمن» هو متحف خيالى يحتوى على ما وصله الإنسان من ثقافة وعلم وتكنولوجيا إلى جانب تاريخ الأرض بأكمله. وهو فى الوقت نفسه آخر المتاحف جميعاً، ويشير إلى فناء البشرية فى المستقبل.

* فى «٢٠٠٠ فرسخ تحت الماء» Twenty-Thousand Leagues Under the Sea.

لقد درس ولز في ساوث كنزنجتن «علم الحياة» على طاولة التشريح وتحت المجهر . وقوله إنه «وضع الانسان بلا مرء في الخطة العظيمة للفضاء والزمن» يوحى بترتيب أشكال ميتة كتلك التي في المتحف - «كون ساكن ممدد للفحص»^{١٤} . وكتب في وقت لاحق «إن الاختيار الطبيعي هو اختيار بالموت»^{١٥} . «ونصف قائمة الأحافير الطويلة مملوء بسجلات الفناء»^{١٦} . ويكفي في هذا الصدد أن نختار عناوين بعض مقالاته العلمية المبكرة التي كتبها للصحف ، ففيها الدلالة الكافية : «أمد الحياة» ، «الموت» ، «الهيكل العظمية» ، «التراجع الحيواني» ، «الانقراض» ، «التفائل البيولوجي» . والعنوان الأخير يوحى بوجهة نظر أكثر تفألاً ، غير أن الحقيقة غير ذلك . «إن الاختيار الطبيعي يمسك بنا في الحقيقة بصورة أشرس من أى وقت مضى . . . ونحن كلنا نتمنى لو أن الأمر لم يكن كذلك ، فكلنا نمقت الموت وما يفعله ، غير أنه ليس من مهمة العلم أن يرفع معنويات الناس ، بل أن يقول الحقيقة . إن أسماء النحات الذى ينحت الأشكال الجديدة للحياة هي - وستظل كذلك طالما بقى العلم البشرى على حاله في الوقت الحاضر - «الألم والموت»^{١٧} . وفي «الارتقاء البشرى - عملية مصطنعة» (١٨٩٦) - وهي مقالة قصيرة نشرت بعد ستة أشهر من نشر «جزيرة الدكتور مورو» - عرض ولز أخيراً أن يرشد قراءه إلى الخلاص من وادى الموت الذى يهيمن عليه إله كلثني Galvinistic اسمه «الاختيار الطبيعي» ، معلناً أن «الخلاص الممكن لبنى الانسان من الشقاء والاثم يكمن في التعليم»^{١٨} . وقد كانت هذه هي عقيدة ولز في أخرياتة عندما لم تعد فكرة الخلع تسيطر عليه .

٣

تصور «جزيرة الدكتور مورو» العالم وغداً . فالأوروبيون الثلاثة في قلب القصة ، وهم مورو ومونتغمري وپرندك Prendick ، كلهم تلقوا تدريباً في علم

الأحياء أو الطب ، ولكن مورو نسيج وحده فى متابعته نظريات بيولوجية والتصرف بروح علمية . فقد كان عالماً انجليزياً مرموقاً فى علم وظائف الأعضاء (الфизиولوجيا) ، غير أن صحفياً محققاً كشف تجاربه على الحيوانات الحية ، فاضطر إلى الفرار من البلاد . ونقل مختبره إلى جزيرة نائية غير مأهولة ، وأخذ معه مونتغمرى الذى كان قد تعرض للفضيحة ، بسبب زلة لم تحدد وربما كانت اللواط ، ليكون مساعداً له . ويحاول ولز فى شخص مورو أن يتطرق إلى الخلاف الدائر حول تشريح الحيوانات حية ، وهو خلاف كان قد مضى عليه فى تسعينات القرن الماضى نحو ربع قرن من الزمان . وقد تناول الموضوع كثير من الروايات السابقة بما فى ذلك رواية ولكى كولنز « القلب والعلم » (١٨٨٣) Wilkie Collins : Heart and Science .

أما پرندك فإنه يصل إلى الجزيرة بعد أن أنقذ مونتغمرى حياته ، وهو يتذكر بصورة باهتة كراسة تشرح «فضاعات مورو» . وتصرف الفسيولوجى الخبيث والسرية التى يحيط بها تجاربه تُلحقه بسهولة بالتقليد الأدبى للباحث الشيطانى المتوحد . ومع ذلك فإن نظريته ليست منبئة تماماً عن نظرة العلماء الأسوياء . وكان قبل مغادرته إنجلترا ينشر أبحاثه بانتظام فى المجالات العلمية ويشارك (بصراحة فظة) فى المناقشات العامة (الفصل السابع) . ويشعر پرندك أنه ربما كان يتعين على المجتمع العلمى أن يلتف حول الدكتور مورو وقت تعرضه للنقمة ، ويمكن أن يقرأ هذا على أنه تلميح من جانب ولز إلى تقاعس العالم الأدبى عن مؤازرة أوسكار وايلد عام ١٨٩٥^{١٩} . وشرح مورو للنظرية التى تقوم عليها تجاربه يتداخل إلى حد كبير مع إحدى مقالات ولز العلمية فى ذلك الوقت وهى «حدود المرونة الفردية» The Limits of Individual Plasticity . وعندما يقول مورو لپرندك إن «دراسة الطبيعة تجعل الانسان فى النهاية قابساً

١٩ - اعترف ولز بأن محنة أوسكار وايلد كان لها تأثيرها فى ما كتبه عن مورو وذلك فى مقدمته لطبعة أتلانتك من الرواية .

كالطبيعة» (الفصل ١٤) - وهو قول يقشعر له البدن فى سياقه القصصى - فإنه يردد ما يمكن أن يُقال عن الممارسات البيولوجية والجراحية السوية . فاستئصال عضو مصاب بالغنغرينا أو خلع الأسنان يتطلب قدراً من القسوة . والألم الذى تعانيه حيوانات الدكتور مورو كان يمكن أن يمنى به كثير من بنى الانسان فى لحظة ما من حياتهم قبل اكتشاف التخدير . وإذا تدبرنا قول ج . ب . س . هالدين J. B. S. Haldane ، وهو من أعمق فسيولوجى القرن العشرين إنسانية ، وجدنا فيه بعض الأصداء من مورو ، وذلك عندما اختتم مناقشة حول إمكانات هندسة الجينات الوراثية، مؤكداً أن «المشتغل بالعلم فى المستقبل سيتزايد وعيه بفضاعة مهمته وسيكون فخوراً بها» ٢٠ .

إن مورو لا يرى نفسه عالماً وحسب ، إنما هو «رجل دين . . . كما ينبغى لكل رجل عاقل أن يكون» (الفصل ١٤) . ودينه دين نشوء يسمح له بأن يطرح جانباً الاعتبارات الانسانية البحتة باسم السعى الروحى لازالة «سمة الحيوانية» من المخلوقات التى تخضع لتجاربه . وفى مقالة حول «دنيا الألم» The Province of Pain ذهب ولز إلى أن الألم قد يمثل طوراً محدوداً ومؤقتاً فى تطور الحياة «من الذاتى automatic إلى الروحى» ٢١ . فإذا كان مورو يلعب بفاعلية دور الإله بمحاولة تسريع عملية الارتقاء ، فإن خطته باستخدام تشريح الحيوانات الحية لرفعها إلى مستوى الانسان المتحضر هى أيضاً محاكاة ساخرة «لعبء الرجل الأبيض» فى الإمبريالية الأوروبية . وقد كانت أنجح تجاربه أنه أنتج أناسى حيوانية يستطيعون خدمة أسيادهم الأوروبيين والقيام على متطلباتهم ، ولكن لا شىء غير ذلك . (أحد هؤلاء هو ملنغ M'Ling ، يمكن أن يوثق به إلى درجة أن مونتغمرى يصطحبه فى رحلته الطويلة إلى افريقية والعودة منها) . وكالرعايا القبليين تحت الحكم الاستعمارى فإن سائر الحيوانات تقبل قوانين مورو وتعيش معاً فى قرية فى الغاب . ولكن عندما يصل پرندك تكون قد بدأت العودة إلى أصلها ، وتبدو قصة القرية لعينيه قصة انحطاط طبيعى لا قصة استصلاح خارق

للطبيعة ، وخلقاً اصطناعياً لمخلوقات جديدة . ويتراعى له بعض الوقت أنه محاط
برجال مشبوهين لا بحيوانات محسنة ، ويستقر في ذهنه (دون سبب منطقي)
أن مورو يشرح كائنات بشرية ، وأنه هو نفسه سيكون موضوع تجربة بشرية .
ومع نهاية الرواية تكون الحيوانات قد فقدت تقريباً كل أثارة من السمة
الخصارية ، بل إن مونتغمري نفسه استسلم إلى شكل من البهيمية ، كما اضطر
پرندك إلى العيش كحيوان بين الحيوانات .

إن انتكاس جمهور الحيوانات الذي يشاهده پرندك خلال بضعة أشهر
يوازى عملية انحطاط إنسان المستقبل التي اكتشفها «المسافر في الزمن» ، فهي
صورة معجّلة لعملية التطور العكسي^{٢٢} . وهذا هو السبب الذي جعل پرندك يفهم
أنه يرى أمامه «صورة مصغرة لتوازن حياة الانسان بأكملها» (الفصل ١٦) .
وهو يتحدث عن «انعدام الغاية بشكل لا يوصف في الأشياء الموجودة في
الجزيرة» (الفصل ١٦) ، وحيرته ومعاناته أشد حدة وأعنف صدقاً مما لقية
«المسافر في الزمن» . وكلتا القصتين تقدم عرضاً عملياً للحقائق المتعلقة بعملية
النشوء والارتقاء كما بينها ولز في مقالة «التراجع الحيواني» عام ١٨٩١ .
هنا يبين أن النظرة الشائعة الشديدة التفاؤل إلى الارتقاء بأنه صعود منتظم تقوم
على إهمال متعمد للجانب المظلم من الطبيعة^{٢٣} . وتورد المقالة أمثلة عديدة على
«تقطع وعدم ثبات» طبيعة الارتقاء ، مبيناً أن «التقدم السريع كثيراً ما تلاه سريع
الفناء أو التدهور» (ص ١٦٧) . ويختتم ولز مقالته بأن هيمنة الانسان غير مستقرة
وأن أنواعاً أخرى (يذكر في محل آخر سمك الرنكة والضفدع وحشرة أسد الأرق
Aphis والأرنب بأن لها من احتمالات البقاء أفضل مما للانسان)^{٢٤} قد تظهر
«لازاحة الانسان وطرحه في الظلام» : « فالحيوان المنتظر يجب . . . أن يحسب
حسابه في أية حسابات توقعية فيما يتعلق بالانسان المنتظر » (ص ١٦٨) .

يقدم ولز في كل من « آلة الزمن » و « جزيرة الدكتور مورو » نظرية التراجع الحيوانى وتجربة هذا التراجع وخلع الانسان عن عرشه . ويبدو أكل النوع الواحد بعضه فى كلا الكتابين رمزاً للتراجع . فالمورلوكيون يتغنون بالألويين ، وپرندك والناجون من رفقاءه يكادون يستسلمون لنزعة أكل لحوم البشر عندما تحطمت « الليدى قين » (وهى رمز للسيدة الطبيعة ؟) . وعلى ظهر السفينة إبيكاكوانها Ipecacuanha ينقذ مونتغمرى پرندك «بجرعة من مادة قرمزية مجمدة» طعمها كالدّم (الفصل الثانى) . ويسمعون فى خلفية السفينة «هريراً غاضباً من حيوان كبير»، وسرعان ما يصبح پرندك بعد ذلك واعياً لمساعد مونتغمرى الغريب - وكان مُلنَّغ يلبس ثياب العمال الزرقاء ، غير أن مظهره وسلوكه كانا مدموغين بصورة لا تخفى بما كان يسمى فى القرن التاسع عشر «سمة الحيوان» - مع أن پرندك لم يكن واعياً لذلك فى البداية . وحُمل بين الوعى والغيبوبة إلى متن إبيكاكوانها ، فصحا على «وجه داكن ذى عينين غريبتين قريباً من عيني» (الفصل الأول) . ولكن قوة تحديق مُلنَّغ سرعان ما أعادت إلى پرندك قدرته على التمييز كاملة .

إن مواجهة حيوان وجهاً لوجه والنظر فى عينيه معاً تجربة غير عادية بالنسبة لمعظم الناس ، أولاً بسبب الفوارق الطبيعية ، وثانياً بسبب الأفكار المترسخة فى أذهاننا والتي تمنعنا من مواجهة الحيوانات على قدم المساواة . وفى «آلة الزمن» و «جزيرة الدكتور مورو» يتصور ولز الحيوانات قادرة على الوقوف منتصبة . ويمر كل من الراويين بتجربة مثيرة للحظة قصيرة إذ يقابل الحيوان على قدم المساواة ، ونتيجة لذلك يرى كل منهما طبيعته الحيوانية منعكسة فى الآخر . وهكذا فإن أول مواجهة «للمسافر فى الزمن» مع مورلوكى كانت اتصالاً مزعجاً بالعينين ، فقد كان يحاول اكتشاف «أثر ضخّم» فى اليوم الرابع لوصوله فى المستقبل ، فوجد فجأة أنه ليس وحده :

عينان تبرقان بانعكاس الضوء من الخارج كانتا ترقباننى من الظلام .
وانتابنى خوفاً الغريزى القديم من الحيوانات البرية ، فكورت قبضتى
وأخذت أحدد النظر فى مقلتى العينين المحدثتين . لقد خفت أن أدير وجهى
(الفصل الخامس) .

فى هذا المشهد تذكرنا مشاعر الخوف والرعب المنبعثة من التحديق بمقابلة
المسافر السابقة مع أبى الهول المطفأ العينين . فالمسافر هو الذى يملكه الفرع
فى تلك المقابلة فينتزع عينيه انتزاعاً . وبعد لحظة يظهر له أول واحد من
الأولويين ، فيستعيد ثقته بسرعة، ويبدو أنهما يلتقيان على قدم المساواة :
«جاء رأساً إلى وضحك فى عيني» (الفصل الرابع) . وعند النظر إلى الوراء نجد
أن هذه النوبة من الضحك لم تكن إشارة خير ، كما أن هذا التعارف المتبادل -
كما يفهم ضمناً - كان سطحياً جداً . ولم يكن أول مورلوكى يقابله كأول ألوى ،
فقد أخذ يتفرس فيه ويحدد النظر . وهناك إحساس بعداوة فورية كما كانت
الحال تقريباً فى جميع مواجهاته للمورلوكيين ، وبسبب تفوق عدوانية المسافر
فإنه يغلب خصمه .

وتغلبت علي خوفاً إلي حد ما ، وتقدمت خطوة وتكلمت . وأنا أعترف
أن صوتى كان أجش ولا أملك التحكم فيه . ومددت يدي فلمست شيئاً
ألمس . وعلي حين فجأة استدارت العينان إلي الجانبين وتعدانى شئ
أبيض (الفصل الخامس) .

وسواء أكان المسافر مصيباً أو مخطئاً فإنه يصف الألوى إنساناً والمورلوكى
حيواناً ، والمواجهة مع حيوان برى من اللحظات النموذجية فى أعمال ولز .
فيرندك عندما نظر فى عيني ملنغ رآهما تلمعان فى الظلام «ببريق أخضر
باهت» فتذكر «الرعب المنسى الذى انتابه فى الطفولة»؛ وهو أيضاً يشعر بالرعب
الغريزى (الفصل الرابع) . وملنغ مثل المورلوكى يدير بصره بعيداً أول الأمر .
فليس أى منهما قادراً على الصمود للتحدى فى تحديق الراوى .

والفصل التاسع فى «جزيرة الدكتور مورو» * ، وهو بعنوان «الشيء الذى فى الغاب»، هو مزيد من التفصيل فى موضوع مواجهة الحيوان . فالانسان الفهد الذى يراه پرندك يشرب من الجدول يبدو لأول وهلة رجلاً يرتدى الملابس الزرقاء التى يرتديها عمال مورو ، غير أنه يمشى على أربع . ويستمد الايقاع السردى للفصل قوته من سلسلة تلاقى الأعين بين الرجل الفهد وپرندك الذى يشهد خوفه إذ يتأكد أنه مطارِد خلصة فى الظلام الآخذ فى التكاثف . ومرة أخرى لا يستطيع الانسان الفهد الصمود لتحديقه المباشر :

تقدمت خطوة أو خطوتين وأنا أحدد النظر فى عينيه .

– سألته «من أنت ؟» وحاول أن يلقى نظرتى .

– فصاح فجأة «لا !» واستدار وراح يقفز بعيداً عنى فى الهشير . ثم استدار وحدث فى مرة أخرى . كانت عيناه تلتمعان بريق حاد فى الغسق تحت الأشجار .

كان قلبى قد بلغ حنجرتى ، ولكنى شعرت أن فرصتى الوحيدة فى الخدعة . فمشيت نحوه بخطى ثابتة ، وعندها استدار مرة أخرى واختفى فى الغسق . مرة أخرى حسبتنى لحت بريق عينيه ، وكان ذلك غاية ما آل إليه الأمر (الفصل التاسع) .

إن بريق العينين إذ يجىء ويذهب يوحى بالشك المتبادل الذى سرعان ما أصبح صراعاً على السيطرة بين پرندك والانسان الفهد – وهو موضوع يمتد إلى علاقات پرندك مع كل جماعة الحيوان ، ويمكن تتبعه فى لحظات تلاقى الأعين فى الفصول اللاحقة . وهذه اللحظات من شأنها أن تكثف توترات الخوف والرعب فى القصة إلى حد كبير . وهذا مؤشر على التشعب العاطفى للموضوع عند ولز حتى أنه يعود إليه فى رواية لاحقة بعد مدة طويلة ، ويعيد كتابة المشهد مع الانسان الفهد فى «البحث الرائع» (١٩١٥) .

* تعتمد تفسيراته فى مناسبتين على المفهوم الأنثروبولوجى المعاصر حول «الباقين الهمجيين» (الفصل الرابع) .

يصاب بنهام ، بطل تلك الرواية ، بخوف من الحيوانات لا شفاء منه عندما وضعت مربيته وجهاً لوجه مع نمر سرك (المقدمة ، ٤) ، وعندما كبر أصبح مفهومه للأرستقراطية الاختيارية ينطوى على السيطرة على الخوف . وقد جاء الاختبار الحاسم فى رحلة صيد فى الهند ، ولما خاطر بالانفراد وحده فى الغابة لقى وجهاً لوجه نمراً عند نبع ماء . فقال بنهام مخاطباً الحيوان :

قال : «أنا إنسان» ، ورفع يده إذ تكلم . «سيد ، سيد . . .»

وللحظة بقى الانسان والحيوان ساكنين سكون الحجارة .

وانخلع قلبه فى صدره عندما تحرك النمر . غير أن الحيوان الكبير مرّ بجانباً ثم وقف يرقبه .

«إنسان» ، قالها بصوت لا يبين وخطا خطوة إلى الأمام .

«واو!» ، وبقفزتين كان الوحش قد أصبح شريطاً رمادياً عظيماً له فرقة وحفيف بين ظلال الأشجار (المقدمة، ص ١١) .

وفى هذه الاعادة قصد تعليمى واضح لم يكن له وجود فى مقابلة پرندك فى الغابة . ومن الممكن أن ولز كان مطلعاً على رواية هنرى جيمس القصيرة «الوحش فى الغاب» The Beast in the Jungle ، وفيها يعنى الحيوان المجازى تحدياً عقلياً ، لا جسدياً ، لقوة الإرادة الذكرية المتسلطة لدى البطل . ويثبت بنهام نفسه فى مواجهة موضوعية ، ويدلل على لياقته لحمل عبء الرجل (الأبيض) فى السيادة على الطبيعة ، بينما تظل صيحة الحيوان صوتاً معارضاً مختنقاً مثل صيحة الانسان الفهد «لا !» .

وعلامه الضعف النهائى لدى پرندك فى «جزيرة الدكتور مورو» هى أنه يلجأ إلى العنف ليخلص نفسه من تحدى الانسان الفهد (ومن بعد تحدى الضبع والخنازير) . وفى نهاية الفصل التاسع يقوم بمهاجمة الانسان الفهد بحجر فى مقلاع ، وفى موضع لاحق من الكتاب يسحب مسدساً ويقتل الحيوان المتمرد

ضارباً عرض الحائط بتعليمات مورو . ففوة الإرادة ليست كافية في حد ذاتها لپرندك مثلاً لم تكن «للمسافر في الزمن» عندما واجه المورلوكيين . وقد قدمت واقعة إطلاق النار على الانسان الفهد بصورة غامضة لأن پرندك يبررها بضرورة إنقاذ هذا المخلوق من مزيد من التعذيب في مختبر مورو . وفي الحقيقة فإن فعل قتل الرحمة هذا موضع ريبة لأنه يقع في اللحظة عندما يكون پرندك - كما يقول - ينظر إلى الحيوان «والضوء يبرق في عينيه» ويتأكد من حقيقة إنسانيته (الفصل ١٦) . ومهما يكن من أمر فإن حواره بعد الحادثة يوحي بأن القتل لم يكن من قبيل الرحمة وإنما إرضاء لشهوة القوة التي استيقظت في اللحظة الأولى التي رأى فيها ملئغ وعأوده رعب الطفولة الذي نسيه .

وإذا كان مورو أيضاً يشعر برعب غريزي قديم من الحيوانات البرية فإنه يصب عليها انتقاماً رهيباً باجبارها على التصرف وكأنها من بني الانسان . وپرندك راو متعاطف لأنه على وجه الدقة يلعب في القصة دوراً أقرب إلى أن يكون شائناً يفتقر إلى قسوة مورو أو المثالية المتشددة لدى شخص مثل بنهام . وبينما هو يكافح للسيطرة أو على الأقل للاحتفاظ بمركزه بين جماعة الحيوان ، وكفاحه يولد جانباً كبيراً من الاثارة في القصة ، فإن هذا الكفاح يخفق إلى حد كبير (وأخيراً يصل قارب يدفعه التيار بالصدفة وينقذه من الجزيرة) . ويأتي وقت الخلع لپرندك بعد موت مورو ومونتغمري ، عندما يصبح مفتقراً إلى ثبات العزيمة ليقيم من نفسه خليفة لمورو . وطالما أنه لا يستطيع حكم جماعة الحيوان بقضيب من الحديد فإنه يقنع بعلاقة تكافؤ معها ، أكلاً طعامها ومشاركاً في طقوسها ، مدة من الزمن ، ومقاسماً إياها أكواخها في الغاب . وخلال إقامته هذه الأشهر الأخيرة على الجزيرة أصبح يتفهم معاناتها كما لم يتفهمها مورو . وأخيراً ، وبعد عودته إلى إنجلترا ، نجده إنساناً مصدوماً يرى أن إخوانه من بني الانسان ليسوا أفضل من جماعة الحيوانات المعذبة .

إن برندينك ، شأنه شأن «المسافر في الزمن» عندما يواجه أبا الهول ، يتعلم كيف يرى المصير الانساني بمدلولات الحيوان . ونتيجة لتجربته يفقد إيمانه «بسلامة عقل العالم» (الفصل ١٦) . ولكنه هو أيضاً تمر به لحظة نبوءة عابرة عندما يتنبأ في نهاية القصة بأن «تدهور سكان الجزيرة سيتكرر عاجلاً مرة أخرى على نطاق أوسع» (الفصل ٢٢) . وهذه الرؤية لحتمية التدهور الانساني سرعان ما نقضت كأنها لم تكون سوى أمانة على العطب النفسي الذي تعرض له ؛ وقد ينفرج التشاؤم الذي يخيم على القصة ككل بلحظات كوميدية (مثل علاقة برندينك بالانسان الكلب) ، وبالصفاء الذي حل به أخيراً نتيجة لدراسة الفلك . ومهما يكن من أمر فإن «جزيرة الدكتور مورو» تمثل استبعاداً وإسقاطاً لأية «عملية مصطنعة» للتعليم أو حكم القانون مما قد تتطلع إليه الانسانية للخلاص من عملية التطور الطبيعي . لقد أفرزت نوبات الألم واليأس في القصة ردة فعل عدائية في الصحف وقت ظهور الطبعة الأولى ، وظل ذلك مصدر حرج للمؤلف فيما بعد زماناً طويلاً . وفي مقدمته لطبعة مجموعة رومانسياته العلمية عام ١٩٣٣ كتب يقول : «إن الكون يبرز نفسه لي ، بين فترة وأخرى ، في شكل تكشفية بشعة ، وإن كنت قلما أعترف بذلك» . ولكنه حاول أن يثبط مفعول النتيجة باعتبارها «من تجديد الشباب» (النقد الأدبي عند هـ . ج . ولز ، ص ٢٤٣) .

ومع حلول عام ١٩٣٣ كانت رؤيته لخلع الانسان قد انحسرت مع أنها لم تغب كلية أبداً . و«المستر بليتسويردني على جزيرة رامپول» - Mr. Blettswor thy on Rampole Island تعتبر من بعض النواحي كتابة «جزيرة الدكتور مورو» من جديد، ومثل هذه الثيمات يبرز في «لاعب الكروكي» . وبعد عام ١٨٩٧ ، أو حوالي ذلك التاريخ ، توقف ولز تقريباً عن كتابة المقالات العلمية للصحف ،

وهناك فقر واضح فى الأفكار العلمية البحتة فى « أول رجال على القمر » أو « طعام الآلهة » The Food of the Gods بالقياس إلى الرومانسيات المبكرة . وكلما ازداد تحوله عن مناقضة الطوبائية إلى الطوبائية راح يفضل تركيز آماله على شكل من « تغير » النوع الانسانى ليتجنب التراجع الحيوانى ويكفل البقاء .

لقد ذهب داروين فى « أصل الأنواع » إلى أبعد مما ذهب إليه مالثوس فى مبدأ الاختيار الطبيعى ، والذى قدّم له كما يلى : « بما أن الأفراد الذين يولدون من كل نوع أكثر مما يمكن لهم البقاء ؛ وبما أنه ينشأ تبعاً لذلك صراع متكرر من أجل البقاء ، فإنه يترتب على ذلك أن أى كائن ، إذا تغير بأى شكل ، مهما يكن قليلاً ، تغيراً ينفعه فى ظل ظروف الحياة المعقدة والمتغيرة أحياناً ، تكون له فرصة أفضل للبقاء ومن ثم يكون قد اختير اختياراً طبيعياً » ٢٥ . وقد أصبح التحدى للنوع البشرى ، عند ولز فيما بعد ، منصّباً على تحقيق الاختيار الذاتى - أكثر من الاختيار الطبيعى - بكبح نزوعه إلى التراجع والتدمير الذاتى . غير أن ولز ظل يعبر عن هذه المعضلة بمدلولات التاريخ الطبيعى والارتقاء . وهو يصف « الانسان البعدي » After - Man فى « السيطرة على الزمن » (١٩٤٢) The Conquest of Time كما يلى :

إننى مقتنع بأن هذا النوع الذى نطلق عليه قبل الأوان اسم «الانسان» Homo sapiens صائر حتماً إلى إفناء نفسه ما لم يشرع من الآن فى تكييف نفسه بخطي حثيثة لمواجهة الضغوط التى جلبها على نفسه . فإذا فعل ذلك فإنه سيصبح نوعاً جديداً من الحيوان الواعى لذاته . ويبدو من غير المحتمل ، وإن لم يكن من المستحيل ، أن يتوقف عن التهجين دون وازع ، وطالما فعل ذلك فإنه لن ينشطر إلى نوعين متباينين أو أكثر ، بل إنه سيتطور ككل ٢٦ .

ويؤكد ولز أن البيئة التي ينبغي أن يتكيف النوع البشرى معها هي بيئة مخلوقة ذاتياً ، وإذا أخفق فإنه لن يكون أول نوع معروف «يفنى نفسه» . وهنا يستطيع المرء أن يلمس إسهام ولز في الفكر البيئي ومدى تمسكه بلغة القرن التاسع عشر . وكلامه عن احتمال ظهور « أنواع متباينة » في سياق مزيد من التطور التقدمي يوحى بأنه ما زالت تراوده رؤى التراجع التي انعكست في رومانسياته المبكرة وبخاصة « آلة الزمن » .

وفي كتابه الأخير الجاهم « العقل وقد ضاقت به السبل » كتب عن « السيطرة على الزمن » - والمدة بينهما ثلاث سنوات - يقول « إن تلك السيطرة ، كما أقر ذلك الكتاب ، إنما يحققها " الزمن " لا الانسان » (ص ٣) . وهو في هذا الكتاب الأخير ما زال يتطلع إلى « الانسان البعدي » على أن ينتهي اعتبار التهجين مع بني الانسان شيئاً ممكناً . « فالحيوان الجديد » الذي هو أفضل تكيفاً لمواجهة القدر الذي يُصب على بني البشر « ليس على التأكيد إنساناً » : « لا منفذ للانسان إلا رأسياً إلى أعلى أو رأسياً إلى أسفل . إما أن يتكيف أو يهلك ، الآن كأي وقت آخر - ذلك هو حكم الطبيعة الذي لا تحول عنه » . ومضى يقر بأن هذه البدائل الفظة ليست مما يستساغ ، ثم إن الانسانية ، أو جزءاً منها ، لن تستسلم في هدوء لقدرها : « إننا نريد أن نشهد موت الانسان وأن يكون لنا صوت في استبداله النهائي من قبل « الرب الخالق » التالي ، حتى ولو كان أول فعل لذلك الخلف قتل الأب كأوديب » (ص ١٨-١٩) . وكما وجد ولز نفسه مرة أخرى تحت حكم طبي بالموت ، فإنه يجوز لنا أن نحكم من هذه الاقتباسات إلى أي مدى ظل يرى الكون شيئاً يذكر بالموت ، أو مسرحاً للشهادة من أجل ما زال يأمل أن يكون سبباً للتقدم .

هوامش الفصل الرابع

- 1- H. G. Wells, *Experiment in Autobiography: Discoveries and Conclusions of a Very Ordinary Brain (Since 1866)* (London: Gollancz and The Cresset Press, 1966), II, p. 582. Subsequent page references in text.
- 2- On Wells and big cats see Brian W. Aldiss, 'Wells and the Leopard Lady', in Patrick Parrinder and Christopher Rolfe, eds., *H. G. Wells Under Revision: Proceedings of the International H. G. Wells Symposium, London, July 1986* (Selinsgrove: Susquehanna University Press, and London and Toronto: Associated University Presses, 1990), pp. 27-39; also in Brian W. Aldiss, *The Detached Retina: Aspects of SF and Fantasy* (Liverpool: Liverpool University Press, 1995), pp. 116-127.
- 3 - For a partially dissenting view see Leon Stover, 'Applied Natural History: Wells vs. Huxley', in Patrick Parrinder and Christopher Rolfe, eds. *H. G. Wells Under Revision*, pp. 125-133
- 4- Charles Darwin, *The Origin of Species by Means of Natural Selection*, 6th edn., (London: Murray, 1910), pp. 402, 403.
- 5- Charles Darwin, *Autobiography*, (London: Watts, 1929), p. 149. He describes himself as a 'Theist', though no longer an orthodox Christian, at the time of writing the *Origin*.
- 6- Charles Darwin, *The Origin of Species*, Introduction, p. 3.
- 7- In his *H. G. Wells and the World State* (Freeport, N. Y. : Books for Libraries Press, 1971), p. 227, W. Warren Wagar says of Reade's book that 'no other product of the mental climate

- in which Wells grew to intellectual maturity is so unmistakably "Wellsian".
- 8- T. H. Huxley, *Evolution and Ethics and other Essays* (London: Macmillan, 1895), pp. 77, 83.
 - 9- H. G. Wells, *Experiment in Autobiography*, I, p. 201; *A Modern Utopia*, p. 376.
 - 10- H. G. Wells, 'The "Cyclic" Delusion', in *Early Writings*, ed. Robert M. Philmus and David Y. Hughes, p. 113.
 - 11- See Chapter 2, n.29 above.
 - 12- *A General Guide to the British Museum (Natural History)*, Cromwell Road, London, S. W. (London: British Museum Trustees, 1886), pp. 23-24, 34.
 - 13- Herman Melville, *Moby Dick, or The Whale*, World's Classics edn. (Oxford: Oxford University Press, 1920), p. 542.
 - 14- 'The Universe Rigid' was the title of a lost article of Wells's, rejected by the editor of the *Fortnightly Review* (Frank Harris) in 1891. See *Experiment in Autobiography*, I, pp. 214, 356.
 - 15- H. G. Wells, 'Human Evolution, An Artificial Process', in *Early Writings*, ed. Robert M. Philmus and David Y. Hughes, p. 211.
 - 16- H. G. Wells, 'On Extinction', in *ibid.* p. 170.
 - 17- H. G. Wells, 'Bio-optimist', in *ibid.*, pp. 208-209
 - 18 - H. G. Wells, 'Human Evolution, An Artificial Process', in *ibid.*, p. 219. On the chronology of this transition in Wells's thinking, see Robert M. Philmus's comments in *The Island of Doctor Moreau: A Variorum Text*, ed. Philmus (Athens and London: University of Georgia Press, 1993), pp. xvii, xxxix.

- 19- Wells acknowledged Wilde's disgrace as an influence on the writing on Moreau in his preface to the Atlantic Edition of the novel. *The Atlantic Edition of the Works of H. G. Wells* (London: Unwin, 1924), II, p. ix.
- 20- J. B. S. Haldane, *Daedalus: or Science and the Future* (London: Kegan Paul, 1924), pp. 92-93
- 21- H. G. Wells, 'The Province of Pain', in *Early Writings*, ed. Robert M. Philmus and David Y. Hughes, pp. 198-99
- 22--See Robert M. Philmus, *The Island of Doctor Moreau: A Variorum Text*, p. xxiii, and David Seed, 'Doctor Moreau and his Beast People', *Udolpho* 17 (June 1994), p. 11. Seed notes resemblances between Prendick's description of the Beast Folk and Darwin's discussions of reversion and arrested development in *The Descent of Man* (1871).
- 23- H. G. Wells, 'Zoological Retrogression', in *Early Writings*, ed. Robert M. Philmus and David Y. Hughes, p. 158. Subsequent page references in text.
- 24- H. G. Wells, 'The Rate of Change in Species', in *ibid.*, p. 131.
- 25- Charles Darwin, *The Origin of Species*, Introduction, p. 3.
- 26- H. G. Wells, *The Conquest of Time*, p. 57.

الفصل الخامس

سقوط الامبراطوريات

أعلن ولز في مقدمة « العقل وقد ضاقت به السبل » أن هناك كتاباً واحداً آخر يود أن يكتبه ، وهو دراسة في « أفول وسقوط الملكية والامبريالية التنافسية » ولكنه لم يعمر حتى ينجز مشروعه ، وربما كان هذا هو السبب في أن التاريخ العظيم الذي وضعه إيبورد غِبْن في « أفول الامبراطورية الرومانية وسقوطها » لم يولَ تأثيره على خيال ولز وفكره ما يستحقه من التقدير . لقد لوحظ أنه يتأسى في أوقات مختلفة ببعض مفكرى عصر التنوير مثل ديدرو Diderot وتوم بين Tom Paine وسوفت وقولتير ، ولكن ليس بغِبْن ، وإن كان كلاهما قد كتب تاريخاً عاماً مستفيضاً . وفي الحقيقة فإن حضور غِبْن في بعض كتابات ولز المتأخرة ، وبخاصة « موجز التاريخ » ، واضح لا مرأى فيه ، ولكنه لا يقف عند ذلك الحد . ورؤية غِبْن لأفول الامبراطورية تهى حلقة وصل بين كتابة ولز للتاريخ وقصصه العلمى المبكر .

إن القصص العلمى فى القرن العشرين يخج بموسيقى الفتح والامبراطورية . فالامبريالية الكونية ، أى استكشاف « واستنبات » عوالم الكواكب ضمن المجموعة الشمسية وما وراءها ، هى فى صميم القصص العلمى عند أيزك أزيموث Isaac Asimov وروبرت هاينلاين Robert Heinlein وأولاف ستيلدن وأرثر سى . كلارك Arthur C. Clarke وكثير غيرهم إلى امبراطورية سهيل عند دورس لسنغ Doris Lessing وحضارة الاكيومن فى العالم الهينى لأرسولا غوان Ursula Le Guin : Hainish Ekumen . وهذه الاسقاطات للمستقبل بمدلولات الفتح والهيمنة ، وبمدلولات التأسيس والامبراطورية أو « الاتصال الأول » ثم الاتحاد الكونفدرالى مع الوقت ، كلها مدينة لأفكار معينة حول كتابة التاريخ . فتاريخ المستقبل ، مهما يكن المستقبل جديداً ومختلفاً ، مؤسس بالضرورة إلى حد كبير على التاريخ الذى عرفناه من قبل . وفى قصة أزيموث « المؤسسة » Foundation نجد هارى سلدن

Hari Seldon يستخدم علم النفس التاريخي لكي يتنبأ بسقوط الامبراطورية الترانتورية . وتهدف مؤسسة سلدن إلى التقليل من آثار سقوط ترانتور ، ومن مهامها الرئيسية جمع « موسوعة المجرة » Encyclopedia Galactica ؛ وهي عمل يقتطف منه أزيموث كثيراً ؛ ومن الواضح أنه يوازي كتاب غيبن^١ . وقد وضع آخرون من كتّاب القصص العلمي ، مثل بليش Blish و أ.إي. فان فويت A. E. Van Vogt ، مسلسلاتهم حول تاريخ المستقبل ، على نموذج كتاب أرفالد شبنغلر « أفول شمس الغرب » (١٩١٨-١٩٢٢) Oswald Spengler The Decline of the West : ، كما بين رتشارد د. ملن^٢ Richard D. Mullen . وقد نوّه شبنغلر بأن كتابه تجسيد لثورة كوبرنيكية في كتابة التاريخ ، إذ يتحول مما سماه النظام البطليموسي للتاريخ التقليدي المتمركز حول أوروبا إلى وجهة نظر يفترض أنها أكثر اتصافاً بالعلمية ، وترفض أن تخص الحضارة الكلاسيكية أو الأوروبية بميزة على حضارات الشرق والشرق الأدنى وإفريقية وأمريكا قبل كولمبس^٣ . وقد استطاعت كتب تاريخ المستقبل الحديثة أن توسع المقايضة مع كوبرنكس ، فرفضت أن تخص التاريخ الأرضي بميزة على تاريخ سائر المجموعة الشمسية والمجرة والكون .

وقد تزامن « أفول شمس الغرب » مع محاولة ولز إحداث ثورة في كتابة التاريخ بكتابته « موجز التاريخ » . وقد كان لأفكار ولز عن الامبريالية ، وبخاصة في قصصه ، أثرها العميق في كل كاتب تلاه في مجال امبريالية الكواكب ، وبخاصة « حرب الكواكب » التي كانت قصة رائدة في تعريض الأرض لغزو عدواني من قبل غرباء ذوي قوة تفوق الوصف قدموا من كوكب آخر . غير أن شبنغلر وولز يختلفان اختلافاً حاداً حول طبيعة الامبريالية . فشبنغلر يرى أن بناء الامبراطوريات نذير ببداية أفول الحضارة ، لأن ديناميكيتها موجهة إلى الخارج بدلاً من توجيهها إلى الداخل ، كما أن أشكالها تأخذ في التحجر . ويصف سيسيل رودز Cecil Rhodes ، باني امبراطورية جنوب إفريقية ، بأنه « أول رجل في عصر جديد » (ص ٢٨) بدأ فيه الغرب انحداراً لا رجعة فيه نحو ما يمكن أن نسميه الآن حضارة المتحف التي يهيمن عليها التراث . أما ولز فإنه

يأخذ بوجهة نظر أكثر تقليدية ، وهى أن الامبراطوريات مظاهر إقليمية للقوة السياسية ؛ ولكنه يذهب إلى أبعد من ذلك ، لأن كل امبراطورية متصدعة هى تجسيد مصدوع لمحاولة الانسان بناء نظام يشمل الكرة الأرضية ومن ثم الكون بأسره . ويقول رائده المثالى كاثور Cavor للقمرى الأعلى Grand Lunar فى « أول رجال على القمر » « إن دولنا وامبراطورياتنا ما زالت أشد الخطط بدائية لأى نظام يسود فى يوم من الأيام » (ص ٢٥) . وقد عبر ضمناً عن فكرة الامبراطورية الكونية ، باعتبارها قمة الانجاز الانسانى ، قريباً من نهاية « حرب الكواكب » حيث يتصور الراوى صراعاً ناجحاً مع المريخين للسيطرة على كوكب الزهرة ، مما أدى إلى رؤية الحياة الانسانية « تنتشر ببطء ، من هذا المستنبت الصغير فى المجموعة الشمسية ، فى المساحات الهامدة المترامية فى فضاء النجوم » (الكتاب الثانى ، الفصل العاشر) .

٢

ما هى مصادر أفكار ولز عن الامبريالية ؟ ولد عام ١٨٦٦ ، ونشأ فى أوج التوسع الامبريالى فى القرن التاسع عشر - فى عام ١٨٧٧ ، مثلاً ، عندما كان فى الحادية عشرة ، نُصِّبَت الملكة فكتوريا إمبراطورة على الهند . ولكنه لم يناصر الامبريالية البريطانية التقليدية التى كان يمجدها كipling و . إ . هنلى ، وباستثناء « جزيرة الدكتور مورو » وبعض القصص القصيرة التى استخدم لها أجواء استعمارية استوائية ، فإن قصصه المبكرة لا توحى إلينا عادة بصورة الامبريالى قدر ما تذكرنا بما أسماه جوزف تشامبرلين Joseph Chamberlain « ابن انجلترا الصغير »^٤ Little Englander ، وذلك فى خطبة ألقاها فى عام ١٨٩٦ . فقصص مثل « الزيارة الرائعة » The Wonderful Visit و « بواليب الحظ » The Wheels of Luck و « الرجل الخفى » The Invisible Man و « حرب الكواكب » مشربة جميعها بطوبوغرافية ريف انجلترا وأوضاعه الاجتماعية . وعندما يظهر فى رواية لولز امبريالى صريح فإنه يكون على الأغلب مثل بطرِج Butteridge - رائد الطيران فى « الحرب فى الجو »

The War in the Air – نصّاباً وأهلاً للسخرية فى آن واحد . فالانجليزى الصغير – بيرت سمولويز Bert Smallways – بطل « الحرب فى الجو » هو أيضاً موضع السخرية عندما يحاول أن يحمل هموم الامبراطورية البريطانية على كتفيه . يشكو بيرت قائلاً : « كل هذه الأخطار التى تحقق بالامبراطورية تقلقنى جداً » (الكتاب الأول ، الفصل السادس) .

لقد أوضح ولز موقفه السياسى من الامبراطورية فى العهد الادوردى فى أحاديثه فى Coefficient Club* كما سجلها فى سيرته الذاتية : « قلت إن الامبراطورية البريطانية يجب أن تكون بشيراً بدولة عالمية أو لا شىء على الإطلاق » . لقد تمسك ولز بعض الوقت بايمانه بأن « الجماعة الناطقة بالانجليزية يجب أن تلعب دور القائد والوسيط من أجل إقامة كومنولث عالمى » (الكتاب الثانى ، ص ٧٦٢) . ولم تكن بريطانيا المعاصرة نموذجاً الرئيسى لفهم دور الامبراطوريات فى التاريخ بل روما القديمة . ونحن نعلم أنه لا بد أن يكون أعاد قراءة كتاب غِبْن « أفول الامبراطورية الرومانية وسقوطها » خلال الحرب العالمية الأولى عندما بدأ يكتب « موجز التاريخ » ، ولكننا لا نعرف متى قرأه أول مرة . لقد تعرّف إلى فكر التنوير أيام مراهقته عندما كان يتردد على المكتبة فى أبارك Uppark ، وهو البيت الريفى الذى كانت أمه مدبرة فيه . وكان الذى جمع هذه المكتبة مفكر حر هو السير هنرى فذرستونهوك Sir Henry Fetherstonehaugh ، ويذكر ولز فى سيرته الذاتية أنه قرأ فيها جمهورية افلاطون وسوفت وقولتير وتوم بين وسامويل جونسون . ويتبجح صفيه الخيالى جورج پوندريكو George Ponderevo فى «تونو – بنغاي» – وهذا لم يذكره فى سيرته الذاتية – أنه قرأ فى مكتبة بليدزوهر هاوس غِبْن فى اثنى عشر مجلداً مع مراجعة الأطلس من حين لآخر (الكتاب الأول ، الفصل الأول ، المقطع الخامس) .

(*) هذا نادٍ أسسته بياتريس وب من الجمعية الفابية مع زوجها سدنى وب لتجمع فيه من يحركون ويهزون المؤسسة الانجليزية، بما فى ذلك النقاد الاجتماعيون والمثاليون، لتخطيط مستقبل الامبراطورية البريطانية وصلتها بالاصلاحات الاشتراكية . والمحاورات التى أجراها أعلام مثل ولز وبيرترند رسل تثبت أن الجمعية الفابية، على عكس الانطباع السطحى، لم تكن من أعداء الأوليغاركية الانجليزية، وإنما كانت من أغلى أدواتها للسيطرة على العالم . وكان من أعضاء النادى البارزين هـ . ج . ولز وبيرترند رسل وهالدين ولورد روبرت سسيل ولورد بلفور . (المترجم)

وهو يكثر الاقتباس من كتاب غِبْنُ في « موجز التاريخ » ويشير إليه أكثر من إشارته إلى أى مؤرخ آخر عدا هيرودتس . وهو فى كتابه الذى اختتمه برجاء قيام حكومة عالمية فى ظل وحدة تشمل الكرة الأرضية يلتفت مراراً وتكراراً إلى غِبْنُ ، لأن الامبراطورية الرومانية هى النموذج لجميع المحاولات الرامية إلى إيجاد هيمنة امبريالية فيما بعد . وقد كتب عن التاريخ العالمى قائلاً : « إن عقدة المسرحية هى الكفاح الطويل عبر القرون الوسطى وإلى يومنا هذا لفكرة الامبراطورية الرومانية فى التكيف وإعادة تأسيس نفسها كشكل للتعاون الانسانى العالمى »^٥ . وشدّ ما انتكست لحظات إيقاظ الفكرة الرومانية إلى نزعة عسكرية وقيصرية أو إلى دكتاتورية أوتوقراطية على النمط الرومانى المتأخر . ومع ذلك فإنّ ولز يختلف اختلافاً واضحاً جداً عن غِبْنُ فى نظريته إلى الامبريالية الرومانية وأسباب أفولها ، وعلى رأس هذه الاختلافات أنه يعارض تأكيدات غِبْنُ المطمئنة بأن أوروبا الحديثة فى مأمن من لقاء مصير روما القديمة .

٣

يبدأ « أفول الامبراطورية الرومانية وسقوطها » بما أسماه ولز فى «موجز التاريخ» «فاتحة من الاشرار والسكينة» ، «استعراض مشرق» لعهد الأنطونين* (ص ٢٦٠) . ويعتبر هذه النظرة من الازدهار الرومانى فى ذروته سهام من سخرية غِبْنُ ، غير أن سخرية غِبْنُ لم تك نقّادة بالقدر الكافى عند ولز فى «الموجز» ، لأنه كان يرى فى القرن الثانى بعد الميلاد «عالمًا من المهبين على مثال أهل القرن الثامن عشر» لا «بلوتوقراطية فضة» (ص ٤٤٧) . وحسب رأى ولز فإن جماهير البشر فى الامبراطورية الرومانية كان محكوماً عليها بالشقاء المرير ، إذ كانت حياتهم تفتقر إلى الحرية والتنوّع «إلى درجة يعجز العقل الحديث عن تصورها» (ص ٢٦٣) . ولذلك لم يكن فى طوق الامبراطورية الرومانية أن تنتزع الاخلاص العقائدى من رعاياها . ولم يكن سبب انهيارها تعرضها لموجات

(*) اللذان يسميهما الكاتب الأنطونين هما: أنطونيوس بيوس امبراطور روما من ١٢٨-١٦١ م ، وماركوس

أوريليوس أنطونيوس وهو ابن بالتبنى لأنطونيوس بيوس وزوج ابنته وخلفه على الامبراطورية (١٦١-١٨٠ م) .

وهو الفيلسوف الرواقى صاحب «التأملات» . (الترجم)

متلاحقة من الهجمات البربرية ، وإنما انهارت لعدم وجود شعب مثقف يتلاحم فيما بينه بأفكار سياسية مشتركة . وقد علق غِبْنُ في «ملاحظاته العامة حول سقوط الامبراطورية الرومانية فى الغرب» بقوله إن أوروبا لم تعد فى هذا الوقت معرضة للغارات البربرية بفضل التقنية الحربية الحديثة : «المدافع والتحصينات تشكل الآن حاجزاً منيعاً بون خيل التتر . فأوروبا الآن فى مأمن من اقتحام البرابرة لأنهم قبل أن يستطيعوا الغلبة يجب أن يكونوا تخلّوا عن بربريتهم»^٦ . وبما أنه ليس ثمة خطر من عودة أقوام متحضرة إلى حالتها الأولى فإن ثراء وسعادة البشرية ، وأوروبا فى مقدمتها ، شىء مكفول .

ومع أن ولز كان يشارك غِبْنُ تطلعاته ، فإنه كان يجد هذا التوجه قصير النظر . فغِبْنُ ومعاصروه من مفكرى التنوير ظلوا فى غفلة مريحة عن قوى الانحلال السياسى والاجتماعى التى كانت تفعل فعلها فى أيامهم . ومع قيام الثورة الصناعية لم تعد «البربرية الجديدة» موجودة على حدود أوروبا وإنما «على خطى يسيرة» من المنازل المريحة التى يقيم فيها قراء غِبْنُ المهذبون المثقفون^٧ . والقول بأن الامبراطورية الرومانية انهارت بفعل التناقضات فى داخلها لم يكن ، بطبيعة الحال ، أصيلاً بالنسبة لولز ، وربما كان ثقفه من عدد من المصادر فى الحركة الاشتراكية ، بما فى ذلك كتاب لا شك أنه قرأه فى أيارك أيام مراهقته ، وهو «التقدم والفقير» (١٨٨٠) Progress and Poverty لمؤلف أمريكى اشتراكى كان قائماً بحملة تتعلق بضرية الأرض ، اسمه هنرى جورج^٨ Henry George . يبدأ جورج ببحث اقتصادى صرف ثم ينتهى ببحث تأملى حدسى حول « قانون التقدم الانسانى » The Law of Human Progress وهو موضوع لا بد أنه كان ذا جاذبية قوية لولز . وهنا نجده يعزو انهيار الحضارات العظمى فى الماضى إلى عدم مساواتها فى توزيع السلطة والثروة . وهو يكرر مراراً الإشارة إلى سقوط روما باعتبارها المثل الرهيب للمصير الذى قد تفاجأ به أمريكا اللإشتراكية . ويحاور جورج ، بعبارات نجد صداها عند ولز فيما بعد ، أن البربرية التى غلبت روما لم تجئ من خارجها بل كانت معششة فيها^٩ . وكذلك مستقبل القرن التاسع عشر فإنه محفوف بالخطر . وينتقد جورج غِبْنُ على

ركونه إلى الاطمئنان بأن الحضارة الحديثة لا يمكن تدميرها أبداً . وعلى حدّ قول جورج فإن « العالم المتحضر يرتعش وهو يقف على شفا حركة كبرى : فإما أن تكون قفزة إلى أعلى - وهذا يفتح الطريق إلى مجالات تقدم لم يحلم بها من قبل - أو هويّاً إلى أسفل، وذلك يرجعنا إلى البربرية » (ص ٣٨٥) .

ومثل هذه الأفكار لا تقتصر عليها كتابات ولز المتأخرة في التاريخ والنقد الاجتماعي ، وإنما نجدها أيضاً في قصصه العلمي المبكر كما رأينا من قبل . وعندما قابل الرئيس ثيودور روزفلت عام ١٩٠٦ عنّفه الرئيس على تنبؤاته الخيالي بالمستقبل كما عبر عنه في « آلة الزمن » ، ورفض أن يصدق تنبؤ ولز بقسمة الجنس البشري إلى عمال تحتيين منحطين من جهة ، وإلى مالكين منحلين لا حول لهم من جهة أخرى^{١٠} . لقد كان فردانياً عن اقتناع ، ولكننا نستطيع الافتراض أنه كانت له معرفة بالفكر الاشتراكي الأمريكي^{١١} . ونستطيع من هذه الحادثة أن نلمح مدى تأثير « آلة الزمن » بهنري جورج ووجهة نظره القائلة بأن « الاحتكار الطبيعي الذي يمنحه تملك الأرض » هو السبب الرئيسي لعدم المساواة (التقدم والفقر ، ص ٣٦٦) . وقد بين جورج كيف أن هذا الاحتكار أدّى مع الزمن إلى الفساد الاجتماعي وأخيراً إلى الانهيار . وهنا تستبق كلماته بكل وضوح مجتمع الألويين والمورلوكيين في « آلة الزمن » :

إن الأرض مقبرة للامبراطوريات كما هي مقبرة للبشر . فكل حضارة كانت في زمانها قوية متقدمة كحضارتنا اليوم إلا أنها بدلاً من التقدم الصالح للبشر من أجل مزيد من التقدم آلت إلي الوقوف من تلقاء ذاتها . ومرة بعد أخرى أفل نجم الفن ، وهوى العلم ، واضمحلت القوة ، وتضاءل عدد السكان ، حتي أن الناس الذين بنوا المعابد العظيمة والمدن المنيعه ، وفلحوا الأرض كما تفلح البساتين ، وجلبوا إلي دقات الحياة غاية الرقة والدمائة ، لم يبق منهم إلا حفنة من البرابرة الكريهين ، الذين فقدوا حتي ذكرى ما صنع أجدادهم ، ويعتبرون الشذرات الباقية من عظمتهم صنعة جنّ ، أو من صنع العمالقة قبل الطوفان (٣٤٣) .

هذه القطعة ليست وحسب وصفاً دقيقاً جداً لعالم الألويين الذين صورهم ولز فيما بعد يعيشون في جورعوى بين القصور والمعابد الخربة كجنس سلب الطاقة وبعد النظر والذاكرة الثقافية ، ولكن عندما يواصل جورج القول بأن هذه الحضارة التى أصابها الفساد يحل محلها دائماً «جنس جديد من مستوى أدنى» (ص ٣٤٣) تتبادر إلى أذهاننا صورة المورلوكيين خارجين من أنفاقهم تحت الأرض .

٤

ليس من قبيل الصدفة أن ولز ، عندما قام بأول رحلة إلى الخارج يممّ رأساً إلى خرائب روما . فقد غادر هو وجين منزلهما فى صرى Surrey فى ٧ مارس (آذار) ١٨٩٧ ، ووصلا روما بالقطار فى مساء اليوم التالى . وفى الصباح قاما ، يرافقهما صديقهما جورج غسنغ George Gissing ، بأولى نزاهاتهما فى المدينة حيث أقاما خمسة أسابيع . وكانا يترددان كثيراً على الساحة العامة Forum (علق غسنغ بأنها للأسف محاطة بدرايزين حديدى) ^{١٢} وعلى تل البلاتين Palatine Hill* والآثار الأخرى الباقية من المدينة القديمة. ^{١٣} وكان غسنغ رفيقهما الدائم ، وكثيراً ما تحدث عن خططه لكتابة فيرانلدا Veranelda وهى رومانسية تاريخية تدور حول روما فى القرن السادس، وكان مشغولاً بأبحاثه المتعلقة بها . غير أن « فيرانلدا » لم تسر بيسر ، ثم نشرت الرواية غير كاملة عام ١٩٠٤ بعد وفاة غسنغ . وكان ولز قد كلف بكتابة مقدمة لها ، غير أن القائمين على تركة غسنغ رفضوا تلك المقدمة فنشرت على حدة ^{١٤} . وقليل من المعجبين بغسنغ كان لديهم ما يثنون به على « فيرانلدا » . ومن السمات البارزة فى مقدمة ولز أن القسم الذى لقى أبلغ تنويه منه هو القسم الذى لم يمتد بمؤلف الرواية العمر ليكتبه . وقد أشار ولز إلى « فيرانلدا » فى رسالة إلى غسنغ فى

١٢ - فى رسالة غير مؤرخة من ولز إلى هارى من فندق أليبرت .

(*) أحد التلال السبعة التى بنيت عليها روما القديمة .

١٣ - ذكرت جين فى مذكراتها لعام ١٨٩٨ أنهم ذهبوا ثلاث مرات إلى الكولوسيوم Colosseum ومرتين إلى الفورم وتل البلاتين .

يناير (كانون الثانى) بقوله «تلك القصة عن الغروب ومجىء الرجال الهمجيين مرة أخرى»^{١٥} . وكلامه عن الخاتمة التى لم تكتب تشيع فيها نفس الروح :

إن الخيوط الرئيسية واضحة إلى نهايتها . وفى لحظة تكاد تسمع ضوضاء القوط الغزاة المرعيين بسبب الجزرة التى قاموا بها فى تيبور Tibur ، وتجرفنا موجة الهلع إلى النهاية بعد أن خلفت روما للكلاب والهوام . وفى النهاية كان صباح وخيم صمت تضيئه الشمس على الساحة الرئيسية ، وعلى تل البلاتاين الذى لم يكن قد خرب بعد ، وعلى باسيليكا قسطنطين التى لم تكن قد هدمت بعد . وللحظة فقط ، لحظة رهيبة فى تاريخ روما ، أخذت روما للسكون (ص ٢٧٥ - ٢٧٦) .

إن كاتب هذا الكلام ينظر إلى رومانسية غسنگ التاريخية المهدبة نوعاً ما بعينى مؤلف « حرب الكواكب » و« آلة الزمن » . غير أن القطعة تكشف أيضاً عن إحساس غبني أسقطه ولز على مشهد روما القديمة . يقول غبن عن الامبراطورية الرومانية فى القرن الثانى : « إن الامبراطورية الرومانية شملت من الأرض أجمل جزء ومن البشر أعلاهم حضارة (ص ٢٧) ، فكان سقوطها أفظع مشهد فى تاريخ البشرية » (ص ٦٩٠) . ويختتم غبن تاريخه العظيم بوصف لخرائب روما خلفه اثنان من خدم يوجينيوس الرابع * Eugenius IV ؛ فقد صعد هذان الخادمان تل الكابيتول واتفقا على أن « سقوط روما كان أفظع الأحداث وأشدّها إثارة للأسى نظراً لسالف عظمتها . . . أجل طرفك فى تل البلاتاين وابحث بين القطع الغشيمة الضخمة عن المسرح والمسلات والتماثيل الكبيرة وأقبية قصر نيرون ، وأمرر بعينيك فوق التلال الأخرى فى المدينة وسترى المساحات الخالية لا يعترضها سوى الخرائب والحدائق » (ص ٦٨٥-٦٨٦) . لقد وصف ولز هذا المناظر من التماثيل الكبيرة والمسلات والخرائب والحدائق قبل أن يزور روما نفسها وقبل أن يجتمع بجورج غسنگ .

* البابا يوجينيوس الرابع (١٤٣١-١٤٤٧) نجح فى توحيد العالم المسيحى لمدة وجيزة بمرسوم التوحيد (١٤٢٩) واعترف به الاغريق والأرمن واليعاقبة والنساطرة . (المترجم)

وأخيراً يصل ليونل فيرنى Lionel Verney (الرجل الأخير عند مارى شلى) إلى مدينة النُصب ، روما ، ويكون آخر ما يفعله أن يخلف فيها معلماً له . ومن المسلم به أنه الرواية التى تحمل اسمه . أما ولز فإنه ينقل منظر انهيار الامبراطورية فى قصصه العلمى من روما إلى «لندن الميتة» فى «حرب الكواكب» ، ورتشمند فى «آلة الزمن»^{١٦} . إن كلاسيكية أركاديا فى عالم الألويين والمورلوكيين هى أوضح سمة فردية فى أبرز منظر يفترض أنه موجود بعد ثمانمائة ألف سنة فى المستقبل . فبقاء أشكال العمارة الكلاسيكية والتصاميم الزخرفية كرؤوس الغرفين Griffin و «ايحاءات الزينة الفينيقية» (الفصل الرابع) لا يمكن تفسيرها بصورة مقنعة على هذه المسافة فى الزمن . ثم إن الألويين ، وهم يلبسون «صنادل أو جزمأ نصفية . . . وأثواباً أرجوانية» (الفصل الثالث) ، ينسجمون مع المنظر الطبيعى الذى يتحركون فيه . وليس لأية درجة محتملة من الاستمرارية الثقافية أو البعث التاريخى المقصود فى وقت ما فى المستقبل ما يمكن أن يبرر هذه الحال . والنتيجة التى نستطيع استنباطها (وهى ما ألعنا إليه فى الفصل الثالث فيما تقدم) هى أنه فى «آلة الزمن» يوجد مقياسان للزمن أحدهما ملصق فوق الآخر وكل منهما متسق مع نفسه؛ ويبدى ولز قدراً كبيراً من البراعة والرهافة الذهنية فى التحول من واحد إلى آخر فى صمت .

وبما أن جميع المعالم الباقية من الأجيال السابقة فى سنة ٨٠٢٧٠١ قد وصفت بأنها فى حالة خراب وفساد ، فإننا لا نطيل التفكير فى أن الفساد فى بعض الحالات كان ينبغى أن يكون أكبر بكثير مهما يكن التحسين الذى طرأ على إطالة عمر مواد البناء وأساليب التخزين . وقصر الخزف الأخضر مثال على ذلك . «فالمسافر فى الزمن» يجد فى بعض خزائن العرض ، التى أهملت فيه منذ مدة طويلة ، علبة من عيدان الثقاب وكتلاً من الكافور فى أحسن حال . واستحالة هذا اللقى كبيرة حتى أن ولز أدرك ذلك وأراد أن يلقى إنكار القارئ فى منتصف الطريق :

فى هذا الفساد العام حدث أن بقيت هذه المادة المتطايرة ربما آلاف القرون . وقد ذكرتني بصورة بنية رأيها مرسومة بحبر صدفة

بلمنيت (Belemnite) متحجرة وكان ينبغي أن تكون تلفت وتحجرت منذ ملايين السنين (الفصل الثامن) .

وكما أن حبر البلمنيت كان ما زال صالحاً للاستعمال فإن الكافور يحترق احتراقاً يكفى لاضرام نار كِبارة تستحيل جحيماً متلهباً .

إن قصر الخزف الأخضر، وهو أوفر إتقاناً من سائر المباني التي بقيت إلى عصر الألويين والمورلوكيين ، رمز محكم للاستمرارية الانسانية التي كسرت أخيراً . وقد أحسن روبرت كروسلى وصف « هذا المعلم القديم لعصر مثقف » بأنه « تذكرة بالموت للنوع البشرى »^{١٧} . غير أن العصر الذى يدل عليه هذا المعلم بشكل جلى هو القرن التاسع عشر ، وبقاؤه يوحى بأن حضارات المستقبل التي قامت بين زماننا وسنة ٨٠٢٧٠١ لم تتطور كثيراً بعد التقنية والثقافة اللتين عرفهما « المسافر فى الزمن » من قبل . فالمتحف ظل على ما يظهر يحتل نفس المركز الرئيسى ، ويؤدى نفس الوظيفة، كما كان أيام الملكة فكتوريا (وهذا يوحى أيضاً ضمن ما يوحى به أن اختراع «المسافر فى الزمن» لآلة الزمن لم تستغله أية حضارة لاحقة) . وتصميم قصر الخزف الأخضر، بمكتبته وأبهاء التاريخ الطبيعى وعلم المعادن وعلم الأحافير وعلم الاثنوغرافيا وعلم الكيمياء الفنية والآلات الصناعية والأسلحة ، هى على وجه الدقة ما كان يتوقع زائر المتحف فى العهد الفكتورى أن يراه . فلا غرابة فى أن المسافر يصفه بأنه «ساوث كنزنگتن حديثة العهد» (الفصل الثامن) . والحالة التي بقى عليها فى المستقبل لا تختلف كثيراً عن حالة معبد قديم مهمل أو دير من القرون الوسطى نراه فى أيامنا هذه، وبخاصة أن خرائبه لم تنهب كما نهب المعبد أو الدير . ويبدو أن « المسافر فى الزمن » كان أول مخلوق خطر له أن يبحث عن أعواد الثقاب والكافور .

إذن قصر الخزف الأخضر يخص المقياس التاريخى المختصر لزمن المستقبل إلى سنة ٢٧٠١ لا إلى سنة ٨٠٢٧٠١ . ومع ذلك فإن الألويين والمورلوكيين ما كانوا ليظهروا إلا ضمن المنظور الطويل لزمن التطور . فالنظرية الوجيهة التي قدمها «المسافر فى الزمن» لظهور الألويين والمورلوكيين نتيجة للتقسيمات الطباقية الملحوظة فى مدن القرن التاسع عشر تلائم مقياس الزمن

الأقصر لا الأطول. وقد يكون الزمن (كما يقول الماركسيون) محركاً للتاريخ ، ولكن إبرازه كعامل في إحداث تغير ثابت في النوع مسألة أخرى. نستنتج من هذا أن المستوى الذى تدور فيه « آلة الزمن » كخرافة اجتماعية حول الصراع الطبقي يستهوى المنطق التاريخي لا البيولوجي.

وإذ يكتشف « المسافر فى الزمن » حقيقة حالة الألويين يخامرهم شعور عابر « على طريقة كارلايل باحتقار هذه الارستقراطية التعيسة التى تعيش فى حالة انحلال » (الفصل السابع). ويتخيل أنهم لا بد انحدروا فى البداية إلى « حالة من العبثية الجميلة ... مثل الملوك الكارولنجيين* » (الفصل السابع). ومن المسلم به أن الإشارة الأولى تلمح إلى شجب كارلايل « للأرستقراطية العاطلة ، مالكي تراب انجلترا » فى « الماضى والحاضر »^{١٨} Past and Present ، بينما تلمح الإشارة الثانية إلى غيبن^{١٩}. وإذ يزداد المسافر معرفة بالألويين والمورلوكيين فإنه يستبدل تفسيراً بيولوجياً بهذا التفسير التاريخي للصلة بين النوعين. ويضطر أن يسلم على كره منه بأن الألويين والمورلوكيين معتقلون فى علاقة تكافلية بين المفترس والفريسة ، مثل الناس والحيوانات الداجنة. وهو يقارن المورلوكيين بثلاثة أنواع من الحيوان هى القرود أو الليمور (lemur) والجردان والنمل ، ووصفه إياهم بأنهم يشبهون النمل أبعد صدق فى قصص وإز العلمى ويستعيد ثيمة سقوط الامبراطوريات.

٥

فى عام ٨٠٢٧٠١ يخوض « المسافر فى الزمن » صراعاً عنيفاً مع المورلوكيين من أجل السيطرة. وقد كتب وإز فى وقت لاحق قصة قصيرة بعنوان « امبراطورية النمل » (١٩٠٥) The Empire of Ants يصور فيها المستعمرين فى أعالي الأمازون مارين أمام جنس جديد من النمل فائق الذكاء. ويختتم الراوى القصة قائلاً بأنه لا شئ يوقف النمل « عن طرد بنى الانسان من كل

* يرجع تاريخ الأسرة الكارولنجية إلى سنة ٦١٢، وقد حكم أفراد منها فرنسا (٧٥١-٩٧١) وألمانيا (٧٥٢-٩١١) وإيطاليا (٧٧٤-٩٦١). ومن أشهر ملوكها شارلمان الذى أسس الامبراطورية الرومانية المقدسة. (المترجم)

الأرجاء الاستوائية في أمريكا الجنوبية «؛ ويتنبأ « بأنهم في سنة ١٩٢٠ سيكونون قد وصلوا إلى منتصف الأمازون ٠٠٠ وأنا أحسد سنة ١٩٥٠، أو سنة ١٩٦٠ على أبعد تقدير لاكتشاف أوروبا «^{٢٠}. فقصة « امبراطورية النمل « إسقاط مباشر لرؤية الحروب بين الأنواع التي كان ولز يشير إليها في مواطن أخرى بشكل مجازي. وجوهر علاقة القوة بين بنى الانسان والنمل هو أنها ، عند ولز، قابلة للعكس. وعندما يقارن البشرية بالنمل في مناسبات عدة فإنه كان يفعل ذلك ليصور مدى سهولة السيطرة علينا وإفنائنا من قبل نوع أعلى. وهو يصور غزو المريخيين لانجلترا في « حرب الكواكب « كتجربة للاستعمار معكوساً. فكما كان المريخيون لأوروبا يكون الأوروبيون لسكان تسمانيا الذين مُحوا من وجه الأرض بعد « حرب الإبادة التي شنّها عليهم المهاجرون الأوروبيون « (الكتاب الأول ، الفصل الأول). والفقرة الافتتاحية في الرواية تصور رضا بنى البشر عن أنفسهم « وهم ساكنون في اطمئنانهم إلى سيطرتهم على المادة » ، وهذه الحال تقارن بحال مخلوقات أصغر حتى من النمل كالبكتيريا أو الجيبويينات المجهرية (الكتاب الأول ، الفصل الأول). وعندما يبدو أن المريخيين قد ألحقوا هزيمة ساحقة بخصومهم ، يلتقى الراوى بالمدفعى الذى يعبر عن تحدّ أجوف : « هذه ليست حرباً . . . ليست أكثر من حرب بين الرجال والنمل « (الكتاب الثانى ، الفصل السابع). ولكن سرعان ما كانت امبراطورية المريخيين على الأرض هي التي تهاوت ، وقد قوّضها نفس البكتيريا التي وصفت من قبل بأنها تمثل الحياة في أحط أشكالها. وفي نهاية الرواية يتجول الراوى في شوارع لندن المهجورة والتي خربت أجزاء منها إلى أن يصل إلى خرائب الغزاة المريخيين أنفسهم.

وقد عاد ولز فيما بعد إلى ثيمة المقابلة بين الرجال والنمل في رومانسيات لاحقة مثل « الحرب في الجو » حيث تقوم المناطيد الألمانية بقصف نيويورك وتدميرها في أوائل القرن العشرين. ويقول كورت Kurt الملازم الألماني الذي تقشعت عنه غشاوة الوهم : « نحن لسنا إلا نملاً في مدن تملؤها قرى النمل . . . لم تكن نيويورك إلا قرية نمل رفسها أحرق فانتشرت « (٧-٧).

غير أن ولز وضع بين « حرب الكواكب » و« الحرب فى الجو » ما فيه ثناء مدهش على ما يُنسب إلى النمل وقرى النمل من تماسك اجتماعى وتنظيم جماعى للقوى : ذلك هو عالم السلينيين (Selenites) أو «الرجال النمل» كما سماهم (الفصل ٢٢) فى « أول رجال على القمر » . فكافور رائد ولز يتركه بدفورد على القمر، ولكنه يتدبر أمره ويرسل إلى الأرض ملاحظاته عن السلينيين فى سلسلة من الرسائل باللاسلكى . غير أن بدفورد يعترض هذه الرسائل عندما عاد إلى الأرض، وراح يعدّ المقارنة مع النمل بإسهاب كبير . ويختتم ذلك بقوله : « القمر حقاً قرية نمل هائلة ، ولكن بدلاً من وجود أربعة أنواع من النمل أو خمسة ، توجد مئات الأنواع من السلينيين مع سلسلة متدرجة بين كل نوع وآخر » (الفصل ٢٤) .

إن مستعمرة أو امبراطورية النمل عبارة عن مجتمع مؤسس على عدم التساوى الوظيفى . فالتقسيم الطبقي بين الملكات والنمل الشغال لو نقل إلى المجتمع الانسانى لهدد بقاء التنظيم الجماعى - أو إلى هذا ذهب ولز وهنرى جورج فى تحليلهما لسقوط الامبراطوريات . غير أن ولز استخدم فى خلق السلينيين المقايسة الوظيفية مع النملة ليبين كيف أن الامبراطورية المستقرة يمكن أن تقوم على أساس عدم التساوى الوظيفى طالما كانت مؤلفة من مخلوقات أجنبية مجردة من كل الأفكار الانسانية حول الحرية والكرامة . فالجزء الأعظم من السلينيين عبيد يخضعون لأكبر قدر ممكن من السيطرة الجسدية والعقلية والاستغلال . غير أن الذين اختيروا لمحادثة كافور كانوا أفراداً مميزين منحوا قدراً من حرية التفكير . ويتربع على قمة المجتمع السلينى ويشغل مركز ملكة النمل شكل غريب رهيب هو القمرى الأعظم الذى يذكر استجوابه لكافور بمقابلة غلثر ملك بروبدنغناغ Brobdingnag .

والسلينيون ليسوا مجرد نمل مجازى طالما أن حياتهم تحت السطح فى «كهوف القمر» (الفصل ٢٢) صورة محسنة جداً عن مجتمع المورلوكيين الذى

* تعتمد تفسيراته فى مناسبتين على المفهوم الأنثروبولوجى المعاصر حول « الباقيين الهمجيين » (الفصل الرابع) .

يعيش تحت الأرض . وقد أوجد السلينيون تحت السطح نوعاً فخماً من العمارة بحيث يوصل إلى جناح القمرى الأعظم من خلال سلسلة من القاعات تتصل مع بعضها بأدراج شبيهها كاقور بدرج سانتا ماريا فى أراكولى بروما (الفصل ٢٥) ، وهى كنيسة زارها ولز وجين فى ٢٧ مارس (آذار) ١٨٩٨^{٢١} . ويجد كاقور صعوبة كبيرة فى جعل القمرى الأعظم يفهم العمارة الأرضية ، وبخاصة عندما ييوح بأن الناس الأولين كانوا يعيشون فى كهوف . ويسأل القمرى الأعظم : «لماذا يبنى الآدميون بيوتاً طالما أنهم يستطيعون النزول فى الحفائر ؟» (الفصل ٢٥) . وزاد من حيرة القمرى الأعظم أن الآدميين غير متحدين وليس بينهم أرضى أعظم (Grand Earthly) . ويغتم كاقور الفرصة - دون تبصر - فيباهى بالمقاومة العنيدة التى أبدتها الشعوب الأنجلوسكسونية «للأتوقراطيين والأباطرة» (الفصل ٢٥) .

تبدأ « أول رجال على القمر » ببدفورد يحلم ببناء امبراطورية تجارية على أساس مادة الكافوريت (Cavorite) المقاومة للجاذبية . ويقول لكاقور المخترع إنه يحلم باحتكار رأسمالى واسع يسيطر فيه على كل شىء ، بحيث «نستطيع أن نجمع من الثروة ما يكفى لأن يمكننا من القيام بأية ثورة اجتماعية نريد، فنملك العالم بأكمله ويكون تحت أمرنا» (الفصل الأول) . وتنتهى الرواية بامبراطورية السلينيين المستقرة حيث من المحال أن يكون هناك فساد أو ثورة ؛ وأخيراً يبدو أن اقتحام البرابرة ، كاقور وبدفورد ، قد قُمع دون هوادة . والغموض الهجائى فى الرواية يبدو واضحاً فى كون حلم بدفورد التجارى ودولة النمل السلينية يقتربان من الحكومة العالمية -التي كان يحلم بها ولز نفسه- ومع ذلك فإن كليهما بغيض جدا ، وقد جُعل كذلك بصورة مقصودة . فعمارة مجتمع قرية النمل السلينية تحت السطح تماثل عمارة المورلوكيين فى أنها تدل على التقدم الحضارى والبربرية تحت الأرضية؛ ولكن يجدر بنا أن نذكر أن ولز تخيل إنشاء مدينة طوبائية تحت الأرض فى ملحمته السينمائية عن المستقبل التى أنتجت عام ١٩٣٠ بعنوان « الأشياء الآتية » .

هناك رومانسية أخرى لولز متأخرة قليلاً تعالج بصورة مباشرة موضوع سقوط الامبراطوريات ، وتشير إشارة لا لبس فيها إلى ملحمة غِبْن حول أفول روما وسقوطها . هذه هي «الحرب فى الجو» التى نشرت عام ١٩٠٨ فى أوج تسابق التسليح بين القوى العظمى والذى أدى إلى قيام الحرب العالمية الأولى . وتطور أحداثها فى المستقبل القريب جداً فى عالم الدراجات والبالونات والمناطيد والقطارات الأحادية الخطوط . وكان الهدف الرئيسى لولز فى ما سماه «فنتازيا الامكان»^{٢٢} ، هو الوصل بين إحياءاته بانهيـار الحضارة الحديثة وبين اقتراب قيام الحرب الجوية .

يتزعرع بطله سمولويـز فى جو امبريالى فى عالم خبيث يتلخص فى شخص بطرـج رائد الطيران الذى يصرح عن نفسه فى كل مناسبة بأنه «انجليزى امبريالى» . (لا يلبث أن ينكشف أنه على وشك أن يبيع أسرارـه الفنية إلى الألمان) . انجرف بيرت سمولويـز اتفاقاً فى بالون بطرـج ، فيطير به عبر القنال إلى ألمانيا حيث يقابل «الشخصية الرئيسية فى المسرحية العالمية» الأمير كارل ألبرت Karl Albert «حبيب الروح الامبريالية» الذى يشبّهه أتباعه بالاسكندر وقيصر الصغير (٤-١) . ولكن حملة الأمير عبر الأطلسى بأسطوله الحربى كانت أفدح من زحف نابليون على موسكو . وتشترك الأساطيل الجوية لجميع الدول العظمى فى الحريق الهائل؛ وما أن دارت المعركة بين الأمريكيين والألمان حتى أرسلت القوى الشرقية أساطيلها الجوية عبر المحيط الهادى لمهاجمة القاعدة الألمانية فى شلالات نياغارا . وفى الفصل العاشر «العالم فى حرب» والفصل الحادى عشر «الانهيار الكبير» يستنبط ولز دروس روايته الخيالية حول مصير الحضارة الحديثة ، مثلما قارن غِبْن منتصف القرن الثامن عشر بالامبراطورية الرومانية فى أوجها فى ظل الأنطونين . ثم يتوصل إلى المغزى وهو انهيار الحضارة العاجل .

وحسب رأى راوى ولز فإن من صميم طبيعة المجتمع الحديث نفسه أن ملحمة غِبْن ذات المجلدات المتعددة يمكن أن يحل محلها قصة علمية قصيرة مؤثرة. وتحت وهج حرب الجو «انتقل العالم فى خطوة واحدة من وحدة وبساطة أعرض مما كان للامبراطورية الرومانية فى أحسن أحوالها، إلى تشظٍّ اجتماعى تام مثلما كان أيام البارون اللص* فى القرون الوسطى (٩-٣)». وفى خمس سنوات قصار طرأ على العالم ومجال الحياة الانسانية تغير تراجعى يساوى فى مداه التغير ما بين عهد الأنطونين وأوروبا فى القرن التاسع (٩-٣). وقد يكون السؤال عما إذا كان فى وسع الانسانية أن تمنع وقوع الكارثة عقيماً كالسؤال عما إذا كان الرومان يستطيعون منع «الأفول البطيء والسقوط... واختلال النظام التدريجى الذى اختتم به فصل الامبراطورية الغربية» (٩-١). ولم يكن ولز فى هذه القطع الغبئية يتنبأ وحسب بانتهاء الحضارة الغربية والعودة إلى البربرية ومجىء عصر مظلم جديد، وإنما يقدم أيضاً القصص العلمى النبؤى كشكل جديد لكتابة التاريخ، يلائم زمانه مثلما كان عمل غِبْن الموسوعى بالنسبة للقرن الثامن عشر الراكن للسكينة والاطمئنان.

*البارون اللص نبيل إقطاعى كان يعيش على سلب الذين يمرون خلال مقاطعته أو حبسهم من أجل الفدية، وأصبح هذا الوصف يطلق فى أواخر القرن التاسع عشر على كل من يثرى بالاستغلال. (المترجم)

هوامش الفصل الخامس

- 1 - Isaac Asimov, *Foundation* (London: Weidenfeld & Nicolson, 1953). See especially Part II, ch. 7.
- 2- Richard D. Mullen, 'Blish, van Vogt, and the Uses of Spengler', *Riverside Quarterly* III:3 (August 1968), p. 172.
- 3- Oswald Spengler, *The Decline of the West*, trans. Charles Francis Atkinson (New York: Modern Library, 1962), pp. 13-14 .Subsequent page references in text.
- 4- Cf. Richard Brown, 'Little England: On Triviality in the Naive Comic Fictions of H. G. Wells', *Cahiers Victoriens et Edouardiens* 30 (October 1989), pp. 55-66.
- 5 - -H. G. Wells, 'History is One', in *The Atlantic of the Works of H. G. Wells*, xxvii, p. 12.
- 6- Edward Gibbon, *The Decline and Fall of the Roman Empire*, ed. Dero T. Saunders (London: Penguin, 1981), p. 628. Subsequent page references in text.
- 7- H. G. Wells, *The Outline of History*, pp. 452- 53
- 8 - On Henry George see H. G. Wells, *Experiment in Autobiography*, I, pp. 177- 79
- 9 - Henry George, *Progress and Poverty* (London: Dent, 1911), p. 369. Subsequent page references in text.
- 10- H. G. Wells, *The Future in America*, p. 349.
- 11- See H. G. Wells, *Experiment in Autobiography*, II, p. 756.
- 12- H. G. Wells, Undated letter to Harry Quilter from Hotel Albert, Rome. MS. Special Collections, Hofstra University.

- 13- According to Jane Wells's pocket diary for 1898 (MS. Wells Collection, University of Illinois) they went three times to the Colosseum and twice to the Forum and the Palatine Hill. See also Patrick Parrinder, 'The Roman Spring of George Gissing and H. G. Wells', *Gissing Newsletter* xxi:3 (July 1985), pp. 1 - 12
- 14- H. G. Wells, 'George Gissing: An Impression', reprinted in Royal A. Gettmann, ed. *George Gissing and H. G. Wells: Their Friendship and Correspondence* (London: Hart-Davis, 1961), pp. 260- 77 Subsequent page references in text.
- 15- Royal A. Gettmann, ed., *George Gissing and H. G. Wells*, p. 77.
- 16- Robert Crossley develops the parallel between *The Last Man* and *The Time Machine* in 'In the Palace of Green Porcelain: Artifacts from the Museums of Science Fiction', in Tom Shippey, ed., *Fictional Space: Essays on Contemporary Science Fiction* (Oxford: Blackwell, 1991), p. 86. See also Patrick Parrinder, 'From Mary Shelley to *The War of the Worlds*'.
- 17- Robert Crossley, 'In the Palace of Green Porcelain', p. 86.
- 18- Thomas Carlyle, *Past and Present* (London: Chapman and Hall, 1889), p. 153.
- 19- Compare Edward Gibbon's account of the 'dregs of the Carolingian race' in *The History of the Decline and Fall of the Roman Empire*, ed. J. B. Bury (London: Methuen, 1898), v, p. 292.
- 20- H. G. Wells, 'The Empire of the Ants', in *Complete Short Stories* (London: Benn, 1927), p. 108.

- 21- Jane Wells's pocket diary for 1898, MS. Wells Collection, University of Illinois.
- 22- H. G. Wells, Preface, dated 'Easton Glebe, Dunmow, 1921', to *The Sleeper Awakes and Men Like Gods* (London: Odham's, n.d.).

الفصل السادس

عوالم جديدة بعوالم قديمة(*)

المتنبىء طليقاً

كانت « الحرب فى الجو » أول رواية لولز تطوف الكرة الأرضية. فبعد طيران بيرت سمولويز فى البالون إلى ألمانيا ينقل عبر الأطلسى مخفياً فى أسطول القيصصر من مناطيد زبلن ، ويشاهد الحصار الجوى لنيويورك ومعركة شلالات نياغارا . وكان معه طول الوقت المخططات السرية لآلة بطرج الطائرة والتي حصل عليها أثناء جره إلى بالون من شاطئ دمتشيرتش Dymchurch . وفيما بعد يسلم بيرت المخططات شخصياً إلى رئيس الولايات المتحدة . وفى الوقت الذى كتبت فيه هذه الرواية كان ولز أيضاً فتى من كنت سبق له أن قابل رئيس الولايات المتحدة ، وأصبح فيما بعد نموذجاً للكاتب العالمى الحديث ذى الوعى السياسى ، وصار صحفياً وشخصية عامة على المسرح العالمى ، وأجرى محادثات رفيعة مع لينين وستالين وفرانكلن روزفلت . وقد انتخب عام ١٩٣٤ رئيساً لمنظمة الشعراء وكتاب المقالات والروائيين (PEN = Poets, Essayists, Novelists) ، وهى مؤسسة كان هو أحد مؤسسيها . وفى السنة نفسها تجمع بعض المعجبين به وشكلوا أول جمعية باسم « جمعية هـ . ج . ولز » وتجادلوا هل يغيرون اسمها إلى « المؤامرة العلنية » Open Conspiracy باسم كتاب ولز الذى نشر عام ١٩٢٨ يدعو فيه إلى قيام حركة شعبية للمطالبة بحكومة عالمية ، غير أنهم قرروا فى النهاية تسميتها كوزموپوليس^١ (Cosmopolis) .

وقد ادعى ابنه أنتونى وست Anthony West أن والده قام بين الحربين بكل ما يستطيع شخص عاش فى تلك الفترة أن يقوم به لخلق جو من الرأى فى الوسط جعل تأسيس هيئة الأمم المتحدة والمجموعة الأوروبية الاقتصادية شيئاً

★ هذا عنوان أحد كتب ولز (أنظر ثبت مؤلفاته) وهو يذكر ببناء الساحر «مصاييح جديدة بمصاييح قديمة» فى قصة علاء الدين والمصباح . (المترجم)

لا محيىص عنه^٢ . وقد رآه كثيرون آخرون متنبئاً خائباً على نطاق عالمى ، وهناك من يلقى برؤاه حول التكامل الأرضى والكونى فى مستودع الخيالات الاشتراكية الساقطة . ومع ذلك ، ورغم النكسات المتلاحقة فإن مثل ولز الأعلى الرامى إلى المواطنة العالمية قد أحرز تقدماً فى القرن العشرين ؛ وقد كتب فى الثلاثينات يقول : « أنا انجليزى ولكنى إنسان عالمى مبكر أعيش منفياً عن المجتمع الذى أتمناه »^٣ . وسنتناول فى هذا الفصل جوانب مقولته الثلاثة : أصوله الانجليزية ونظريته العالمية (الكوزموبوليتانية) وإحساسه بالنفى من العالم الجديد المتمنى .

وفى وصفه نفسه بأنه « إنسان عالمى مبكر » يستخدم ، كعادته ، مجازاً بيولوجياً وأنثربولوجياً للتعبير عن أزمة الهوية السياسية الحديثة . فالجنس البشرى ، أو الانسان العالمى ، كان يكافح للتطور والخروج من عصر البشرية المنقسمة فى دول قومية ذات سيادة . ولا مجال لاجتياز البشرية العصر الصناعى الحديث - الذى أصبح فيه النوع البشرى لأول مرة قادراً على إفناء نفسه - إلا بالتطور إلى مواطنين عالميين . وقد توصل ولز إلى مثله الأعلى ، وهو فكرة الحكومة العالمية ، فى ذروة الامبريالية الأوروبية، وكان من بعض النواحي ينادى بنوع من الامبريالية الفائقة (super-imperialism) ظل منغرزاً فى الايدولوجية الامبريالية . ومع أنه كان ناقداً للامبراطوريات التقليدية دون تحفظ فإنه كان يتطلع إلى حضارة جديدة يوحدتها ارتباطها بالعقلانية الغربية ، مع حكومة مركزية تديرها نخبة علمية وتجمع السلطة المعنوية مع القوة العسكرية .

وحدث أن الفترة ما بين ١٨٨٠ و ١٩٢٠ ، التى كتب خلالها جميع كتبه الرئيسية تقريباً ، لم تكن وحسب أيام التنافس على الفتوحات العالمية وإنما كانت فترة بعث القومية الثقافية فى انجلترا نفسها^٤ . وكان تعاطف ولز مع انجليزى تشامبرلين الصغار قليلاً أو معدوماً ، غير أن أصوله الانجليزية لم تكن موضع شك ، وقد تضمنت كتاباته المبكرة كثيراً مما يثبت صورة الحياة الانجليزية العادية فى أذهان قارئيه . ثم إن كونه انجليزياً جزء لا يتجزأ من نظريته الأوسع . ويمكن تصنيفه كاتباً «ريفيًا» (provincial) بأكثر من معنى . ولا شك فى أن

هناك ما يقال بشأن محاولاته إنشاء دين للانسانية دون كونت * Comte واشتراكية دون ماركس ، غير أن عداوته لهذين المفكرين تعكس إحساسه بأن حرصهما على المنهجية وبناء الأنظمة كان غريباً على العقل الانجليزي البرغماتي^٥ . وهو « ريفي » بحكم كونه نشأ في الجانب الأدنى من النظام الطبقي الانجليزي ، فهو ابن صاحب دكان صغير ووصيفة ، وقد قضى حياته المبكرة في المدن الصغيرة والقرى بجنوب شرق إنجلترا . فلم يكن لندنياً بالولادة أو التنشئة ؛ وبفضل الخطة التي كانت قد وضعتها الحكومة في ذلك الوقت للبعثات الدراسية للتدريب على التعليم استطاع في سن الثامنة عشرة أن ينتقل إلى الحاضرة . وقد قام فيما بعد باستعادة مشاهد بلاد طفولته بمزيج من الدفء والتهكم اللاذع في روايات مثل « الرجل الخفي » و« تاريخ المستر پولى » The History of Mr. Polly ، وذلك في وقت كان المثل الأعلى للحياة الريفية في جنوب إنجلترا - والذي نلمحه بعد قليل لدى شعراء العهد الجورجي** - أخذ يجد له شكلاً محدداً .

وما ان تخيل موضوعاً ريفياً حتى أخذ يهدمه ، وفي « الرجل الخفي » و« تاريخ المستر پولى » شاهد على ذلك . كان أبوه « قد نشأ بستانياً ولعب كركيت [كان يلعب عن كنت] ، وظل مولعاً بالعراء والهواء الطلق إلى يوم وفاته »^٦ - فأى شيء يمكن أن يكون أكثر ريفية من هذا ؟ ويبدو أن ولز ورث عدم القدرة على الاستقرار عن أبيه الذي (كما ذكر ابنه عنه في « المستقبل في أمريكا ») « ما زال لديه الصندوق الخشبي الكبير الذي عمله من أجل الهجرة به ، وكان كل شيء مرتباً لأولاد أنا وإخوتي عبر المحيط لولا أن حال دون ذلك فرصة عمل عارضة ومرض ألمّ بأمي » (ص ٢٤-٢٥) . لقد حاول جوزف ولز أن يفلت من رتابة الحياة في بلده ولكنه أخفق . وكان ابنه أوفر منه حظاً وأكثر نجاحاً . وكما قال جورج پوندريكو في « تونو - بنغاي » « إن المرء قد يصاب بخربة من قوة غير عادية تعترضه ، وقد يخلع من طبقته ويعيش على نحو غير ما يريد

* أوغست كونت (١٧٩٨-١٨٥٧) رياضي وفيلسوف فرنسي، أسس الفلسفة الوضعية ودعا إلى دين للانسانية. (المترجم).

** عصر جورج الخامس (١٩١٠ - ١٩٣٦) . المترجم .

بقية أيامه وبأشكال متلاحقة . وهكذا كان نصيبى « (١-١-١) . وقد وصل جورج أعلى مستوى فى مجتمع لندن نتيجة لنجاح عمه السهل فى تجارة الأتوية الجاهزة ، ولكنه فى نهاية الرواية يدير عينيه عن أوروبا ويتطلع إلى العالم الجديد ، مثل جوزف ولز . لقد أصبح مصمماً للقطع البحرية ، ولكن مشروعه الأثير (مدمرة) « لم يكن مقصوداً للامبراطورية أو لاستعمال أية قوة أوروبية . » ويضيف جورج : « لقد أخذت أرى نفسى من الخارج وأرى بلدى من الخارج - دون أية أوهام » (٤-٣-٤) . هذا كان يقيناً قصد ولز .

ويبدو أن العالم الجديد - مجازياً وإلى حد ما حرفياً - كان النقيض اللازم للعالم القديم المفلس فى كتابات ولز . وفى سنة ١٩١٥ كتب ثان وك بروكس Van Wyck Brooks دراسة عن ولز ، وكانت أفضل دراسة نقدية ظهرت عنه فى حياته . وقد بين بروكس أن ثمة قرابة طبيعية بين ولز وقرائه الأمريكيين ، « ففكره محروم من الميراث، منبت الصلة بالتراث، فهو يفكر ويتصرف على نحو جديد لأنه لا يوجد شئ يمنع من ذلك »^٧ . ولا شك أن حرمانه من الميراث يمكن أن يعزى إلى طفولته التى لا توحى بالاطمئنان (انقرط شمل الأسرة وهو فى الثالثة عشرة) وإلى مرضه وهو يافع ، غير أن مثل هذه التجارب شائعة جداً . والملجأ الذى كثيراً ما يطرقه المحرومون هو التماهى العدوانى الشوفينى مع أهداف جماعة معينة أو مجتمع معين من شأنها أن تؤدى إلى أبشع مظاهر القومية الحديثة . غير أن ولز تماهى بدلاً من ذلك مع الأهداف الكونية للاشتراكية والعلم . وكان من الممكن أيضاً ، باعتباره كاتباً محروماً ، أن يتجه إلى القصص المبني على السيرة الذاتية أو إلى الخيال الصرف . غير أن خياله كان أشد قلقاً من أن يستقر مطمئناً إلى وجوده فى أحضان عالم اجتماعى محدد المعالم بوضوح كما فعلت جين أوستن Jane Austen وأنتونى ترولوب Anthony Trollope . وكان فى وقت لاحق من حياته يهتبل الفرص السانحة للتجوال فى أرجاء العالم ، وكان له بيت فى فرنسا ظل محتفظاً به مدة من الزمن . وقد انعكست هذه التجارب فى الآفاق المتسعة فى رواياته المبنية على السيرة الذاتية ، غير أنها

لم تزد على أن أكسبته مزيداً من الاحساس بحاجة العالم إلى إعادة بناء وتغيير .
وظل منفيّاً عن المجتمع الذي كان يتمناه .

٢

إن سيرة ولز الذاتية ، سواء في شكلها القصصى أو غير القصصى ، تتبع الشكل التقليدى للرواية المبنية على نمو الشخصية الرئيسية (Bildungsroman) حيث يتطور البطل من أصل وضيع إلى أن يصل إلى مركز يعكس نظرة المؤلف العامة إلى الحياة . ونستطيع أن نقسم أبطال ولز إلى أولئك الذين يشاركونه وعى المؤلف الناضج لديه (كما نجده في العنوان الاحتفالى للفصل الأخير من سيرته الذاتية : « فكرة عالم مخطّط » The Idea of Planned World) وأولئك الذين لا يشاركونه ذلك الوعى . ويضم القسم الثانى الأبطال الكوميديين ونقيضى الأبطال (anti-heroes) مثل كپس وبيرت سمولويز والمستر پولى ، وهؤلاء يظلون محدودين وريفيين تغلب عليهم صفاتهم الانجليزية . فآرت كپس يتيم نشأ فى نيو رومنى New Romney بكنت ، ويجد بيته الأول فى مطبخ دكان عمه وساحته الخلفية فى الشارع الرئيسى ، وبخاصة فى الزاوية تحت منضدة الكى حيث يعمل حجارة صغيرة مستخدماً شالاً قديماً ، وقد ظل ذلك عنده « بضع سنوات المركز الذى لا يُنكر للعالم » (١-١-١) . ثم انفتحت أمامه آفاق واسعة بفضل تركة آلت إليه فى الوقت المناسب ، ولكن هذه لم تترك فيه انطباعات ثابتة ؛ وأخيراً نجد كپس الناضج مستكناً وهو سعيد فى دكان صغير فى الشارع الرئيسى ، ولكنه هذه المرة فى هايد Hythe التى لا تبعد سوى بضعة أميال عن نيو رومنى . ويبدأ ألفرد پولى أيضاً حياته مغموراً ثم يصير إلى نهاية مماثلة إلا أنه أكثر رضا فى نُزل پوتول Potwell Inn ، وهو نزل ضارب فى الريفية ، ومن غير المحتمل أنه فردوس انجليزى بمسحة من رابليه Rabelais . كذلك بيرت سمولويز يظل فى داخله صبى دكان من كنت . ويساعده رئيس الولايات المتحدة فى العودة إلى انجلترا حيث يجتمع شمله مع زوجته إدنا Edna ويستقر فى بلدته بن هل Bun Hill ، وفى أثناء ذلك تدمر الحضارة الصناعية بفعل الحرب والطاعون . وقد وصف ولز الحياة الانسانية فى « موجز التاريخ »

بأنها « سباق بين التعليم والكوارث » (ص ٦٠٨) ، وفي كيس وپولى وسمولوين لخص مهزلة حياة أشخاص غير متعلمين بعناد ، فلم يكونوا رجالاً عالميين ، وإنما انجليزيون صغار لا يستطيعون المشاركة فى ذلك السباق .

لقد أرسل كيس وپولى إلى مدارس خاصة قذرة . ويستخدم وِلز فى « تاريخ المستر پولى » صورة لا تنسى لكى يبين ما يمكن أن يفعله التعليم الامبريالى النموذجى لبطله :

أذكر أننى رأيت صورة للتربية - فى مكان ما . أظن أنها كانت للتربية ولكن من الممكن أنها كانت تمثل الامبراطورية تعلم أبناءها، ولدى انطباع قوى بأنها صورة جدارية فى مبني عام فى مانشستر أو برمنغهام أو غلاسكو، ولكن من الممكن جداً أن أكون مخطئاً فى ذلك . وكانت هذه الصورة تمثل امرأة جليلة، بوجه حكيم غير هياب، وقد انحنت فوق أطفالها وراحت توجه أنظارهم إلى الآفاق البعيدة . وكانت السماء تجلو فجراً صيفياً لؤلؤياً، وكانت الصورة كلها مزهوة بألق باهر كأنه منبعث من شباب وآمال الأطفال ذوى الجمال الناعم فى مقدمة الصورة . ويحس الناظر أنها كانت تحدثهم عن آفاق الحياة الواسعة المفتوحة أمامهم، وروعة البحار والجبال التى قد يسافرون خلالها ويرونها، وعن متع المهارة التى سيكتسبونها، وعن الاعتزاز بالجهد، وعن أنواع الاخلاص الذى سيتحلون به والنبيل الذى سيحققونه . . . كانت تذكرهم بترائهم العظيم باعتبارهم أطفالاً انجليزين، حاكمين أكثر من خمس بنى الانسان، وبالواجب الذى عليهم الالتزام به، وأن يكونوا كما يقتضيه فخر الامبراطورية هذا؛ وتذكرهم بنبيلهم الجوهري وفروسيته، وما يليق بالحكام الفرسان من اعتدال واحسان وقوة منضبطة . . .

غير أن تعليم المستر پولى لم يتبع هذه الصورة بدقة (١-٢) .

إن صورة التربية هذه تنتمى إلى الأسلوب الخطابى المستخدم فى الأمثلة السياسية فى العهد الفكتورى . وسخرية وِلز تبعده عن أن يكون ممثلاً « لفخر

الامبراطورية « مع أن القطعة تتكى كثيراً على الجاذبية الرومنطيقية في الميثولوجيا الامبريالية. وانسجاماً مع ما جرى عليه فإنه يوجه هذه المشاعر نحو المثالية العالمية. ونجد في « موجز التاريخ » رسماً إيضاحياً بريشة ج. ف. هورابن J. F. Horrabin يظهر بريتانيا وجرمانيا وماريان* « وآلهة قبليين آخرين - وهي رموز قومية يلاقى الرجال الموت من أجلها - في القرن التاسع عشر » (ص ٥٢٩). ومع ذلك فإن ولز في السيرة الذاتية يعزو يقظته الجنسية الطفولية إلى « إعجابه الساذج المباشر بالأجساد الجميلة - كما بدت - للآلهات التي كان يرسمها تفيل** Tenniel في صحيفة پنش Punch . . . والأشكال الجصية التي كانت تزين القصر البلوري » (ص ٨٠). وتقع صورة التربية في منزلة ما بين هذه الأشكال وشكل في « يوطوبيا جديدة » يمثل قطعة عملة طوبائية لا تُظهر «بريتانيا» - كما في قطعة البنس الانجليزية القديمة - وإنما تُظهر « السلام في شكل امرأة جميلة تقرأ لطفل في كتاب كبير، ومن خلفهما . . . نجوم وساعة رملية قد نزل نصف الرمل فيها » (ص ٧٢). وفي «المستر پولى» تشير التربية الامبريالية إلى الأفق عند الفجر بدلاً من القراءة لأطفالها في الغسق ، مما يوحى بتحريك الطاقات مقابل الهدوء في اليوطوبيا .

وكما أن أمثلة السلام تستبعد الذكر البالغ (الذى يرتبط عادة بالعنف) فإن صورة التربية الامبريالية لا تفسح مجالاً للذين حرّموا الميراث. وهى من تلك الناحية ليست بذات قيمة لحاجات ألفرد پولى ، وتظل حلاً لا أكثر بالنسبة لولز نفسه. فلم يكن يستطيع في طفولته أن يمدّ عينيه بصورة واقعية إلى طبقة النبلاء والفرسان*** ولا كان في وسعه المسير نحو « الامكانيات العظيمة للحياة » في خط مستقيم. وقد عبر فان وك بروكس عن ذلك كما يلي (ولا شك أنه كان متأثراً بتأملات جورج پوندريفو في «تونو - بنغاي» :

(*) هذه صور نساء ثلاث ترمز إلى بريطانيا وألمانيا وفرنسا. (المترجم)

(**) السير جون تنيل (١٨٢٠-١٩١٤) رسام الكاريكاتير الانجليزى. (المترجم)

(***) الفارس هو الحائز على لقب سير، وهو الذى يؤدى عملاً أو خدمة عامة تكسبه عرفان الملك فيمنحه هذا اللقب. (المترجم)

إن عالم إدارة الدكاكين فى انجلترا عالم مطوّق بأشكال من القهر لا حصر لها، فهو عالم يمكن للمرء أن يقول إنه مغطي بالطحالب، ولا يستطيع أن يتخلص منه إلا أن يصبح حجراً متدحرجاً*، أى فرداً هائماً غير مستقر، منعزلاً شديد التمسك بذاتيته . إنه يعنى الاجتياز من نضوج اجتماعى محصور، أو حنكة مضطربة، إلى عالم مشحون بالمغامرة والقلق، إلى حرية تحقق ذاتها على حساب الصلابة والدفء . (ص ١٤٤)

ومما له دلالة عميقة ، فى هذا الضوء ، أن ولز بدأ حياته الأدبية لا بالقصص القائمة على السيرة الذاتية (ستأتى هذه فيما بعد) وإنما بالقفز دفعة واحدة من المؤلف إلى المستغرب ، من المنطقة التى نشأ فيها إلى « عالم مشحون بالمغامرة والقلق » كالذى نجده فى قصصه القصيرة ورومانسياته العلمية .

وتحتل ثيمة الهرب مكان الصدارة فى كثير من قصصه المبكرة ، حيث يمر البطل بتجربة « الخروج من جسده » (تصل فى « تحت السكين » إلى رحلة كونية تنقله إلى نهاية المجرة) أو يُزعزع إطار التجربة بطريقة ما (كما فى « الرجل الذى استطاع صنع المعجزات » The Man Who Could Work Miracles حيث يتمكن المستر فُذرنگاي Mr. Fotheringay من إيقاف دوران الأرض) . وتنعكس جغرافية الامبريالية فى قصص مثل « فى مرصد أُو » In the Avu Observatory التى تدور حوادثها فى بورنيو ، و « الكنز فى الغاب » The Treasure in the Forest و « جزيرة الدكتور مورو » فى المحيط الهادى ، و « جزيرة ايبيورنيس » Aepyornis Island فى البحر الكاريبى، و « امبراطورية النمل » و « بلد العميان » فى أمريكا الجنوبية ، و « لؤلؤة الحب » The Pearl of Love فى الهند القديمة ، ناهيك عن « فى الهاوية » In the Abyss التى تدور أحداثها على قاع المحيط ، و « البيضة البلورية » The Crystal Egg التى تدور على المريخ . ويزعزع الأجواء الانجليزية الهادئة فى قصص أخرى أحداث غريبة تكون فى كثير من الأحيان مستغربة عجيبه بأدق المعانى . يصرخ عالم الحشرات هاپلى Hapley إذ يواجه شبح فراشة غريبة فى مختبر محكم السد فى كنت :

(*) المثل الانجليزى : « الحجر المتدحرج لا يجمع طحلباً » ومعناه أن الشخص غير المستقر لا يتحمل كبير مسئولية ولا يفيد كثير

مال .

«نوع جديد، بحق السماء ! وفى انجلترا !»^٨، بينما تدور قصة أخرى بعنوان «تفتح الأوركيدة الغريبة» The Flowering of the Strange Orchid فى أحد البيوت المحمية فى المنطقة التى نشأ فيها ولز. وفى « حالة عينى بيثينس الفريدة » The Remarkable Case of Davidson's Eyes يمر البطل بتجربة الحياة فى لندن والجزيرة المقابلة لها فى الجانب الآخر من الأرض فى وقت واحد .

وفى مقدمة ولز على « بلد العميان وقصص أخرى » ألقى نظرة إلى الوراء على التصور التلقائى المندفع لقصصه المبكرة : « رجال صغار فى قوارب صغيرة يخوضون محيطات تسطع عليها الشمس ويأتون طافين على الماء من العدم . . . وقد ينشب صراع عنيف وسط أحواض الزهور فى الضواحي ، واكتشف أننى كنت أصدق فى عوالم غامضة بعيدة يحكمها نظام منطقي حقاً ولكنه ليس بالعقلية السليمة التى نعرفها» (ص٤) . والتبادل الظاهر فى الأجواء شىء بارز جداً ، ولكن « الرجال الصغار فى القوارب الصغيرة » كانوا شيئاً نجده حيثما اتجهنا فى قصص المغامرات فى أواخر العهد الفكتورى ؛ أما الصراع العنيف فى حدائق الضواحي فكان من خصائص رومانسيات ولز العلمية . ففى « حرب الكواكب » يهبط أول فوج من المريخيين فى وكنغ Woking بصري حيث كان يعيش ولز آنئذ . وقد جاءت الفكرة الأولية للقصة من أخيه فرانك . كان ولز قد تعلم لتوه ركوب الدراجة ، « فكنت أسرح بها فى المنطقة وأعين الأماكن المناسبة للتدمير من قبل المريخيين »^٩ . وما زالت حفر الرمل فى أراضى هورسل Horserail المشاع قرب وكنغ إلى اليوم بادية للنظر يسهل على قارئ « حرب الكواكب » التعرف إليها . غير أن تحويلات الكتاب الكثيرة من قبل وسائل الاعلام كانت جميعها تهمل الجو الأصيل للرواية . ففى صيغة أورسن ولز Orson Wells لمحة سى . بى . إس الاذاعية عام ١٩٣٨ يهبط المريخيون فى نيوجرزي ، وفى نسخة جورج پال (١٩٥٣) George Pal للسينما يهاجمون كاليفورنيا الشمالية . وقد جاء فى الأخبار أن حالة من الرعب مشابهة لتى

أثارها برنامج أورسن ولز حدثت في الاكوادور عام ١٩٤٩ عندما أذيعت صيغة من « حرب الكواكب » بعد أن أكسبت مساحة محلية ، مما دفع الجماهير إلى مهاجمة دار الاذاعة في كيتو وإحراقها^{١٠} . وقد أثبتت قصة ولز أنها عامة الأثر وإن كان المحيط الذي اختاره لها محلياً جداً .

إن رومانسية ولز العلمية تجمع الخيال الجموح القلق مع الضبط الدقيق للغرض الأولى . وإلى هذا الحد فإنها تعكس مثلاً علمياً أعلى وقد تكون موازية لعملية التفسير العلمى . فعندما كان يحلم « بالتحديق فى عوالم غامضة بعيدة » فإنه كان يوجه دراساته العلمية إلى الوصف الخيالى . وقد ادعى فى سنوات لاحقة أن « الحقيقة المركزية » يوم كان طالباً لم تكن تجربته بالملاحظة العملية من خلال المجهر ، وإنما « النظرة الكاملة المنظمة » للكون التى اكتسبها من هكسلى^{١١} . وكان هذا الجوع إلى ما هو كونى متغلغلاً فى صميم فكرته عن الخيال المنضبط ، كما يتضح من المناقشات بينه وبين جوزف كونراد Joseph Conrad التى سجلها فى سيرته الذاتية . كان الرجلان ممددين على شاطئ ساندغيت ويتجادلان حول أحسن الطرق لوصف قارب رأياه على وجه الماء :

كان مما يتنافر مع إحساس كونراد المرهف أن يتقبل أن القارب يمكن أن يكون قارباً وحسب ، وإنما يريد أن ينظر إليه فيراه مرتبطاً بشيء آخر – قصة أو أطروحة . وأظن أنه لو ضغط على لكشف عن ميل إلى ربط القصة أو الأطروحة بشيء أوسع مدى ، ومن ثم أصله بفلسفتى ونظرتى إلى العالم (٢ ص ٦١٩) .

فالقارب عند ولز ليس مجرد عينة أو نموذج ، بل من المرجح أن يكون نموذجاً لتجربة اجتماعية وعلاقات اجتماعية . فقصصه العلمى وقصصه الاجتماعى يعتمدان على نوعين مختلفين من النماذج .

وأفضل مثال على بناء النماذج فى القصص العلمى عند ولز هو « إنسان السنة المليون » التى ارتأت فى البداية أن يجعلها قصة قصيرة ثم أدخلها بصراحة فى « حرب الكواكب » ، وبصورة ضمنية فى « آلة الزمن »

و « أول رجال على القمر » . ولم يكن رجل السنة المليون يتكون إلا من يدٍ و دماغ هائل بعد أن ضمرت كل أعضاء جسمه الأخرى إذ لم تكن به حاجة إليها . والمريخيون والقمرى الأعظم ما هم إلا تجسيدات لهذه الفكرة عن رجل المستقبل ، بينما الأليون والمورلوكيون هم نتاج التطور الطبيعى فى اتجاه معاكس عندما عجزت الانسانية عن الارتقاء إلى كائن أعلى . وبعد سنة ١٩٠١ تولى ولز عن مثل هذا النوع من القصص وما فيه من لمحات عن المستقبل البعيد ، واتجه إلى القصص الواقعى الساخر الذى يتخذ فيه شخصيات مثل كپس وپولى كنماذج أو عيّنات اجتماعية . وفى «تونو - بنغاي» يظل التحليل الاجتماعى متماسكاً بفضل تصور ولز لنموذج بليدسوثر ، البيت الريفى على التلال الطباشيرية . وفهم جورج پوندرىفو مكيف بنشأته فى جناح الخدم فى البيت الكبير . وكل ما تتأى عنه مغامراته الطائشة فيما بعد ، وبضمنها مهمة قرصنة فى افريقية الاستوائية ، هو أنها تؤكد حدسه بأن انجلترا وامبراطوريتها يسرى فيهما « نظام بليدسوثر » الذى أصبح الآن عرضة للتضخم والفساد . والاختراعات العلمية والمغامرات التجارية تزدهر أكثر ما تزدهر فى فرج هذا البناء . ورحلة جورج فى نهر التيمز فى قارب طوربيد تجريبى عند نهاية القصة عبارة عن رفض رمزى لانجلترا التى تنوء بثقل تاريخها .

إن جورج پوندرىفو ليس بطلاً محدوداً مثل كپس وپولى ، وإنما هو راوية بضمير المتكلم ، ومكابدته المضطربة من أجل خيال منضبط كمثل أعلى يعكس وضع ولز . وأخيراً يعلن إيمانه بالعلم « أعزّ الخيليات منالاً » (٣-٣-١) ، ولكنه من ناحية أخرى مغامر غير متورع ، كما كان مؤجده . وقد وصف ولز الحياة الأدبية فى مقالة نشرت عام ١٩١١ بأنها « من أشكال المغامرة الحديثة . فالنجاح بكتاب فى العالم الناطق باللغة الانجليزية لا يعنى مجرد الاستقلال المالى المعتدل ، بل الحد الأقصى من الحرية فى الحركة والتعامل دون قيود مع أكبر تشكيلة من الناس ، وأن يشاهد المرء العالم »^{١٢} . وبعد « تونو - بنغاي » أصبح أبطال رواياته الواقعية جواًبى آفاق دون تمييز . وهذا من ناحية تعبير عن

حاجات الخيال المنضبط : الآفاق الامبريالية التي كشفت في أمثلة التربية في « المستر پولى » يجب اختبارها ومعرفتها مباشرة من قبل بطل انجليزى يتطلع إلى الوعى الكامل ؛ ولكنه يعكس أيضاً ما رافق تجربة ولز من تغير نظراً لتزايد يسر حالته ومبدأ انتهاز الفرص الكامن فى صلب القصص القائم على السيرة الذاتية . وبعد خمس سنوات من ظهور « تونو - بنغاي » وما تعكسه من اهتمام بأوضاع انجلترا^{١٣} جمع ولز مقالاته حول مواضيع مختلفة ووضع لها عنواناً مناسباً هو « انجليزى ينظر إلى العالم » An Englishman Looks at the World .

٣

لم يكتب ولز كتاباً عن السفر من النمط المألوف قط ، والأشياء التى رآها فى البلاد الأجنبية كانت على وجه العموم مثل القارب الذى رآه راسياً عند شاطئ ساندغيت : لقد أشبعت شهيته إلى العموميات ولكنها كانت قليلة الجاذبية للجانب المنفلت من خياله . وأبلغ ما حققه هو ريادته نوعاً من التحقيق الصحفى يتخذ فيه السفر شكلاً من الحج المحبط - دون أن يزايله الأمل - إلى عالم سياسى جديد متخيل . و « المستقبل فى أميركا » و « روسيا فى الظل » Russia in the Shadows كتابان من هذا النوع ، ومثلهما - وإن يكن أقل حظاً من النجاح - « واشنطن وأمل السلام الجديد - أميركا الجديدة : العالم الجديد » Washington and the New Hope of Peace: The New America : The New World وما سجله عن زيارته لأستراليا* ، و « أسفار جمهورى رديكالى بحثاً عن مياه ساخنة » Travels of a Republican Radical in Search of Hot Waters - كل هذه الكتب تحكى عن رحلات رسمية قام بها شخص كان قد أصبح شخصية عامة . ومن العبث التفكير فى ما كان يمكن أن يكون عليه « المستقبل فى أميركا » لو شعر أن بإمكانه الاعتراف (كما فعل فى مجلد السيرة الذاتية الذى نشر بعد وفاته)

* اسم يطلق على أستراليا وتسمانيا ونيوزيلندة وماليزيا والجزر الكثيرة فى المحيط الهادى ، كوحدة بيو جغرافية ، وقد يطلق تجوزاً على أستراليا وتسمانيا ونيوزيلندة فقط . (المترجم)

بأنه بعد مقابلته ثيودور روزفلت فى البيت الأبيض قضى بقية نهاره مع مومس . وبالمثل فإن كتاباته عن الاتحاد السوفييتى لم تتعد بتحليل علاقته الوثيقة مع مورا بضرغ Moura Budberg التى يقال إنها كانت مخبرة للسوفييت^{١٤} .

والميزة الواضحة لكتابى «المستقبل فى أمريكا» و«روسيا فى الظل» على الروايات المعاصرة لهما هى فى الحس التاريخى فى الصنعة . فلا شىء كان يمكن أن يدرجه ولز فى رواية يمكن أن يحل محل ما حكاه عن مقابلته لينين ، «الحالم فى الكرملين» ، وإن تكن «العالم محرراً» The World Set Free قد تضمنت صورة لزعيم عالمى خيالى . ومع ذلك فإن الحج الخيالى أو «الرحلة العظمى» The Grand Tour تشكل جزءاً لازماً فى ترتيب أعماله ، ابتداء من «آن فيرونكا» Ann Veronica و«مكيافلى الجديد» The New Machiavelli اللتين تعرفان «بالروائيتين الجدلتين» أو «الروائيتين المتحذقتين» ، وأصبحتا من روايات السفر أيضاً . وفى «آن فيرونكا» تنتهى قصة حب البطلة إلى شهر عسل مشحون بالخطب فى جبال الألب السويسرية . و«مكيافلى الجديد» تعود إلى جبال الألب من أجل رحلة على الأقدام يسودها سمو المبادئ والمشاعر . كذلك «زواج» Marriage تتخللها رحلة فى جبال الألب لا تؤدى إلى نتيجة لأن البطل ترافورد Trafford والبطلة مارجورى Marjorie يتركان حقائب الظهر ليستمتعا بكرم صناعى غنى يملك فيلا لأيام راحته فى سويسرة . ثم يقرران أخيراً القيام بحج آخر إلى برية حقيقية ويقضيان الشتاء فى كوخ فى لبردور . وكالساموراي* فى «يوطوبيا حديثة» يحتاج العروسان إلى اجتياز اختبار البرية ليخرجا «نفسين جديدتين» يستطيعان أن يحققا طاقتهما الانسانية الحقيقية . وفى «الأصدقاء العاطفيون» The Passionate Friends و«البحث الرائع» يأخذ السفر مكان نداء البرية ، وهما كتابان متحذقان يمكن أن يوصفا بأنهما منتهى الطلب فى روايات السفر . يذهب ستراتن Stratton فى «الأصدقاء العاطفيون» للتطوع فى حرب جنوب افريقية ، ويقول للقارئ : «ليس من واجبى أن أكتب قصة متتابة عن تجاربى فى الحرب» (٥-٣) ، ثم تطفئ تأملاته العامة حول الامبريالية وتطور العالم على السرد . وفيما بعد ، وبنفس تأملى مماثل ، يسافر إلى الولايات المتحدة والهند (حيث ينجو من مواجهة اضطرارية لنمر) ،

ويتردد على مؤتمرات السلام . وهذا يصدق كثيراً على بنهام فى « البحث الرائع » .
فبعد المغامرات المعتادة فى سويسرة وإيطاليا يقرر السفر حول العالم ويتوجه
إلى موسكو . وروسيا عنده ليست إلا انجلترا مكتوبة بحروف كبيرة :

سنت بطرسبرغ على نهر نيثا مثل لندن وحشية غير مروضة علي تيمز
أكبر : كلتاهما مدينتان معرضتان للمد والجزر ولهجمات طيور النورس ،
وليس مثلهما عواصم أخرى فى أوروبا فهى مثل لندن تنظر من فوق
رؤوس شعبها إلى امبراطورية متعددة اللغات بلا حدود يستطيع المرء
أن يرسم عشرات الموازيات . وفى هذا الوقت كانت روسيا فى حالة توتر
لا يطاق كشفت الحقائق الأولية لتنظيم اجتماعى كبير . وكانت تخوض
حربها فى جنوب افريقية ، وهى حرب تدور فى الطرف الآخر من الأرض ،
مع انكسار أكيد بدلاً من نصر مشكوك فيه (١٢-٥) .

وما أن وصل بنهام إلى موسكو حتى « أخذ يجمع أجزاء عملية - إن كانت
نفس العملية - تنطوى على أعمال شغب فى لودز وقتال فى لباو ، واضطرابات
أكبر فى أوديسا ، ومعارك طاحنة بعيداً فى منشوريا ، وتحركات غامضة وخيمة
العاقبة للأسطول الروسى الذى فقد فى مكان ما من المحيط الهندى » (١٣-٥) .
وفى أثناء ذلك كان رفيقه يتابع علاقته مع امرأة نصف روسية ونصف بريطانية
التقطها فى بازار كوزموبولس . وفيما بعد ، وبسرده يتزايد تشذره ، يذهب بنهام
بدافع من حب الاستطلاع إلى الهند والصين ثم إلى جنوب افريقية حيث يقتل فى
أعمال شغب .

وفى هذه الأعمال غير الشافية نجد ولز يطرق فكرة « المشاهدة الثورية » ،
وهى نوع من السفر الذى يجد المرء نفسه مدفوعاً إليه لمشاهدة الأماكن
المضطربة ، وستصبح هذه المشاهدة ملمحاً منتظماً للحياة فى القرن العشرين
ومصدراً للرزق للكتاب والصحفيين . غير أن الحرب العظمى تضطر بطل ولز
فى « المستر برتلنج يواصل حتى النهاية » Mr. Britling Sees It Through

* تعتمد تفسيراته فى مناسبتين على المفهوم الأنثروبولوجى المعاصر حول « الباقيين الهمجيين » (الفصل الرابع) .

إلى البقاء محصوراً فى منزله فى إسكس ، وكان ذلك أفضل للرواية .
أما بالنسبة لولز فإن أفضل ما يقال عن سلسلة أبطاله المتفلسفين المأخوذين
بجوب أرجاء الأرض هو أنهم وجهوا ذهنه إلى كتابة التاريخ . لقد كان « موجز التاريخ »
كتاباً مدرسياً للعالم بقصد أن يحل محل كتب التاريخ القومية الشائعة التى
أسهمت كما كان يعتقد - فى كارثة الحرب العالمية الأولى . وقد نقح الموجز
وكتابه التالى « مختصر تاريخ العالم » A Short History of the World
مرات عديدة ، وما زالا موضع تقدير القراء الآسيويين والأمريكيين وغيرهم
بسبب محاولتهما نقض كتب التاريخ العالمى المتمركزة حول أوروبا .
وقد كانت دراسة التاريخ جزءاً لا يتجزأ من بحث ولز عن عالم جديد لأن الموجز
لا ينتهى فى الحاضر وإنما فى المستقبل القريب . وقد كان على غلاف المجلد
الأخير من السلسلة الأصلية خارطة العالم دون تقسيمات سياسية ،
وبعنوان « الولايات المتحدة العالمية » The United States of the World .
وقد اختتمت الطبعة الأولى ببحث حول « المرحلة التالية فى التاريخ أوضح فيه
ضرورة قيام حكومة فدرالية عالمية » (ص ٦٠١-٦٠٨) .

- ٤ -

إذا كانت كتابة التاريخ ستصبح مع الوقت فى يدى ولز نبوءة ، فإن السياحة
سرعان ما تتحول إلى رؤيا طوبائية . وهو يبدأ « يوطوبيا حديثة » مرة أخرى
باستخدام الرحلة السويسرية على الأقدام . وإذا يهبط الراوى ورفيقه الجدل الممر
الموصل من سويسرة إلى إيطاليا يجدان أنهما قد انتقلا بأعجوبة إلى يوطوبيا
التى يمثلها كوكب موازٍ فى الجانب الآخر من المجرة . ومع الوقت توصلهما
استكشافاتهما إلى لندن طوبائية ، وإذا يقفان فى القبو المعمد - وهو فى يوطوبيا
يوازى ساحة الطرف الأغر Trafalgar Square - يتلاشى العالم الجديد ويجدان
نفسيهما مرة أخرى فى المدينة المعهودة . وهذه ليست نهاية القصصية القديولز
يركب على ظهر حافلة ويتخيل شكلاً ملائكياً رؤيويّاً يعلو فوق هايماركت
Haymarket . فينفخ فى الصور فيرى للحظة « عالماً يستيقظ » على الروح
الطوبائية (ص ٣٦٩) . وهذه الرواية من « سفر الرؤيا » تساعد على تفسير

لماذا كانت كتابات ولز الصرفة عن الرحلات أضعف كثيراً من حكاياته عن الرحلات في الزمن أو إلى عوالم موازية . فما كان مثار اهتمامه هو ميعاد عالم جديد لا يرى إلا بالخيال .

ومع أن « المستقبل في أمريكا » تصف عالماً جديداً حقيقياً ، وتتضمن انطباعات بارزة عن الولايات المتحدة ، فإنها تبدأ وتنتهى بتلك الابتهالات غير المحددة الزمن إلى المستقبل - المجازات التأملية والإحساس الدائم بالتساؤل ، والجمل التي تنتهى بالنقط - التي أصبحت مع حلول عام ١٩٠٦ العلاقة الفارقة لولز : فالفصل الأول يحدد القصد من رحلته عبر الأطلسي بأنه « العثور على وعى ، أو وعى غامض ، بغرض مشترك قد يكون هنالك ، وما هى رؤيتهم ، وما يوطوبياهم الأمريكية ، وما مقدار الإرادة التي تتشكل للوصول إليها » (ص ٢١) . وفى نهاية الكتاب ، وبعد البحث المبهج - ولكن غير المنتج - عن ذلك الوعى بالغرض ، يصف خيلاً رؤيويّاً آخر ولكنه هذه المرة مقهور وأضعف من ذى قبل . وعندما ينظر إلى الورا إلى ناطحات السحاب التي كانت تشكل أطلاً أفق نيويورك تعنّ على ذاكرته بالقوة صورة « الصناديق المكسدة خارج مستودع » . ومن هذه الصورة ستبرز « القصور والأماكن الشهيرة » و « النور والحياة الناعمة » . أو هذا ما يؤكد (ص ٣٥٨ - ٣٥٩) . ومع أن هذا البيان شئ عاى مألوف فإن مجاز الصناديق المكسدة يصور قلق ولز فى أفضل حالاته . إنه يفكك المباني التي تحدد معالم نيويورك ويجعل منها مجرد أوعية تافهة لطاقت الناس الذين يعيشون فيها . ومع أن العالم الجديد لم يستطع الارتقاء إلى مقاييسه فإنه ظل مصدراً ممكناً لعوامل طوبائية جديدة .

وكان العالم الجديد النهائى هو السيطرة على الفضاء ؛ غير أن السفر فى الفضاء يبدو مجرد مصدر بلاغى لرفع المعنويات فى نهايات أعماله . « فقول رجال على القمر » كانت إسهام ولز الوحيد فى القصص الشائع حو المغامرات فى الفضاء . هنا كانت مناظر القمر يطغى عليها طلوع الشمس المفاجئ بعد ليل القمر الطويل ، والنمر الحثيث للنباتات فى جاذبية القمر المنخفضة^{١٥} . وهذا بكل وضوح وصف لعالم جديد غريب يقانه الراوى بمعجزة الخلق .

والمسافران القمریان - الباحث عن الثورة ومستكشفه المحروم من الميراث - مكلفان بمهمة امبريالية تقليدية . والعقبات التي تعترضهما توازي عقبات صحراء أو غابة استوائية ، وأشكال وألوان النباتات القمرية تذكر أيضاً بحديقة صخرية في الضواحي مضخمة جداً . وهنا أيضاً عالم رعوى فيه رعاة سليبيين يرعون قطعاناً من المخلوقات القمرية . كل هذا يوحي بأن بدفورد وكافور قد سافرا من كنت ، بستان إنجلترا ، إلى مكان آخر هو عالم بستانى مهما يكن غريباً . ونجد في بعض رؤى ولز عن المستقبل عوالم بستانية مألوفة أكثر ، من « آلة الزمن » إلى أعماله الطوبائية اللاحقة . وقد اعترف في عام ١٩٢٤ أن خياله كان « يفرّ من الأحياء القذرة في عالم اليوم ليجد ملاذاً في عالم أشبه بحديقة عظيمة متعددة الأشكال ، منظمة ، وتحظى بالعناية الحانية »^{١٦} . ومن الواضح أن هذه رؤيا فردوسية ولكنها في الوقت نفسه انجليزية جداً تنتمي (مثلاً) إلى رواية موريس « أخبار من لا مكان » ورواية إبنيزر هوارد « مدن البساتين في الغد » Ebenezer Howard: Garden Cities of Tomorrow .

في « آلة الزمن » ومرة أخرى في « رجال كالآلهة » Men Like Gods تحول المشهد المدينى والصناعى إلى متنزه ريفى ، مثل أبارك حيث كانت أمه تعمل مدبرة منزل وأبوه يعمل بستانياً . والمنظر الطبيعى في « آلة الزمن » يمكن أن يعجب به كل من زار متنزه رتشمند في جنوب غرب لندن . وتعرض لنا « رجال كالآلهة » منظر متنزه آخر متكامل ، بما في ذلك الجبال البعيدة المغطاة قممها بالثلوج والقطط البرية الأليفة . وتدخل هذا الفردوس عرضاً جماعة من الأرضيين نتيجة تجربة طوبائية في مبادلة مستويات الزمان والمكان ، ويقومون بذلك من موقع في منطقة نشأة ولز إذ يقودون سياراتهم بعيداً عن لندن على الطريق الغربية العظمى . وحرص ولز على أن يخلف جنوى إنجلترا وراءه لا يوازيه إلا تصميمه على جعل العالم البستانى الذى يقوم مقامه بديلاً طوبائياً لإنجلترا التى غادرتها شخصياته . وفي مثل هذه الأحوال يذكرنا بوليم بليك William Blake ، وهو عالم آخر تغنى ببناء القدس، المدينة الكاملة، فى الريف الانجليزى . وليك كولز يرينا فى « الخزانة البلورية » Crystal Cabinet إنجلترا أخرى :

هناك رأيت انجلترا أخرى

لندنا أخرى وبرجها

تيمزاً آخر وتلالاً أخرى

وعريشة من صرى أخرى جميلة

غير أن ثمة نظيراً آخر لرؤية ولز للعوالم الأخرى ، وهو عقلية الرواد أو المستعمرين . فإذا كان الهم الأول للمستعمر أن يقطع صلته بالوطن فإن همّ الثانى هو أن يبنى مستوطنة جديدة تحقق له فى آن واحد المجتمع الأفضل الموعود وتقوم مقام نصب تذكارى للأرض التى خلفها وراءه . ولا بد أن مثل هذا المنطق راود مستوطنى نيوإنجلند وجميع الرواد الآخرين فى الأراضى التى استوطنتها البيض ، وراحوا يطلقون على منازلهم الجديدة فى البرارى أسماء انجليزية وأوروبية مألوفة . والنزعة العالمية التى كان ولز مقتنعاً بها وتصريحه بالمواطنة العالمية يظان من المثل العليا المهمة والجديرة بالتقدير ، غير أن صلته الأعماق تظل مع روح العالم الجديد حتى ولو لم يكن هناك ما يغريه بالهجرة فى يوم من الأيام . والدمار الذى كان كثير من المهاجرين يودون إنزاله بالوطن الذى يغادرونه يتمثل فى « آلة الزمن » و« الرجل الخفى » و« حرب الكواكب » و« المستر پولى » حيث يحاول البطل الانتحار فيفلح صدفة فى حرق شارع فشبورن الرئيسى . وفى « تونو - بنغاي » يكون جورج بوندريشو مهاجراً روحياً يستعرض المجتمع الانجليزى كله فى ذهنه قبل أو يودعه الوداع المرير . غير أن روايات ولز تتوقع العودة التى تتراءى فى الاحلام وإعادة بناء الوطن على نمط طوبائى - وتتم إعادة البناء هذه بمصادرة الأراضى من أصحابها ، أى من مستأجريها الحاليين الذين هم أعضاء لم يرعوا من الجنس البشرى الذى عجز عن الارتقاء إلى مستوى الانسان العالمى . وهكذا فإن طوبائيته تظل حاملة سماتها الأصلية فى عالم امبريالى . ولكن هذا الاحساس النبوى بالآخريّة مطبوعاً فوق الكينونة الانجليزية ، أو بعالم قديم يخلى مكانه بلا حول لعالم جديد متخيل ، هو الذى ألهم ولز أفضل كتاباته أو بعضها .

هوامش الفصل السادس

- 1 - See David c. Smith, H. G. Wells: Desperately Mortal, p. 333. Earlier, in 1907, groups of Wells's followers had formed the 'Samurai Societies' named after the ruling élite of A Modern Utopia. See Smith, op. cit., p. 101.
- 2- Anthony West, H. G. Wells: Aspects of a Life (London: Hutchinson, 1984), p. 132.
- 3- H. G. Wells, H. G. Wells in Love, ed. G. P. Wells (London: Faber & Faber, 1984), p. 235.
- 4- See Robert Colls and Philip Dodd, Englishness: Politics and Culture 1880-1920 (London: Croom Helm, 1986), passim.
- 5- On Comte, see H. G. Wells, 'The So-Called Science of Sociology', in An Englishman Looks at the World (London: Cassell, 1914), pp. 192 - 93 On Marx, see Experiment in Autobiography, I, pp. 263- 64
- 6 - H. G. Wells, Experiment in Autobiography, I, p. 54.
- 7- Van Wyck Brooks, The World of H. G. Wells (London: Unwin, 1915), p. 178. Subsequent page references in text.
- 8- H. G. Wells, 'The Moth', in Complete Short Stories, p. 307.
- 9- . G. Wells, Experiment in Autobiography, II, p. 543.
- 10- See Michael Draper, 'The Martians in Ecuador', Wellsian ns5 (Summer 1982), pp. 35 - 36.
- 11 - H. G. Wells, A Modern Utopia, p. 376.
- 12- H. G. Wells, 'Mr Wells Explains Himself', T. P.'s Magazine (December 1911). This was written to introduce a Russian edition of his novels. Author's TS., Wells Collection, University of Illinois.

- 13- See David Lodge, 'Tone - Bungay and the Condition of England', in *Language of Fiction* (London: Routledge & Kegan Paul, 1966), pp. 214 - 46.
- 14- See Anthony West, *H. G. Wells: Aspects of Life*, pp. 143–46
- 15 - These landscape descriptions were to be lavishly praised by T. S. Eliot. See his article 'Wells as Journalist' (1940), in Patrick Parrinder, ed., *H. G. Wells: The Critical Heritage*, p. 320.
- 16- H. G. Wells, *A Year of Prophesying* (New York: Macmillan, 1925), p. 351.

الفصل السابع

اليوطوبيا والميتايوطوبيا

ضمّن وِلز كتابه « تجربة في السيرة الذاتية » بحثاً يدافع فيه عن تعامله مع الرواية استناداً إلى مادة جمعت لأول مرة في ملف بعنوان « هل أنا روائي ؟ » (٢-ص ٤٨٧) . ويخامرني ميل إلى الاعتقاد بأن في أوراقه غير المصنفة ملفاً آخر بعنوان « هل أنا طوبائي ؟ » . فمع أن « اليوطوبيا الوِلزية » كان لها في حياته شهرة مماثلة لشهرة «السيكولوجيا الفرويدية» والحب الافلاطوني ، فإننا إذا نظرنا إلى الوراء وجدنا أن علاقته بالنهج الطوبائي تبدو قلقة ومنطوية على تناقض ظاهري . لقد كان من أكبر مروجي الطوبائية ولكنه لم ينتج كتاباً طوبائياً واحداً بمعنى الكلمة . ولعل « يوطوبيا حديثة » هو أقرب أعماله إلى مثل ذلك الكتاب ، غير أنه لم يحرز حتى الآن مكانة يعتدّ بها لا في الصنف الطوبائي ولا في أعمال وِلز الأكثر شهرة . ولا غرابة في عدم الارتياح للنهج الطوبائي من كاتب بدأ التأليف عن حياة المبتلين أو يوطوبيات المفارقة الساخرة ، ابتداءً من « آله الزمن » التي يبدو أن القصد منها كان أن تغطي على نصوص طوبائية سابقة . ونجد مثل عدم الارتياح هذا قريباً من نهاية حياته في حديث إذاعي عن « اليوطوبيات » قدمه في استراليا عام ١٩٣٩ ولم يطبع إلا بعد أربعين سنة . هنا عقد مقارنة حادة بين اليوطوبيا و« حكاية توقع الأحداث » . فالبوطوبيات عنده أحلام - « القصة الطوبائية تتخيل عالماً أفضل وأوفر سعادة ولا تدعى أية صلة بالواقع - بينما حكايات توقع الأحداث تزعم بأنها تتنبأ ، وفي أغلب الحالات تحذّر وتتنذر » . وذهب إلى أن لليوطوبيا ثباتاً متخيلاً لا تحظى به الرواية من النوع الذي يكتبه :

النغم الأساسي في اليوطوبيا هو « فقط لو أن . . . » . إن أمل أية كتابة مستقبلية في أن تصبح أدباً باقياً قليلاً . فنحن المتنبيين نكتب لزماننا ونُنسى قبل أن نموت ، ولكن بعض اليوطوبيات من أكثر الكتابات خلوداً في متحف كنوز الأدب . فهي لا تقيم تحدياً يلقي بها إلى التهلكة كما يفعل الكاتب عن المستقبل

عندما يقول : هكذا تسير الأمور وهذا ما هو آت . كل ما يقوله الطوبائي هو : فقط لو أن - ثم يهرب من الزمن والموت والقضاء (ص ١١٧) .

هنا يسمى ولز نفسه متنبئاً لا طوبائياً (بنغمة من نكران الذات معهودة منه) . فكاتب اليوطوبيا ينتج قصصاً تأملية عن المجتمع الفاضل الذي « يهرب من الزمن والموت والقضاء » . ونرى من هذا لماذا تكون الحالة الطوبائية دائماً بالنسبة لولز قلقاً وعرضة للنقد . لذلك لم تكن أفضل قصصه التأملية أحلاماً باليوطوبيا بل استكشافاً للزمن مع رسالة تذكير بالموت .

وقد انتقل في حديثه عن « اليوطوبيات » من النظر في الرؤى الطوبائية الفردية إلى النزعة الطوبائية الجماعية لدى العلماء . فافلاطون وتوماس مور Thomas More حل محلها روجر بيكن Roger Bacon وفرنسيس بيكن Francis Bacon ومريدهما . والمشكلة هنا هي أن الطوبائية العلمية تنطوي على تناقض ظاهري إن لم يكن تناقضاً فعلياً في المدلولات . فالعلم في ذاته قوة دافعة تعتمد (كما يقول ولز) على « النقد الدائم وزيادة المعرفة ونشرها أكثر وأكثر » (ص ١٢٠) . والأثر الحتمي لذلك هو تدمير كل نظام اجتماعي مستقر . ورفض ولز للطوبائية الساكنة هو الأساس الذي تقوم عليه « يوطوبيا حديثة » ، وقد كرر ذلك طوال حياته . وقد قال في الفصل السابع من « المؤامرة العلنية » : « أنا لا أفكر في أية يوطوبيا مستقرة »^١ . فعدم الاستقرار الاجتماعي والاضطراب الفردي الذي يسببه هما من الشرور الأساسية التي عملت اليوطوبيات المبكرة ، حتى وليم موريس ، على إزالتها . ومن الأسباب التي تمنعنا من أن نخطئ فنحسب « يوطوبيا حديثة » نصاً طوبائياً تقليدياً بمأمن من الزمن والموت والقضاء هو أن المجتمع الذي تعرضه ليس بلورة للرؤية الشخصية ، وإنما هو بناء دينامي اصطناعي . وقد وضعت المبادئ السياسية في الكتاب بصورة جلية صافية ، ولكن حظها من الأصالة قليل . فهذه المبادئ أصبحت اليوم عتيقة بعض الشيء (ليس أقل ذلك أنها طغى عليها غيرها في كتاباته اللاحقة نفسها) . وهذا يستحق الدراسة لخصائصه النصية والخيالية أكثر من أفكاره السياسية .

إننى مدين فى استخدامى مصطلح «ميتا» meta فى هذا الفصل لدراسة هيدن وايت Hayden White للنزعة التاريخية فى القرن التاسع عشر بعنوان «الميتاتاريخ» metahistory. يضرب وايت صفحاً عن الاستعمال الشائع لمقطع «ميتا» للدلالة على استشعار واضح للذات فى الخطاب - أى بمعنى أن الميتالفة هى لغة تتناول بالبحث لغة أخرى ، والميتاقصة هى التى تسترعى الانتباه إلى كونها قصة. وهو يُعنى بدلاً من ذلك بحل العناصر الكامنة أو الخافية فى بناء الخطاب. ولذلك فإنه لا يُعنى أساساً باستخدام المؤرخ الواضح للمفاهيم النظرية والنقدية لدى المؤرخين السابقين ، وإنما ما يسميه العناصر الميتاتاريخية الكامنة - ويقصد بها «محتوى بنائى عميق هو على العموم شعري وعلى التخصيص لغوي بطبيعته ، وهو بمثابة النمط المقبول بشكل عام لما ينبغى أن يكون عليه "التفسير التاريخي" الجلي»^٢. وفى حالة ولز يجب ألا تغيب عن الذهن المعانى الواضحة والكامنة للميتايوطوبيا^٣. وقراءة استراتيجية «يوطوبيا حديثة» التى تكشف عن نفسها بوضوح تؤدى إلى دراسة بويطيقا طوبائية ولز بمجملها.

اليوطوبيا فى «يوطوبيا حديثة» عبارة عن كوكب بعيد فى مجموعة شمسية بعيدة، حدث صدفة أنه مطابق من الناحية الفيزيائية للأرض ، ويسكنه فى هذه اللحظة الفريدة فى الزمن سكان مطابقون أصلاً لسكان الأرض ، وهذا يعنى أن كل واحد على الأرض له صنو فى اليوطوبيا . واستخدام ولز لنمط كتب الرحلات يشبه بعض رواياته الأخرى عن اليوطوبيا ونقيضها ، غير أن «يوطوبيا حديثة» ليس معدوداً ضمن كتبه القصصية. والكتابة عن اليوطوبيا تجمع عدة أشكال ، فهى مزيج من العرض المنضبط وحرية التخيل المنفلته. غير أن ولز تمادى فى الفصل بين الأنواع الكتابية. وقد ذكر أنه يرمى إلى «نسيج من الحرير الموشح يجمع بين البحث الفلسفى من جهة والسرد التخيلى من جهة أخرى» (ص ٨).

٢ - يجب ألا يخلط هذا باستخدام مصطلح ميتايوطوبيا من قبل بعض العلماء السياسيين الذين يبدون أنه ليس لديهم فكرة عن أن اليوطوبيا نوع خاص من النص وليست نوعاً من المجتمع.

وهو يقدم العنصر السردى (تجوال الراوى ورفيقه) عن قصد كنوع من اللعبة ، فهو عبارة عن زيارة لمكان متخيل بنى وفق قواعد وضعها ودافع عنها . ويوحى ولز فى إطار سردي أننا نستطيع أن نتصور النص بأكمله كمحاورة مصورة يلقيها شخص يسمى « صاحب الصوت » وموضوعه «مغامرة روحية بين المسائل الطبائية» (ص ٢) . وقد وصف « يوطوبيا حديثة » فى حديثه الاذاعى عام ١٩٣٩ بأنها « ملخص لأفكار طوبائية » (ص ١٢٠) .

ويظهر موتيف تلخيص الأفكار الطوبائية فى مكان آخر من أعمال ولز . ونستطيع أن نصل « صاحب الصوت » فى « يوطوبيا حديثة » بعالم حكيم ذى موهبة ساحرة غريبة هو المستر سميپاك Mr. Sempack الذى يظهر فى « فى هذه الأثناء » Meanwhile ، وهى رواية تتناول موضوعات الساعة فى أيامها ، كاستقواء الفاشية فى إيطاليا والاضراب العام فى بريطانيا . وكان المستر سميپاك « يقرأ ويكتب حول جميع اليوطوبيات فى العالم » ، وهو ما يسميه ولز « اليوطوبوغرافى » Utopographer (١-١) . واليوطوبوغرافى عند ولز هو أحد مشرعى العالم غير المعترف بهم . وقد هاجم علم الاجتماع الوضعى عند سبينسر وكونت فى مقالة نشرها عام ١٩٠٦ ، وذهب إلى أن اليوطوبوغرافيا المقارنة (على نموذج التشريح المقارن) ستكون الموضوع الرئيسى فى علم الاجتماع . « أنا أتصور نوعاً من كتاب أحلام عظيم الحجم ، وفى الحقيقة ربما كان فى عدة مجلدات وبأقلام عديدة حول المجتمع المثالى . وهذا الكتاب ، أو هذه الصورة للدولة الكاملة ، سيكون العمود الفقرى لعلم الاجتماع » .

واليوطوبوغرافيا بهذه المدلولات ليست مشروعاً فردياً بل جماعياً ، ومع ذلك فإن «يوطوبيا حديثة» مخطط شخصى جداً لكتاب ولز الحلمى . وبين طفرات الحديث عن الرحلات المتخيلة يقدم الكتاب بحثاً مقارناً متصلاً مع الإشارة بانتظام إلى نحو عشرين من كتاب اليوطوبيا السابقين بالإضافة إلى طوائف

* اتين كاييه Etienne Cabet (١٧٨٨-١٨٥٦) اشتراكى فرنسى أسس جماعة طوبائية فى الولايات المتحدة . (المترجم) .

الطوبائيين والمعماريين الطوبائيين والجماعات الطوبائية واللغات الطوبائية .
وأكثر ما يشير إلى افلاطون ثم إلى مور وموريس وكونت وبيكن وكابيه*
وكامپنيلا* Campanella وبلمي . ومن الغريب أن الفرع الذي لم يمثل إلا قليلاً
من الفكر الطوبائي في « يوطوبيا حديثة » هو فكر الاشتراكيين الطوبائيين
الأولين مثل فورييه وأوين وسان سيمون . ولكن ولز عوض عن إسقاط هؤلاء في
الفصل العاشر من عرضه للاشتراكية في كتابه الشائع « عوالم جديدة بعوالم
قديمة » .

٣

لماذا أسس ولز يوطوبيا على مثل هذا الترتيب الواضح للمراجع
الميتاطوبائية ؟ لقد كان اهتمامه بالتنبؤ بالمستقبل أقل من اهتمامه بالمشاركة في
النقاش القديم حول طبيعة المجتمع الفاضل (بنفس الروح أخذ يفرق بين
اليوطوبيا والكتابة عن المستقبل) . وكان من قبل قد تحول من النبوءة القصصية
إلى ما يمكن أن يسمى الآن الكتابة في علم المستقبل ، وذلك في سلسلة من
الكتب نشرت قبل « يوطوبيا حديثة » مباشرة ، وهي « إرهاسات » ،
« الانسانية في طور التكوين » Mankind in the Making ، « اكتشاف المستقبل » .
وهذه هي الكتب التي أكسبته صفة المفكر السياسي . غير أن « يوطوبيا حديثة »
لا تدور في المستقبل وإنما في حاضر بديل . وفي هذا تناقض حاد ليس وحسب
مع « إرهاسات » ولز ، وإنما أيضاً مع أعمال بلمي وموريس عن المستقبل ،
وهما اللذان تقدماه مباشرة في مجال الاشتراكية الطوبائية . وأول ما يخطر
بالبال أن ولز آلى أن يطلق النبوءة دفعة واحدة .

يعرض الكتاب ، بدلاً من النبوءة ، ما سيصبح أسلوباً مألوفاً لولز ،
وهو إعادة القولية التركيبية أو التحديث التركيبي – أي تنقيح وتحديث نص
سابق أو تقليد نصي . وهو ليس وحده في هذه النزعة إلى التحديث كما نرى من

* اتين كابيه Etienne Cabet (١٧٨٨-١٨٥٦) اشتراكي فرنسي أسس جماعة طوبائية في الولايات المتحدة .
(المترجم) .

★★ توماسو كامپنيلا (١٥٦٨-١٦٢٩) : فيلسوف إيطالي أفلاطوني وكاتب وشاعر حاول أن يوفق بين النزعة الإنسانية
لعصر النهضة واللاهوت الكاثوليكي، وكان طوبائياً في الإصلاح السياسي الذي ارتآه . (المترجم)

كتابات معاصرة لها شأنها، من مثل كتاب و. هـ. مألوك « الجمهورية الجديدة »
 (١٨٧٧) W. H. Mallock : The New Republic ، وكتاب جى. لوز دكنسن
 « ندوة حديثة » (١٩٠٥) G. Lowes Dickinson : A Modern Symposium ،
 ناهيك عن كتاب هافلوك إلس « الروح الجديدة » Havelock Ellis : The New Spirit ،
 وصحيفة أ. ر. أوريج « العصر الجديد » A. R. Orage: The New Age .
 غير أن التزام ولز بالتحديث الاصطناعي فاق أياً من أعمال منافسيه الأدبية.
 فقبل كتابة « يوطوبيا حديثة » كان قد بسمى الدولة العالمية التى دعا إليها باسم
 « الجمهورية الجديدة » ، وذلك فى « إرهاسات » و« الانسانية فى طور التكوين » .
 وكتبه اللاحقة التى أعاد قولبتها تضم « مكياقيلي الجديد » و« النار التى لا تخدم »
 The Undying Fire المؤسس على سفر أيوب ، و« تشريح الإحباط :
 تركيب حديثة » Anatomy of Frustration: A Modern Synthesis الذى
 أسس على كتاب بيرتن « تشريح المايلخوليا » * Burton: Anatomy of Melancholy .
 وإذا شئنا الإطالة أضفنا إلى هذه الكتب « عندما يستيقظ النائم » وهو سهم
 ساخر موجه إلى كتاب بلّمي « نظرة إلى الوراء » Looking Backward ،
 و« الدولة العظمى » The Great State بقلم ولز وبعض الفاييين السابقين فى
 محاولة لإعادة كتابة « مقالات الفاييين » Fabian Essays و« Boon å
 وهو محاكاة ساخرة لكتاب مألوك « الجمهورية الجديدة » ، و« حقوق الانسان »
 The Rights of Man وهو تحديث لتوم بين ، ومجموعة متنوعة من أعماله
 المتأخرة استعار فيها فكرة البناء من « كانديد » Candide لقولتير
 (« المستر بلتسويردى فى جزيرة رامپول » و« الكل على السفينة إلى أارات »
 All Aboard to Ararat ، أو من « حلم جون بول » A Dream of John Ball
 لموريس (« ٤٢-٤٤ » ، '42 to 44' و« المنعطف السليم ») . وهذه الأعمال فى
 مجموعها تبلى وكأنها تضع ولز ضمن تقليد انتقائى من العلماء الرديكاليين

* روبرت بيرتن (١٥٧٧-١٦٤٠) وكتابه « تشريح المايلخوليا » (١٦٢١) جمع فيه الطب ومعارف شتى بالإضافة إلى التاريخ والحكايات الخيالية. (المترجم)

الملحن فيما يتعلق بالدولة امتداداً من افلاطون ومور إلى بلّمي وموريس : تقليد ربما أذنت به مقالاته وهو طالب عن سقراطاً ، والتي تصور رفضه أن يكون محصوراً في صنف فنى واحد . وفى الحقيقة فإن هذه الكتب تبين بوضوح خروجه عن المؤلف الأدبى .

وقد شرح ولز إيمانه بالمبدأ الذى يقوم عليه التركيب فى مقال بعنوان « ترتيب الأداة » وهو ملحق « بيوطوبيا حديثة » ، يتضمن بياناً شخصياً للعقيدة الميتافيزيقية التى توصل إليها عن طريق دراسته لعلم الأحياء والجيولوجيا . فقد دفعته تعاليم هكسلى إلى افتراض تفرّد وفناء كل مادة عضوية وغير عضوية ، مما أدى إلى الاستنتاج أن جميع نظم المنطق والتصنيف شرطية فى أساسها . وقد قربته هذه العقيدة ، حسب اعترافه ، من المدرسة البرغماتية المعاصرة وبخاصة فلسفة وليم جيمس William James . وكان فى فترات من حياته يعيد التصريح بالنزعة الاسمية الجديدة التى زعم أنها كانت من المنطلقات الضرورية للعلم التجريبي^٧ ، ولكنه لم يقدم برغماتيته واسميته على أنهما موقفان ثابتان ، وإنما فرضيات عملية أو أنوات لبناء صورة كلية للعالم . والطريقة الأولى لتمثيل هذه الصورة الكلية هى بتصور خليط كبير من لعبة الصور المخرّمة Jigsaw Puzzle ، وكل قطعة مختلفة عن جارتها ، ولكن كل قطعة تغير ببطء وبصورة غير مرئية بحيث يظل نمط الصورة الكلية غير ثابت؛ ومع ذلك يظل هناك نمط يمكن اكتشافه فى أية لحظة ، ومهمة النوع البشرى هى أن يركّب القطع مع بعضها وأن يقاوم الاغراء برفس القطع وتشتيتها . ونمط الصورة عند اكتمالها هى اليوطوبيا . وإذا تكون القطع منتشرة على الأرض حول الانسان يحاول الانسان الطفولى شبه البالغ الخروج من العصر الذى يسميه ولز « عصر الاضطراب » Age of Confusion . واليوطوبوغرافيا اليوم فى أحسن أحوالها هى ، مثل حديث المستر سمپاك فى «فى هذه الأثناء» ، «تجميع الاقتراحات الرئيسية الإبداعية مع بعضها لتنظيم الشؤون الانسانية التى تراكمت» (١-٤) . فهل يكفى هذا لحل لعبة قطع الصور المخرّمة ؟ وقد عبّر عن الشك شخصية أخرى فى الرواية نفسها :

هذه المعقولة النهائية فى حديث المستر سمپاك شىء نادر أو نبتة فى دفيئة . إنها القُطارة الدقيقة الأخيرة للآمال الانسانية وتعيش فى زوايا سعيدة قليلة فى المكتبات والأسر البرالية . فإذا حطمت الدفيئة الزجاجية أو حبست الماء الساخن فإنها تموت . فأني لها أن تخرج إلى الهواء الطلق ؟
(٢ - ١٠) .

والحركة الأولى فى إعادة القولة التركيبية فى « يوطوبيا حديثة » هى أطراح ما رآه ولز من طوبائية مبدأ اللذة الخالص عند موريس فى « أخبار من لامكان » . لقد أباح موريس لنفسه أن يغير « طبيعة الانسان وطبيعة الأشياء معاً » (ص ٧) ، بينما العالم المتخيل فى « يوطوبيا حديثة » هو عالم تحولت فيه « الثقافة » الانسانية دون أدنى مساس « بطبيعة » الانسان . وقد يبدو هذا رياضة خلافية لا تأتى بالغاىة المقصودة ، ولكنها رياضة ولا شىء غير ذلك ، ويسلم ولز بصراحة بأنها مفتعلة . وهدفه هو أن يوجد مجتمعاً مختلفاً عن مجتمع موريس تكون فيه عدوانية الانسان ونزعتة إلى التنافس مكبوتتين محصورتين ضمن إطار محكم من النظام الاجتماعى . ولما كان لبرالياً حديثاً فإنه راح يبين أن النظام الاجتماعى يمكن إقامة فى يوطوبيا تكفل الحرية الفردية وحرية الحركة وحرية التعبير وحق الخلوة والأمان من العمل الشاق وتقييد الملكية الشخصية - ولكن ليس الاقتراع العام . ويشمل إطار القيود المركزى الاقتصاد المالى ، والتكنولوجيا المتقدمة ، ونظاماً جزائياً رقيقاً ، والزواج المنظم ، والتخطيط السكانى ، والصحة العامة ، والعناية الصحية ، والعناية بالأطفال بمساعدة الدولة ، ومخزناً مركزياً للمعلومات ، والتفاوض المنظم على الأجور ، وديناً مركباً بعد المسيحية . وجميع هذه النقاط تدل على حداثة واضحة فى النظرة العامة ، والاستثناء الوحيد هو رفض الديموقراطية والانتخابات العامة ؛ ونجد أن الاقتراع مقصور على جماعة من الشعب يعتبر وجودها فى مركز « يوطوبيا حديثة » شنوذاً جريئاً لافتاً للنظر ؛ فنواة هذه الدولة الاشتراكية الحديثة مؤسسة تبلغ من قدم الطراز والهرمية إلى حد يصعب تصوره - إنها طبقة من المتعلمين أو الكهنوت العلمانيين على مثال حراس جمهورية أفلاطون ، «يبدون مثل فرسان الداوية ويحملون اسماً يذكر بسيافى اليابان» (ص ٢٧٧) - الساموراي . غير أن حيوية السرد فى

« يوطوبيا حديثة » ليست آتية من عرضها أفكاراً عن دولة الرعاية الاجتماعية (وإن تكن هذه الأفكار تدل على بعد النظر) بقدر ما هي ناشئة من رغبة الراوى فى ألا يترك هذا العالم الجديد قبل أن يعثر فيه على صنوه الطوبائى . ويتبين أن صنوه من الساموراي بالضرورة . ويجسد اجتماعهما الجاذبية والاستحالة فى « تركيب » ولز .

والصنو مطابق للراوى ولكنه مختلف عنه كلية . ومنذ البداية يقدم الكتاب إلى القارئ تناقضاً ظاهرياً مشابهاً فى الهوية ؛ فالراوى نفسه رجل أشبه بطائر دورى ممثلى أزرق العينين ، على الصوت غير جذاب ، ويصبح مع الوقت عدوانياً (ص ٢) ومن السهل أن نعرف أنه كاريكاتير لولز ؛ فهو إذن ولز وليس بولز ؛ ويسمى « صاحب الصوت » ، وهذا التعبير الغريب يعنى ضمناً ولا شك أن الصوت عرضة للتخلى عن صاحبه عند نقطة ما . وليس ثمة ما يشير إلى حدوث شىء من ذلك فى أول ثلثين من الكتاب ، ولكن عندما يقترب اللقاء مع الصنو فى الفصلين الثامن والتاسع نواجه نوعاً من التردد . ويتألف الفصل الثامن ، بعنوان « ذاتى الطوبائية » ، فى معظمه من أحاديث بين الراوى ورفيقه عالم النبات . ونجد الراوى يشير فى الفصل التاسع إلى ولز نفسه بأنه « أديب » توقع تنظيماً ثورياً فى خطوط الساموراي فى « الجمهورية الجديدة » ضمن « إرهابات » و« الانسانية فى طور التكوين » (ص ٢٦٣) . ولكننا إذ نسير فى هذا الفصل – وهو اللب الأدي للكتاب – نجد أن الصوت الايضاحى ينتقل من الراوى إلى صنوه الطوبائى الذى يخبرنا عن طبيعة الساموراي ونظرتهم . وعند هذا الحد لا نعود نقرأ ميتايوطوبيا ، أو « خلاصة للتجارب الشخصية بين الفلسفات الطوبائية » ، لأن الصوت المتحدث فى النص لا يقدم إلماحات وتأملات وإنما معلومات دقيقة . وهذا ليس من قبيل اليوطوبوغرافيا بل من الطوبائية – أو هل نقول عودة إلى النبوءة ؟ غير أن صوت الساموراي سرعان ما ينقطع فجأة ، ثم يأتى الفصل التالى « السباق فى اليوطوبيا » ثم « تنفجر الفقاعة » (ص ٣٥٢) ويجد الراوى وعالم النبات نفسيهما قد عادا إلى الأرض .

نجد خلال الكتاب كله أن انسياب السرد المتأني عن بحث الكاتب عن صنوه الطوبائي تعترضه المقاومة التي يبديها عالم النبات الذي يعبر عن تمنع الانسانية عن مواجهة الروح الطوبائية . ويتذمر الراوى قائلاً : « إن اليوطوبيات القديمة لم تضطر قط إلى أن تثقل نفسها بمثل هذا الانسان » (ص ١٧٩) ، ولكن « لا مجال للخلاص منه في هذه الحياة » (ص ٣٤٣) . ويأتى حلم الرحلة إلى نهايته المفاجئة عندما يجد عالم النبات الصنو الذي يبحث عنه - وهو صنو حبيبته السابقة - وغنى عن القول إنها برفقة رجل آخر . فيؤدى اضطرابه العاطفى العنيف إلى انفجار الفقاعة . وتكون العودة فى نفس اللحظة التى يكون الراوى فيها أشد ما يكون ثقة بأنه قد حصل على اليوطوبيا وتحقق توقعه الحصول على معرفة أكثر وأكثر .

وإذ أمشى بمحاذاة النهر إلى الفندق حيث ينتظرني عالم النبات ، وألاحظ الطوبائيين الذين ألقاهم ، لا يخامرني شك فى أن إقامتى فى اليوطوبيا آيلة إلى الانتهاء فى أية لحظة ، وتطفو فى ذهنى توقعات غامضة عن مزيد من الحديث مع صنوى ومزيد مستمر من التفاصيل الدقيقة ، ومزيد من رحلات الاستكشاف . وأنسى أن يوطوبيا شئ من صنع الخيال يزداد هشاشة مع كل ظرف يضاف إليه ، كفقاعة الصابون أبهى ما تكون وأكثر ألواناً فى نفس لحظة تلاشيها (ص ٣٥٢) .

إن فقاعة الصابون تنفجر عندما يختل التوازن المصطنع للقوى التى تحدد شكلها وبقائها معلقة . وهذه القوى ، كما أرى ، هى العناصر الميتاوطوبائية الكامنة التى تحدد اليوطوبيا الولزية .

وأول عناصر الميتاوطوبيا - وهنا موطن الغرابة - هو عنصر يستبعده ولز بتباهٍ فى بداية « يوطوبيا حديثة » ؛ ذلك هو حلم الفردوس الأرضى الذى كان وليم موريس داعيته الحديث . وكانت جاذبية ذلك عند ولز أشد من أن يعنى بالاعتراف به . والطريقة التى صرف بها موريس هى فى حد ذاتها اعتراف بذلك : « لو كنا أحراراً فى أن تكون لدينا رغبتنا غير المقيدة ... لجعلنا كل

الجنس (البشرى) عاقلاً متسامحاً نبيلاً كاملاً - وللّوحنا بأيدينا لفوضى رائعة حيث يفعل كل إنسان ما يروق له ، ولا أحد يلذّ له الشر ، فى عالم فاضل ، بطبيعته الجوهرية ، قدر ما هو يانع ومشمس ، كما كان العالم قبل سقوط آدم « (ص ٧) . والرؤى التى جعل فيها ، أو يبدو أنه جعل فيها ، الجنس البشرى كله أو نسله - ليس جزءاً منه كما فى « يوطوبيا حديثة » - عاقلاً متسامحاً نبيلاً كاملاً تتكرر مرتين على الأقل فى قصص ولز . فليس هناك فقط الرؤيا العابرة ، فى بداية « آلة الزمن » ، لعالم الألويين فى صورة أركاديا شيوعية ، وإنما هناك تصوير لفردوس أركادى أكثر أصالة فى رومانسيته الطوبائية المتأخرة « رجال كالألهة » . هنا يعرض ولز النوع البشرى فى درجة أعلى من الارتقاء ، ويعيش فى ظل شكل من الفوضى . وتنعكس طاقة الطوبائيين الذهنية فى الانجازات التى لا يمكن تخيلها (عند ولز لم يتم تخيلها) فى العلم وفى الفنون . فهم يتواصلون بكلام العقل التخاطرى . وهؤلاء الطوبائيون هم من نسل الأرسقراطية المثقفة ، الأولبيين المهبين^٨ الذى يراهم ولز أعلى نتاج لحضارة البيت الريفى الانجليزى ، وتكاد يوطوبياهم أن تكون دُمرت على يد جماعة مولعة بالقتال من الزائرين الانجليز يقودهم كاريكاتير رائع لونسطن تشرشل ، وهم يمثلون الوجه غير المقبول لأخلاق البيت الريفى .

ويقول المستر بارنستابل Mr. Barnstaple ، بطل ولز ، عن يوطوبيا « رجال كالألهة » : « كل الظواهر الخارجية تشير إلى أن هذه قد تكون شيوعية كالتى صورها كتاب كنا نقدره ونحن على الأرض ، بعنوان «أخبار من لامكان» لمؤلف من أبناء الأرض اسمه وليم موريس . كان كتاباً جميلاً مستحيلاً » (٣-٢-٤) . ومن الأشياء التى نستبعد أن يكون ولز لم يلاحظها فى « أخبار من لامكان » هو تصويره الرعوى للعلاقات الجنسية . ومن الملامح المحددة للفردوس الأرضى عند ولز هو أنه يبعد أكثر من موريس ، ويبين أن طوبائييه يتمتعون بالخلو التام من الاضطرابات العاطفية التى تسببها الرغبة الجنسية . وفى « آلة الزمن » توجد علاقة الأخ والأخت بين « المسافر فى الزمن » ووين . وبطل «تاريخ المستر پولى» يبقى حياً بعد محاولة انتحار وحادث حريق وثلاثة شجارات مستيئسة ، ليجد السلام والرضا فى نزل بوتول ، وهو فردوس على

نمط رابليه مخففاً، فيقيم فيه شريطة أن تكون هناك رفقة لا جنسية مع شخصية تعرف بوصف « المرأة السمينه » فقط . وقد أتبع ولز كلاً من يوطوبياتيه الرسميتين («يوطوبيا حديثة» و«رجال كالألهة») بعد سنة من ظهورها بملحق غير رسمي هو « فى أيام المذنب » للأولى و« الحلم » The Dream للثانية ، وهما روايتان لا تركزان على كمال التنظيم الاجتماعى فى اليوطوبيا ، بل على المقابلة بين ما تهيؤه من رضا فردى والعاصفة العاطفية والتوتر فى حياة القرن العشرين . (بالإضافة إلى ذلك فإن الروائيتين الملحقتين محبوبتان - على نقيض اليوطوبياتين الرسميتين - على محور زمنى بين الحاضر والمستقبل) . «فالحلم» تصف رؤية للحياة الحالية كما يخبرها سارنك Sarnac وهو أولبى يعيش سنة ٤٠٠٠ ب.م ويقيم مع عشيقته صنراى Sunray وأصدقائهما فى منتجع لأيام العطل . ثم يصبح فى حلمه هارى مورتمبر سميث Harry Mortimer Smith ، وهو مواطن شكس من القرن العشرين ينتهى به اضطرابه العاطفى إلى أن يصبح ضحية جريمة فورة دم . والأولبيون لا يكادون يفهمون الحلم ، فحياتهم تتألف من رفقة جنسية عقلانية لا تنزع إلى التملك ، وهم فى حالة عرى دائم . وكما أن هذا مترتب على المفاهيم الضمنية للحياة الفردية فى « رجال كالألهة » فإن « فى أيام المذنب » تقوم على تجارب عالم النبات فى « يوطوبيا حديثة » ، إذ تبين أن ظهور الفردوس الأرضى يبعد غريزة التملك الجنسى ومشكلة الغيرة ، ويحل محلها . وراوى « فى أيام المذنب » اسمه ولى لدفورد Willie Leadford ، وهو شاب من مصانع الفخار تعتريه غيرة قاتلة بعد أن ذهبت صديقته نتى Nettie مع رجل آخر . وبعد «التغيير» الذى أحدثته الأبخرة الخضراء المنطلقة من المذنب يكون ولى فى البداية غير مستعد لتقبل الأفكار الطبوبائية عن الشؤون الجنسية كما كان عالم النبات . وعندما تقترح نتى قسمة ملاطفتها بين عشيقها القديم والجديد لا يستطيع ولى قبول ذلك ويعود إلى أمه . غير أنه يشفى من افتتانه آخر الأمر ويشارك راضياً فى علاقة رباعية مع نتى ومعها منافسة وشريكة جديدة اسمها آنا ريفز Anna Reeves التى تصبح أم أطفاله . إن طقوس التحول إلى العلاقات الجنسية الطبوبائية تتضمن ، بالنسبة إلى ولى ، تجديد علاقته بأمه ، ثم موتها ، ثم تحويل عواطفه إلى آنا التى كانت ممرضة أمه . وهذا رجوع إلى حب

شبيه بحب الأطفال ، وهو يتذكر ذلك قائلاً : «لقد التجأت إلى أنا كما يلتجئ طفل إلى ممرضته . وكانت تهمس لى «يكفى! لا تنزعج» كما يهمس المرء بألفاظ تهدد الطفل وترىحه . . . » (٣-٣-٣) . وقد يكون هناك عنصر تراجع طفولى فى جميع تمثيلات ولز للحياة الجنسية فى اليوطوبيا . فالمرأة السمينية فى «المستر پولى» بديل للأم ، ووينى - مثل جميع الأوليين - يجب أن تقابل كحيوان أليف أو أخت صغيرة . ومن الناحية الجنسية على الأقل يتفق ولز مع وليم موريس فى تمثيل الفردوس الأرضى بأنه مكان «طفولة ثانية» و «فترة استراحة» حيث تعلق الانسانية وتهدأ إن لم تتفسخ^٩ .

وليست الشخصيات الذكورية هى التى تأخذ زمام المبادرة الجنسية فى المجتمع الجديد فى «فى أيام المذهب» ، بل النساء ، نتي وأنا ؛ وهذا نقيض سنة العلاقة بين الجنسين فى «يوطوبيا حديثة» ، لأن من البديهي أن يوطوبيا ولز تقوم بكل وضوح على نظام أبوى أكسب صفة مثالية . وقوانين الزواج فى اليوطوبيا تصر على عفة الزوجة . فالنساء يسمح لهن بالانضمام إلى الساموراي ، ولكن هناك سلطة أدنى مفتوحة للنساء - أى زوجات الساموراي وحدهن . والفارق بين الجنسين محفوظ حفظ المقدسات فى دين النظام الجديد وأساطيره . فالطوبائيون يعبدون الدولة (الذكر) والطبيعة (الأم الجاهمة) واليهما يعود المتحضرين (الساموراي) فى حج سنوى (ص ٣٠٤) . وعملة اليوطوبيا تحمل رأس نيوتن فى جانب وامرأة جميلة تعنى السلام فى الجانب الآخر . غير أن ولز فى «رجال كالألهة» يتخلى عن هذه الزخارف الأبوية ويبنى ما يبدو أنه مجتمع مساواة حقاً . فالأرضيون يصلون إلى يوطوبيا نتيجة تجربة علمية مخففة قتل فيها الباحثان : رجل وامرأة . واسما هذين الشابين الجميلين (١-٣-٢) هما آردن Arden وغرينليك Greenlake ، وهذان الاسمان يقللان من قيمة الفارق الجنسى ، مما يوحي بأن ولز قد اقترب من مثل خنثوى أعلى .

وما أن وجد ولز فردوساً أرضياً حتى أخذ هو أو شخصه يشعرون بأن هناك ما يدفعهم إلى تدميره . وقد كتب ف . س . پرتشت V. S. Pritchett يقول بأن فى كتب ولز المبكرة «تقوم دائماً مشاجرات بالأيدي وتنشب حرائق . وأهم شئ هو نشوب الحرائق»^{١٠} والحرائق ترمز إلى طاقة قد يتعذر تطويعها

يطلقها الاستغلال التكنولوجى للطبيعية . فالانسان هو «الحيوان صانع النار» كما قال ولز فى فصل من «العالم محرقاً» والذى قدم فيه اكتشاف الطاقة النووية وجعل له عنواناً له دلالة وهو « صياغو الشمس» The Sun Snarers (التمهيد ١) . والحرائق عند ولز تبدأ دائماً بفعل فاعل . «فالمسافر فى الزمن» يشعل حريقاً جائحاً بكتلة الكافور التى سرقها . والمريخيون فى «حرب الكواكب» يشعلون الحرائق بواسطة الأشعة الحرارية . والمستر پولى يشعل النار فى بيته . وأردن وغرينليك يُقتلان فى انفجار . ويكمن فى هذه الأمثلة إحياء بأن النوع البشرى يتقوى باختراق النار (من علامات تفسخ المورلوكيين وويننا أنهم يهلكون بها فى بؤس) . وتبين «فى أيام المذنب» محاولة لافته للنظر من جانب ولز لتحويل النار المطهرة إلى رمز إيجابى تماماً . فالعصر الجديد يبدأ هناك باحتفالات بلتين* Beltane نصف السنوية حيث يتم بصورة منتظمة جمع الأشياء المتراكمة من الحياة قبل «التغيير» . والأشياء الوحيدة التى تستبقى من «نيران العنقاء» هذه (٣-٣-١) تعقّم جيداً وتحفظ فى المتاحف .

أما المشاجرات بالأيدى عند ولز فهى مختلفة جداً ، وترمز إلى تمنع الانسان ومقاومته لليوطوبيا . فعنوانية النوع البشرى العنيدة وتنافسه يظهران على مستويين رئيسيين : القومية أو الامبريالية والرغبة الجنسية : كاتسكل Catskill (تشرشل) وحزبه فى «رجال كالألهة» يكانون يدمرون اليوطوبيا نتيجة لمحاولتهم استعمارها وزرع علم عصبة الأمم فيها . والطمع الجنسى هو القوة المدمرة فى «يوطوبيا حديثة» و «فى أيام المذنب» . وبينما تتضمن الرومانسيات العلمية مشاهد كثيرة من المشاجرة بالأيدى فإن «فقاعة الصابون» فى «يوطوبيا حديثة» تخزها عملية المشاجرة بسبب غضب عالم النبات بدافع الغيرة عندما يرى صنو عشيقته ورفيقها . ويضطر الراوى إلى أعمال الروادع الكلامية والجسدية إذ يرى عالم النبات قد شحب لونه و «كور قبضة يده النحيلة» (ص ٣٥٥) . و «يلوح» بذراع مدمرة «لا ترد» (ص ٣٥٧) . وفى اللحظة التى أوشكت المعركة فيها أن تنشب اختفت اليوطوبيا . ويبدو أن ولز لا يستطيع تصور مجتمع فردوسى دون

* احتفال بلتين : احتفال كلتى قديم كان يقام فى اسكتلندة وايرلندة فى أول يوم من شهر مايو (آيار) بمناسبة حلول الصيف ، وكانت تشعل فيه النيران وعندما تنطفئ كلها توقد النيران فى البيوت من نار عامة معدة للقرابين . (المترجم)

أن تكون هناك حبكة فرعية مفارقة تؤكد دوام الاعتداءات ، كما هو ثابت من المعركة والعنف وتوكيد الذات في العالم المعاصر . وكثيراً ما يكون للعنف وتوكيد الذات في رواياته قيمة بقائية واضحة . وهذه الخصائص لا تهدد النوع البشرى بالإفناء إلا في المجتمعات المتقدمة تكنولوجياً .

٥

في بويطيقا اليوطوبيا الولزية تأتي رؤيا الفردوس الأرضي على طريقة موريس في شكل استعارة - جميل وساحر ولكنه دائماً وهمي غرّار . وقد يكون الفردوس الأرضي وهماً خادعاً (كما في «آلة الزمن») أو عالماً موازياً استناداً إلى تشبيهه (كما في «رجال كالأله») أو أرضاً موعودة تأتي بعد تغييرات عظيمة ومخيفة (كما في «في أيام المذنب» وعلى مستوى مختلف في «المستر بولي»). ويقدم المدمر ، استناداً إلى تدخل الانسانية العنيدة - باستثناء رموز بعض الحداث - في شكل مفارقة . وقد تحدث برنارد برغونزي Bernard Bergonzi عن رومانسيات ولز العلمية المبكرة ووصفها بأنها «أساطير ساخرة»^{١١} ، وما ذكرته الآن عن الميتايوطوبيا عنده يكشف ثنائية ولز من التفاؤل والتشاؤم أو المجاز والمفارقة . ولكن هناك عنصراً ثابتاً لا يتجزأ من طوبائية ولز ، وما زال في حاجة إلى بحث^{١٢} .

في بداية «أغاني التجربة» Songs of Experience يستحضر بليك - وهو من الشعراء الذين درسهم ولز في ساوث كنزنگتن بدلاً من الاستعداد لامتحانات النهائية^{١٣} جنة عدن في الأبيات التالية :

تسمع إلي صوت الشاعر القديم !
وهو يرى الحاضر والماضي والمستقبل
أذناه قد سمعتا
الكلمة القدسي
الذي مشى بين الأشجار القديمة . . .

وجنة عدن موجودة عند وِلز - هي مجاز الفريوس الأرضى البرىء جنسياً -
ويوجد عنده أيضاً قوة مدمرة ساخرة ، هي أفعى العناد الانسانى . ولكن هناك
أيضاً صوت النبوءة ، صوت الشاعر القديم . فبعد عودة راوى «يوطوبيا حديثة»
من اليوطوبيا إلى لندن يرى ملاك الرؤيا «شكلاً شامخاً من اللهب والألوان يقف
بين الأرض والسماء وفى يديه بوق ، هناك فوق هايماركت ، فى وهج أكتوبر
(تشرين الثانى) ، وعندما ينفخ فى بوقه يستطيع كل الساموراي ، كل الذين هم
فى اليوطوبيا من الساموراي ، أن يعرفوا أنفسهم ويعرف الواحد منهم
الآخر . . . » (ص ٣٦٨-٣٦٩) . ومع أن الصورة تشير إلى سفر الرؤيا فإنها تشير
أيضاً ، فيما يبدو ، إلى نهاية الكتاب التاسع من جمهورية افلاطون حيث يقول :
«إن المدينة مبنية وفق نمط فى السمااء تتاح رؤيته لمن يرغب ، وإذا رآه فله أن
يرتب بيته . . . لأنه سيعيش على طريقة تلك المدينة ولن يكون له شأن بأية مدينة
أخرى»^{١٤} .

وتكمن قوة النبوءة فى صوت المتنبي أو كتابته : بوق الملاك ، رسالة العراف
الملغزة ، الكتابة على أوراق سبل (العرافة) . ومحتويات رؤى وِلز عن المستقبل
متفاوتة إلى حد كبير ولكنها تقدم جميعها فى شكل نبوءة . فالسرد الحلمى ضمن
سرد حلمى آخر (كما فى «فى أيام المذبذب») من الأنوات التى يتكرر استعمالها ،
إذ تتيح له أن يقحم أنوات التهكن بالمستقبل فى قصة هى من الناحية الفنية -
على حد تمييزه المقدم فى أول هذا الفصل - قصة طوبائية أكثر منها مستقبلية .
وكما رأينا فإنه حتى فى «يوطوبيا حديثة» يهدم اليوطوبيوغرافيا الفكرية
فى اللحظة التى يعطى فيها تأملاته خصائص «صوت» منفصل عن «صاحبه» .
فإذا كان الراوى ، صاحب الصوت ، أداة عرض ، يكون صوت صنوه الطوبائى
مُزاحاً نسبياً ونبوئياً .

إن عوالم وِلز الطوبائية موصولة بعالمنا العملى إما فى الفضاء
(العالم الموازى فى مكان آخر من الكون) أو فى الزمن كما فى ما أسميته
الروايات الملحقة . وهذا يعنى أنها لا تنفى ببساطة عالمنا العملى أو تشكل نقيضاً

مفارقاً له ، وإنما تركّب مع عالمنا كلاً أعظم . «اليوطوبيا مرحلة مأمولة تؤدي إلى مرتقى طويل من المراحل» («يوطوبيا حديثة»، ص ٥)؛ فهي «ليست إلا واحداً من أكوان لا تحصى تتحرك مع بعضها في الزمن ، وكل واحد منها مقابل الآخر بلا نهاية مثل أوراق الكتاب» («رجال كالآلهة» (٣-٤-٤) . ومعرفة جميع هذه المراحل أو العوالم أو الأكوان تقتضى تطوير وعى إنسانى تركيبى يمكن أن يمدّ إلى ما لا نهاية فى الفضاء والزمن ، ويستطيع قراءة كل الخلق كما لو كانوا كتباً فى مكتبة . ولذلك فإن موتيفات السفر فى الفضاء والزمن عند ولز ليست استعارة أو مفارقة بل تركيبية synthetic أو مجاز مرسل synecdochic . وكل عالم يبتدعه هو أو يزوره أبطاله هو «جزء» تكمن دلالاته النهائية فى كونه ينتمى إلى كل أكبر . وليس أى من يوطوبيات ولز غاية فى حد ذاتها ، وما من فردوس يفقد نهائياً أو يستعاد . ووراء كل ظهور للروح الطوبائية توجد يوطوبيا نهائية مؤسسة على «تطورات فى القوة والنشاط لا نستطيع فى الوقت الحاضر أن نضع لها حدوداً أو أن نكسبها شكلاً»^{١٥} . وينتهى عدد من نصوص ولز بتعبير عن استنباط كوني غير حاسم يعد بمعرفة الكون الأعلى الذى يتألف من جميع «الطوبيات topias واليوطوبيات المتاحة لبنى البشر وذريتهم» .

وقد تمّ التعبير عن هذه الرؤيا التركيبية الشاملة فى «يوطوبيا حديثة» بصوت صنو الراوى الذى يتحدث باسم الساموراي . فقد كان يتحدث عن رحلته السنوية فى البرية ، فراح يحكى ببلاغة كونية كان ولز قد استثارها فى «اكتشاف المستقبل» . ومن الجدير بالذكر أن غزو الفضاء فى اليوطوبيا هو من طموحات صفوة الساموراي وليس من طموحات الانسانية ككل ؛ فموقف الساموراي شاذّ ، كما رأينا من قبل ، فقد بدأوا ثورة حولت اليوطوبيا إلى دولة عالمية . فهل ما زالوا حركة ثورية فى الواقع رغم كل امتيازات الترتيب فى الهرم ؟ ومهما يكونوا فإنهم لا يستطيعون ببساطة (مثل حراس جمهورية افلاطون) أن يكونوا الحكام الأكفاء لمجتمع مستقر . ومن خلال أداة الصنو يوحى ولز بقوة بأنهم يواصلون إبداء القوة الأساسية ، وأن مشاريعهم ، إذا تحققت ، ستغير إن لم تدمر المجتمع

الخاضع لحكمهم بعد أن بذلت جهود مضمينة في بنائه . فالساموراي ثوريون ومتنبئون نصبوا ، بصورة غير مريحة نوعاً ما ، في قلب اليوطوبيا .

٦

في نهاية كتاب ولز يدعو ملاك البعث الساموراي من فوق هايماركت .
وجدير بالملاحظة أن ولز لم يستطع أن يبقى مفهومه للصفوة المتطوعة ضمن صفحات «يوطوبيا حديثة» . وقد كتب إليه أناس يعرضون أن يكونوا من الساموراي . وكان الشباب من أعضاء الجمعية الفابية يودون بصورة خاصة أن يتقمصوا هذا الدور^{١٦} . وفيما بعد ، في العشرينات والثلاثينات ، جدد ولز الفكرة باسم «المؤامرة العلنية» . (يصبح أفرادها جماعة ثورية ضاغطة من الديموقراطيين الأحرار ، مشكلة جزئياً على مثال النخبة المنضبطة في الحزب الشيوعي الروسي والفاشييين الإيطاليين) . وكان بعض الطوبائيين السابقين ، وبخاصة كاييه وبلمي الاشتراكيين ، ما زالوا أوفر نجاحاً في إثارة الجماهير وكسب المؤازرين . وإذا كان ما يشد خيال القراء إلى أولئك هو تصويرهم لمجتمع كامل ، فإن ما كان يجذبهم إلى ولز ربما لم يكن اليوطوبيا بقدر رؤيا الصفوة المنضبطة . (هناك فصل في «تجربة في السيرة الذاتية» بعنوان له دلالاته وهو «الساموراي - في اليوطوبيا والجمعية الفابية») . ومن الممكن فصل الساموراي من اليوطوبيا الحديثة ، كما أن معرفتهم بالمأزق الانساني تتجاوز كثيراً البنية المؤقتة للمؤسسات الاجتماعية والسياسات التي يرئسونها .

وفي مقاله لعام ١٩٣٩ عن اليوطوبيات ذهب إلى القول بأن العاملين في العلم هم الطوبائيون المحدثون الحقيقيون . والساموراي في «يوطوبيا حديثة» يشاركون في النظرة المتشائمة تجاه مكان الانسانية في الكون الذي كان عند ولز - عام ١٩٠٥ - نتاجاً حتمياً للتفكير العلمي . وهم مشغولون بالقانون الثاني في الديناميكا الحرارية وتوقعه «وقتاً تصبح فيه شمسنا حمراء وكميلة ، كما أن الهواء والماء سيتجمدان معاً في حقل ثلجي مشترك حيث الغابات الاستوائية تملأ

الجو بالبخر ٠٠٠» (ص ٣٠٧) . وقد أوجد ولز في «حرب الكواكب» مجتمعاً آخر يواجه عواقب التحول الداخلى (الانتروبيا) ، وهم المريخيون الذين يمثلون محاكاة ساخرة مخيفة «لإنسان السنة المليون» ، فقد اضطروا بسبب ابتعاد كوكبهم إلى البحث عن موطن آخر أقرب إلى الشمس . والساموراي ، مثل المريخين ولز نفسه ، يرون السفر فى الفضاء ، وفى النهاية بين الكواكب ، الطريقة الوحيدة للهرب من الفناء . وإذا كان الأمر كذلك فإن الراحة والاستقرار فى اليوطوبيا شئ خادع ولا بد أن يفضى إلى القلق وتخيلات مثقلات بالاستياء .

والأساس الجوهرى لليوطوبيا الكلاسيكية هو أن الإنسان حيوان سياسى تتحقق أغراضه العليا من خلال إبلاغ التنظيم الاجتماعى حد الكمال . غير أنه من الأصح ، بالنسبة لولز ، القول بأن هذا الرجل أو هذه المرأة حيوان كونى هدفه صون وتوسعة امبراطوريته البيولوجية فى وجه القوى المعادية التى يتعذر عليه إخضاعها بالكلية . وهذه النظرة الكونية التى ورثها ولز عن هكسلى وداروين هى من بعض الطرق معاكسة للطوبائية قطعاً . غير أن الدينامية وعدم الاستقرار فى يوطوبيا ولز الحديثة يشارك فيهما «اليوطوبيات العلمية» السابقة مثل «أطلانطس الجديدة» New Atlantis لبيكن ، التى تشدد على طلب زيادة المعرفة والقوة على الطبيعة دون حدود . ولا بد أن يكون لذلك تأثيرات اجتماعية ثورية أو على الأقل مزعزعة للاستقرار الاجتماعى . لقد حمل ولز الساموراي رسالة اجتماعية نبوية ، وهو بذلك يعرض بوضوح ما كان فى يوطوبيا بيكن مجرد إيماءة ضمنية مغلقة (ظاهر الأمر أن الزخرف الاحتفالى المعقد فى بيت سولمن Solomon's House ، وهو معهد البحث العلمى عند بيكن ، يجعل «أطلانطس الجديدة» من أكثر اليوطوبيات محافظة وهرمية) . وبصوت الساموراي تتخلى «يوطوبيا حديثة» عن التقليد الطوبائى وتفتح الباب ، بدلاً من ذلك ، للقصاص العلمى فى القرن العشرين ، باعتباره أدب النبوءة الكونية . فالحوادث السعيدة – الزائرون العجيبون ، المغامرات البطولية فى الفضاء ، الاكتشافات السحرية ، الأغراب المسالمون أو الذين يتم إخضاعهم – قد تساعد على ضمان بقاء بنى

الانسان فى المدى القصير (وهو ما يهم فى أعراف قصص المغامرات) ، ولكنها لا تستطيع أن تفعل شيئاً بشأن مصيرنا النهائى . وأولاف ستيفلدن وأيزك أزيموث وأرثر كلارك وج . جى . بالرد وفليب ك . دك كلهم ينتجون قصصاً موجهة نحو المستقبل من هذا القبيل . وقد حاول جيل أحدث من كتاب القصص العلمى أن يضموا التقليد الطوبائى مثلما حاول ولز . ومقياس اختبار جميع هذه الأعمال هو فى الدور الذى تخصصه للعقلانية العلمية وطلب العلم . ويبدو أنها لن تحتاج إلى أقل من نظرية معرفة جديدة . . . إلى بناء جديد للروح العلمية أقل دينامية واعتماداً على الطاقة ، لازالة عدم الانسجام الكامن بين اليوطوبيا والأدب المستقبلى العلمى .

هوامش الفصل السابع

- 1- H. G. Wells, *The Open Conspiracy: Blue Prints for a World Revolution* (London: Gollancz, 1928), pp. 51-52.
- 2 - –Hayden White, *Metahistory: The Historical Imagination in Nineteenth-Century Europe* (Baltimore: Johns Hopkins University Press, 1973), p. ix.
- 3- This should not be confused, however, with the use of the term 'meta-utopia' by some political scientists who seem quite innocent of the idea that a utopia is a particular kind of text rather than a kind of society. See for example Robert Nozick, *Anarchy, State and Utopia* (Oxford: Oxford University Press, 1974), pp. 297ff.
- 4- Indeed, David Y. Hughes has argued that 'Wells's notion of a utopia more nearly approaches to a hypothesis awaiting testing than to a "place"'. 'The Mood of A Modern Utopia', *Extrapolation* 19 (December 1977), p. 60.
- 5- H. G. Wells, 'The So-Called Science of Sociology', in *An Englishman Looks at the World* (London: Cassell, 1914), p. 205.
- 6- Herbert g. Wells, 'Socrates', *Science Schools Journal* I : 1 (December 1886), pp. 18 – -21
- 7 - –See for example H. G. Wells, *First and Last Things* (London: Constable, 1908); *The Work, Wealth and Happiness of Mankind* (London: Heinemann, 1932), pp. 63-69; *The Conquest of Time*, pp. 34 - 40
- 8 -H. G. Wells, *Tono-Bungay*, I, 1, iii. Cf. *Experiment in Autobiography*, I, p. 136, where the country-house is described as 'the experimental cellule of the coming Modern State'.

- 9- William Morris, *News from Nowhere*, ed. James Redmond (London: Routledge & Kegan Paul, 1970), p. 87. 'An epoch of rest' is the subtitle of Morris's 'utopian romance',
- 10- V. S. Pritchett, 'The Scientific Romances', in Bernard Bergonzi, ed., *H. G. Wells: A Collection of Critical Essays* (Englewood Cliffs, N. J.: Prentice-Hall, 1976), p. 32.
- 11- Bernard Bergonzi, 'The Time Machine: An Ironical Myth', in *H. G. Wells: A Collection of Critical Essays*, pp. 39- 55
- 12- —Many critics have viewed Wells's imagination as a theatre of dualistic conflict; for a persuasive example, see John Huntington, *The Logic of Fantasy: H. G. Wells and Science Fiction* (New York: Columbia University Press, 1982). Hayden White's interpretative system in *Metahistory*, on the other hand, shows a rigid attachment to fourfold categories. My own threefold hypothesis is indebted to Leon Stover, who in *Spade House Dialectic: Theme and Theory in "Things to Come"*, *Wellsian* ns5 (1982), pp. 23 - 22 , draws attention to Wells's interest in the symbolism of the Hindu trinity. In the argument that follows, Vishnu (the preserver) corresponds to the metaphorical element, Siva (the destroyer) to the ironic, and Brahma (the builder) to the synthetic.
- 13- H. G. Wells, *Experiment in Autobiography*, I, p. 241.
- 14- R. M. Hare and D. A. Russell, eds., *The Dialogues of Plato*, trans. Benjamin Jowett (London: Sphere, 1970), IV, p. 387.
- 15- H. G. Wells, *The Open conspiracy*, p. 51.
- 16- For the 'Samurai Societies' see David C. Smith, *H. G. Wells: Desperately Mortal*, p. 101.

الفصل الثامن

المستقبل نقيضاً لليوطوبيا :

ولز ، زمياتن ، أورول

يقول مايكل غلنى Michael Glenney : « إن الحلقة الرئيسية فى تقليد "نقيض اليوطوبيا" الانجليزى - الرجل الذى أدرك الإمكانيات الكامنة فى المنحى الأدبى لكاتب انجليزى من جيلنا أكسب تلك الامكانيات بعداً جديداً وسلّمها لأستاذين من الجيل التالى - كانت ، وهنا موطن الغرابة ، "انجليزياً" روسياً اسمه يفجيني زمياتن ^١ . والكاتب الانجليزى من الجيل السابق هو ولز ، والأستاذان من الجيل اللاحق هما ألدوس هكسلى وجورج أورول . وقد اعترف أورول أن كتابه « ١٩٨٤ » كان مديناً لكتاب زمياتن « نحن » We (١٩٢٠-١٩٢١) ، وأكد أن هكسلى لا بد أن يكون اعتمد عليه فى « العالم الجديد الجميل » ^٢ Brave New World (كان هكسلى ينفى ذلك دائماً) . وناقده آخر ، هو مارك هيلغاس Mark Hillegas العالم بالقصص العلمى ، وضع زمياتن فى سلسلة كُتاب القصص اللاطويائى المحدثين ابتداء من ولز ومروراً بهكسلى وأورول وإ . م . فورستر E. M. Forster وك . س . لويس C. S. Lewis والكاتب التشيكى كارل كاپيك Karel Capek . وقد أوضح هيلغاس أن طوبوغرافية دولة زمياتن المدينية الفاقدة للصفة الانسانية ، بمباني الشقق الضخمة فيها ، ودكتاتوريتها وأسوارها التى تحجبها عن العالم الطبيعى ، وبيت العصور القديمة الموحش ، قد بنيت من مواد « عندما يستيقظ النائم » و « قصة من الأيام الآتية » و « آلة الزمن » ^٣ . وضمّ زمياتن على أنه انجليزى « شرف » مناقض للطوبائية قد يكون مترتباً على منع كتبه فى وطنه خلال حياة الاتحاد السوفييتى ، ولكن ذلك لا يقول لنا شيئاً عن الروح التى كتب كتابه « نحن » بها . وهو فى كثير من الوجوه أقرب إلى ولز منه إلى الهجائين مثل هكسلى وأورول .

كان زمياتن مهندساً واشتراكياً ثورياً من أصل ريفي ناءٍ . وقد درس في معهد سنت بطرسبرغ بوليتكنك حيث التحق بالحزب البلشفي . وبعد ثورة ١٩٠٥ بسجن ونفى ، ولكنه عاد لاستكمال دراسته . وفي عام ١٩١٦ ، وبعد فترة أخرى من النفي لأسباب سياسية ، أرسل إلى إنجلترا للإشراف على بناء قوارب تحطيم الثلوج في أحواض تاينسايد Tyneside لحساب حكومة القيصر . ثم عاد إلى روسيا في سبتمبر (أيلول) ١٩١٧ وأصبح من الشخصيات المرموقة بين كتّاب اليسار في سنت بطرسبرغ ؛ غير أن صراحته وأفكاره الهرطقية جعلته يصطدم سريعاً بالحكومة السوفييتية الجديدة ، فمنع كتابه الخيالي « نحن » في الاتحاد السوفييتي ونشر لأول مرة مترجماً إلى الانجليزية عام ١٩٢٤ . وكان زمياتن ، كثير من زملائه الكتّاب في السنوات الأولى للثورة ، يعمل في شؤون التعليم وتنظيم دور النشر التابعة للدولة . وكان هـ . جـ . ولز من أوائل الكتّاب الأجانب الذين أعيد نشر مؤلفاتهم (كانت كتبه متوفرة على نطاق واسع في العهد القيصري ، وزار روسيا في سنتي ١٩١٤ و ١٩٢٠) . وبين سنتي ١٩١٨ و ١٩٢٦ أشرف زمياتن على تحرير سلسلة جديدة من ترجمات ولز ، وفي الوقت نفسه كتب « هيربرت ولز » (١٩٢٤) Herbert Wells وهو استعراض حي لأعمال الكاتب الانجليزي بكاملها . وقد احتفل زمياتن بولز باعتباره النموذج الأول للفنان الثوري الحديث ، وأنه خالق الأساطير المدنية الذي ارتاد بخياله المنظور الاشتراكي . وليس ثمة شك في أن مؤلف « نحن » كان يعدّ نفسه ليكون خليفة ولز .

كانت رومانسيات ولز تعكس بالنسبة لزمياتن الآفاق غير المحدودة للتغيير التكنولوجي ، وتعكس في الوقت نفسه النظرة المنطقية الجادة للثقافة العلمية . لقد كانت تلك الرومانسيات حكايات الجنيات لحاضرة مسفلتة ممكنة ، حيث حلّت مداخل المعامل وأنابيب الاختبار وعادم المحركات محل مناظر العالم الطبيعي وروائحه . ومن الواضح أن من ضمن ما كان يرمى إليه الكاتب الروسي هو تقديم ولز ناطقاً للغرب الصناعي – أي نتاج المناظر الحضارية التي لم تكن معروفة حتى ذلك الوقت في روسيا المتأخرة . وكان يعتقد أن صورة بيئة القرن

العشرين كما يعكسها ولز تشكل وحدها حادثة جوهرية. وقد لخص هذا الجانب من ولز في رمز الطائرة تحلق فوق عالم معين في بُعدٍ جديد لم يكتشف بعد. وكما أن المنظر الأرضي قد تغير بفضل إمكانية التصوير الجوي فإن الحرب والثورة تعملان الآن على تغيير الإمكانيات المرتقبة للإنسان. وقد سمى زمياتن ولز أكثر الكتاب عصرية لأنه استبق ذلك وعلم قراءه أن يروا بعيني طيار^٤.

غير أن زمياتن اضطر إلى الاعتراف بأن ولز عاد إلى الأرض ، بمعنى أنه ترك القصص العلمي واشتغل بالروايات الاجتماعية الواقعية. وبينما كان زمياتن يلمح إلى أن الروايات الاجتماعية قديمة الطراز ثانوية بالقياس إلى الرومانسيات العلمية ، فإنه استخدم كل روايات ولز لتأييد موضوعه الثاني ، وهو أن ولز فنان اشتراكي. وهو يقتبس في «هربرت ولز» مقاطع من مقدمة ولز لطبعة روسية من أعماله (١٩١١) حيث أعلن أنه ليس ماركسياً ولا ثورياً عنيفاً ؛ وبعبارة أخرى فإنه كان اشتراكياً مفرطاً مثل زمياتن نفسه^٥. وأكبر التواء مفاجئ في البحث هو تناوله لآخر طور مرّ به ولز حتى ذلك الوقت ، وهو تحوله القصير الأمد إلى إيمان بآله متناه كما أعلن في «المستر برتلنج يواصل حتى النهاية» عام ١٩١٦. لقد قام ولز بمحاولة عنيدة للجمع بين العقلانية والدين ثم تبدى له أن تلك محاولة سخيفة حتى بالنسبة له ، ولكنها كانت عند زمياتن دليلاً على استقلاله وشجاعته في التخيل. وفي أعقاب الحرب اتضح أن رؤى ولز السابقة قد تحققت ، فكتب زمياتن يقول : «إن الحياة كلها قد انتزعت من مرتكز الواقع وأصبحت من غرائب الخيال» (ص ٢٧٢). وكانت استجابة ولز أن واصل طريقته إلى أن مست المعنى النهائي للحياة. وكانت نتيجة دمج الاشتراكية والدين عملاً جريئاً ينطوي على تناقض ظاهري يعيد إلى الذاكرة وصل العلم بالأسطورة في الرومانسيات السابقة :

إن الدائرة الجافة المرسومة بالفرجار للاشتراكية والتي تحددها الأرض، والقطع الزائد للدين الذي يمتد إلى ما لا نهاية شيئان مختلفان جداً ولا ينسجمان أبداً. غير أن ولز استطاع أن يحدث صدعاً في الدائرة وأن يثنيها في القطع الزائد الذي يركز أحد طرفيه على الأرض، في العلم والفلسفة الوضعية، بينما يفقد الآخر نفسه في السماء (ص ٢٧٣).

ومع أن الدين الزائف الذى تضمنه « الرب الملك غير المرئى » God the In- visible King و«روح الأسقف» The Soul of the Bishop أحدث شيئاً من الضجة فى حينه، فإنه لا يستحق هذه الاستعارة . وصورة الدائرة المشئية داخل قطع زائد مرتبطة بالطيران الحلزونى للطائرة ، وكلاهما موجود فى مواضع أخرى من كتابات زمياتن ويستخدم فى صور رمزية لنظريته فى الفن . وفى مقالته « حول التركيبية » On Synthetism يقسم كل الفن إلى ثلاث مدارس تمثلها الرموز الرياضية + ، - ، - - (الايجاب ، النفى ، التركيب) . ويتطور الفن فى تتابع دياكتيكى مستمر إذ تسلم المدرسة الواحدة محلها إلى التى تليها . والمدارس الثلاث فى الطور الراهن هى النزعة الطبيعية (+) والرمزية والمستقبلية (-) و«الواقعية الجديدة» أو «التركيبية» - وهى فن ما بعد التكعيبية وما بعد آينشتاين الذى يجمع نقيضى التجربة الحديثة فى كونه واقعياً وخيالياً معاً . وتتميز التركيبية فى أنها تجزئ وتضع جنباً إلى جنب مستويات متنافرة ، وتنسب إلى أعمال بيكاسو Picasso

ويورى أننكوف Yury Annenkov وأندريه بلای* Andrei Bely وألكساندر بلوك** Alexander Blok ، وبطبيعة الحال زمياتن نفسه . ولكن هذا طور مؤقت وحسب ، لأن كل ثلاثية دياكتيكية عرضة لعملية مستمرة من الإزاحة والاتباع وفقاً لتذبذب أبدى بين طرفى الثورة والتحول الداخلى . والتطور عبارة عن سلسلة متتابعة من الانفجارات والدمج ، و« معادلة الفن هى معادلة لولب لا نهاية له »^٦ .

وقد أكدت هذه الأفكار التزامات زمياتن بالثورة الدائمة وبطبيعة الفنان الهرطقية . وهى مرتبطة بوجهة نظره عن ولز من عدة طرق . ففى القسم المعنون «نسب هربرت» فى « هربرت ولز » نقرأ أن الرومانسية الطوبائية التقليدية من مور إلى موريس تحمل علامة إيجابية وهى تأكيد رؤيا الفردوس الأرضى . وقد ابتدع ولز شكلاً جديداً من «الرواية الاجتماعية الخيالية» بعلامة سالبة :

★ أندريه بلای : كاتب روسى (١٨٨٠-١٩٣٤) . (المترجم)

★★ ألكساندر بلوك : شاعر روسى (١٨٨٠-١٩٢١) . (المترجم)

ليس هدفها تصوير فردوس في المستقبل وإنما النقد الاجتماعي بواسطة الاستقراء. ويكتنف هذه التصنيفات شيء من الغموض ، ولا يحاول زمياتن أن يشرحها ، ويبدو أنه يوجد ثمة أيضاً شكل مناقض للطوبائية تمثله العلامة (- -) . وعندما نتابع كفاح D-503 للوصول إلى الرشد العقلي في « نحن » ، وإذا نتأمل على عجل ونستن بسmith Winston Smith المغسول الدماغ في نهاية رواية أورول « ١٩٨٤ » ، نجد أن المؤلف يواجهنا باستحالة تصور أي مستقبل على الإطلاق بأي معنى للكلمة. فهل يكون هذا نفيًا للنفي ؟

إن مثل هذا المنطق يضع وِز في مركز وسط في جدل مناقضة اليوطوبيا . غير أن زمياتن يراه عادة بصورة أعم رمزاً لدينامية الخيال المعاصر . فالطائرة في طيرانها اللولبي إلى أعلى ليست وِز وحسب بل دالة على الكتابة المعاصرة ككل . وبالإضافة إلى ذلك فإن نجاح وِز متنبئاً بالتغيير أكد مركزه كفنان في الطليعة و« كواقعي جديد »^٧ فعلاً . لقد حطم الصورة المستقرة للمجتمع الفكتوري بمنطقة الغريب المتطلع إلى الأمام ، واستبق العصر الثوري الذي يكون الواقع نفسه فيه خيالاً . وقد أضفى عليه زمياتن فضل ابتداء نوع من الخرافة يعكس التجربة الحديثة - السرعة والمنطق وغير المتوقع . ومع كل ذلك كان هناك مجال واحد ظل فيه متخلفاً : « اللغة والأسلوب والكلمة - كل هذه الأشياء التي أصبحنا نقدرها في أحدث الكتاب الروس »^٨ . ومن استعارات زمياتن فيما يتعلق بالفن « الدرج اللولبي في برج بابل »^٩ . وقد بشر بثورة كلامية وتركيبية تولد اللغة « المشحونة بفولطية عالية »^{١٠} . وقد مضى في خلق هذه اللغة عندما كتب « نحن » . وإذا مضينا من رومانسيات وِز التنبؤية إلى « نحن » فإننا ندخل عالم مستقبل مشابهاً في طوبوغرافيته ، ولكن طبيعة التجربة تكون قد تغيرت تماماً ، فنكون أمام نوعين من الخيال مختلفين كل الاختلاف .

٢٠

تأخذ « نحن » شكل اليوميات . صحيح أن D-503 ، كاتب اليوميات ، يقوم ببعض المحاولات المخلصة لشرح مجتمعه للقراء والغرباء ، غير أن الصورة الاجتماعية التي تظهر (وهي الشيء الوحيد الذي يهتم ناقداً عقائدي الاتجاه مثل أورول)

حدّ الجنون . وبإخفاء مثل هذه الحقائق يتجنب الازاحة المحتملة للقصة بأكملها .
وتخبرنا « حرب الكواكب » منذ البداية أن المفهوم الانساني للكون قد مرّقه غزو
المريخيين ، ولكن الراوى يخاطبنا بالمدلولات الثابتة للخطاب العقلانى ،
ثم يطمئننا إلى أنه ما زال فى حالة استواء جوهري : «أما أنا فقد كنت مشغولاً
جداً فى تعلم ركوب الدراجة وفى سلسلة من الأبحاث حول احتمال تطوير أفكار
أخلاقية تسير تقدم الحضارة» (الكتاب الأول - الفصل الأول) . وما يصور فى
كل حالة هو محاولة بيولوجية وأنثربولوجية ؛ فالكتاب عرض لمجتمع غريب ، وفى
الوقت نفسه عرض لمحاولات مراقب للطبقة البورجوازية لمعرفة ذلك المجتمع
بالمعاينة (ومن هنا أهمية مراقبة الراوى للمريخيين من البيت الخرب الذى يمثل
«حجرة مظلمة» حرفياً) . والراوى فى «حرب الكواكب» ينجذب إلى المريخيين مع
أنه لم يرفض المعايير الانسانية رفضاً كاملاً كما فعل غلّور وپرندك . غير أن
سوفت وولز أدركا القدرة التدميرية المحتملة للروح العلمية . ويبدو أن محاولة ولز
التقليل من شأن هذا الادراك كانت أكثر تروياً من محاولة سوفت فى هذا الصدد
حيث أن اختياره الأدبى الواعى دفعه إلى الأخذ بأشكال سرد مستمدة من القرن
الثامن عشر ، وهكذا التقت النبوءة والمحاكاة الساخرة .

وقد أسقط ولز فى الرومانسيات اللاحقة المراقب العقلانى من أجل إدخال
شخصيات تشارك مباشرة فى العالم الغريب . وكانت النتيجة المعتادة - لسوء
الحظ - شكلاً من قصة المغامرات أشد جفافاً وأسهل مطلباً كالذى نجده فى
« عندما يستيقظ النائم » . وهناك عدد من التجارب المهمة فى القصة المزبوجة
مثل « أول رجال على القمر » و« يوطوبيا حديثة » ، أو الراوية المزدوج الشخصية
المبنى على السيرة الذاتية كما هى الحال فى «تونو - بنغاي» . ومهما يكن من
أمر فإن نموذج القصص العلمى عند ولز ظل تحويراً للأشكال القصصية فى
عصر التنوير استناداً إلى أدب الرحلات والتحقيقات الصحفية .

ونستطيع مقارنة أثر الانتقال من رومانسيات ولز إلى «نحن» بتجربة راوى
زمياتن إذ يتجاوز أسوار المدينة الخضراء :

عندئذ فتحت عيني وكنت وجهاً لوجه، في الواقع، أمام الشيء ذاته الذي لم يره أحد من الأحياء حتى ذلك الوقت إلا مصغراً ألف مرة، منزوع القوة، وقد غشي عليه زجاج السور الكثيف. والشمس - لم تعد كشمسنا موزعة بنسب متساوية فوق سطوح الأرصفة العاكسة كالمرآة؛ هذه الشمس كانت مؤلفة من نوع من الشظايا الحية لبقع تتقاذف دون انقطاع فتعمى العيون وتسبب دوارة في الرأس. والأشجار - كشموع تنغرز في السماء، مثل عناكب تقرفص مسطحة على الأرض مرتكزة على أقدامها الكثيرة العقد، كنوافير صامتة تطلق (ماء) أخضر... (ص ١٩٢-١٩٣)

هذه حقيقة جديدة، فلا هي ترى من خلال الزجاج (طريقة متكررة للرؤية عند ولز) ولا ترى حتى في ضوء العقلانية العلمية. فالتجربة متشظية وتعمى، والرأس يدور، والنفوس تفقد مركز ثقلها. والكاتب واقع تحت رحمة انطباعات متباينة، ولا يزيد على تسجيل دوافعه المتضاربة التي تتنامى حتى تبلغ من الحدة ما يبعث على الغثيان. ومع أنه يحاول السيطرة على وعيه بطريقة «عقلانية» فإنها طريقة مجتمع غير مجتمعنا.

٣

تبدأ «نحن» بأمر يدعو جميع «الأرقام» (المواطنين) لنظم قصائد أو وضع مقالات تمجد «الدولة الواحدة» لحملها على أول رحلة لصاروخ فضائي اسمه «إنتغرل» Integral للمساعدة على إخضاع سكان كواكب أخرى. وهذا الأمر، بالنسبة إلى الراوى D - 503 (الذي بنى الصاروخ) أمر مقدس، أما بالنسبة إلى القارئ فإن «فرض سعادة لا تحتمل رياضياً الخطأ» (ص ٢٣) على شعوب مجهولة يعتبر عملاً وحشياً. وهكذا فإن قيمة السفر في الفضاء تصبح موضع شك (وهذه لمسة غير شبيهة بولز)، بواسطة أداة الراوى الساخرة الذي يعبد الدقة الرياضية والخطوط المستقيمة. ولكن ما أن تتقرر غرابة نظرة D - 503 حتى يتضح أنه هو نفسه ممزق في الداخل، فيقوم بالكتابة الأدبية بحكم الواجب تجاه الدولة، ولكنه يختار أن يكتب، لا قصيدة طبقاً للأصناف الأدبية العامة

المعتمدة (شعر «الدولة الواحدة» غنى ومنوع مثل شعر «الهونيم» * Houhnhnms عند سوفت) ، وإنما سجلاً بسيطاً لانطباعاته اليومية. والتضارب بين الوعي الجماعى والخاص الذى يدل عليه عنوان الرواية يحدده اختيار الأول لطريقة الكتابة ، فهو يظن أنه يعبر عما نمرّ به «نحن» من تجارب ، ولكن سجله يصبح ذاتياً بشكل قاطع. ومع أنه يشعر عند بداية كتابة يومياته أن خديه متلهبان وأن طفلاً يتحرك فى داخله (ص ٤٤) – وتلك إشارات خطيرة لأن اللاعقلانية فى الاحساس وفى عاطفة الاخصاب من موتيفات الثورة فى الرواية (توق 90 - O إلى طفل يوازى الغريزة الابداعية لدى D - 503 ، وخلال الثورة القصيرة الأمد فى «الدولة الواحدة» يرى الأزواج يباشرون الجماع نون حياء على مشهد من الآخرين). وإذ يكتب D - 503 يومياته يزداد وعياً بعدم الاستمرارية فى أفكاره واختلال عملياته المنطقية. وأخيراً يذهب إلى الأطباء الذى يشخصون مرضه بأنه الورم المعروف بالروح ، ويفيدونه أن الوعي السليم ليس إلا وسيطاً كالمرآة ، ولكنه نما فيه قدرة ماصّة ، أو بعد داخلى يمسك بالأشياء ويحفظها فى ذاكرته. ويصبح هذا المرض وباء فى الدولة ، ويتقرر استئصال الخيال للقضاء عليه. إن السبب السطحى لتكون الروح لدى D - 503 هو وقوعه فى حب الفاتنة 1-330 ولكن سببه الحقيقى هو فعل الكتابة. إن هويته كرجل يرغب فى تدوين إحساساته هى التى توقعه فى أزمة عقلية ، واليوميات هى التى تشى به إلى الشرطة السرية بالإضافة إلى شركائه المتمردين.

وقد يبدو أن أحد أخطاء «الدولة المثالية رياضياً» أنها شجعت أعضائها على التعبير الأدبى – مثلما عبّرت عنه رواية راي برادبرى « ٤٥١ فهرنهايت » Ray Bradbury : Fahrenheit 451 من أن الأمور كان يمكن أن تسير فى يسر لو أن الكتب جميعها أحرقت. ومن الناحية الأخرى ربما كان D - 503 قد وقع فى شرك منصوب بمكر. وفى النهاية يتم إخماد التمرد واستئصال خيال D - 503 ، ويشهد تعذيب 1-330 تعذيباً علنياً ولكنه لا يحس إلا بالجمال الاسطاطيكي للمشهد. وبغض النظر عما نشعر به فإن قصته من وجهة نظر «الدولة» حكاية تحذيرية نموذجية. ولا نستطيع أن نكون على يقين من ذلك لأن زمياتن يوحى ضمناً بأن مجتمعه المستقبلى لا يمكن التعبير عنه ، فتجربة ذلك المجتمع وثقافته

* الهونيم جنس من الخيل أوتى العقل فى رحلات غلغر فأصبحوا يحكمون الياهو الجنس الأخرى الشبيه بالانسان.
(المترجم)

مبنيان بشكل يبقيهما غامضين نوعاً ما . ويحاول الراوى أن يشرح الأمور لأناس غرباء تجمدوا عند مستوى القرن العشرين فى التطور ، ولكنه يشعر أنه هو أيضاً مثل مربع هندسى كلف بشرح وجوده لبنى آدم: «آخر شىء يمكن أن يدخل عقل هذا الشكل الرباعى هو أن تقول له إن جميع زواياه متساوية» (ص ٤٦) . ومثل هذا القول يمكن أن ينطبق على وضع الكتاب نفسه .

إن اليوطوبيا الهجائية المعتادة تقيم صورة اجتماعية عن طريق المقارنات غير المتطابقة ، وهذا ما تفعله « نحن » أيضاً : مثلاً أبرز ما يقدره المجتمع المستقبلى من الأدب القديم هو جدول مواعيد القطارات . غير أن زمياتن يلمح إلى غربة مزعجة ومذهلة أكثر مما يمكن التعبير عنه بهذه الطريقة ؛ وهى تجربة جديدة يتم التعبير عنها بلغة أو لغات لم يسبق لها مثيل ، ذلك أن يوميات D - 503 مسرح لحوار متضارب . فشخصيته السوية يعبر عنها بخطاب منطقى قياسى فى شكله ويكثر فيه الاستعارة من الرياضيات والهندسة . (هناك كثير من المشابه من الأسلوب «التكنوقراطى» الجرىء الذى يستخدمه زمياتن فى مقالاته) . وهذه هى اللغة التى تدرب مواطنو «الدولة الواحدة» على أن يشككوا بها المنطق المعصوم الذى تقوم عليه أوامر الدولة الجافة . وحتى وجوه النساء كانت تحلل بمدلولات الأشكال الهندسية والدوائر والمثلثات . غير أن هذه اللغة الرياضية السوية لا تكفى لاحتواء تجربة D - 503 بكاملها . فهو قد يرى دماغه كآلة ، ولكنها آلة سخنت أكثر مما ينبغى فأخذت تبخر المنطق الذى يبردها . ويصبح شديد الاستشعار لذاته بصورة غير مريحة ، ولا تعود عملياته الذهنية يسرة وتلقائية . ويكشف تحليله لوجه 1-330 . عن مثلثين حادى الزوايا يشكلان الحرف «X» وهو الرمز الجبرى للمجهول . ويتبع ذلك عدد من المجاهيل ، وتُرد ذاكرته إلى رمز اللامعقول فى أساس الرياضيات التى تعلمها فى المدرسة وهو الجذر التربيعى لـ $(1-\sqrt{2})$. وسرعان ما يجبهه عالم كامل من الجنور الصماء ، مجسمات من $(1-\sqrt{2})$ تكمن فى فضاء التجربة الذاتية غير الاقليدسى . وتبدو الرياضيات لعقله المريض - وهى أسس - مجتمعه - وكأنها منقسمة على نفسها .

إن «X» أو العنصر المجهول في «نحن» يظهر دائماً في التجربة الشخصية. ونميزه لأول مرة في اللقاء مع 330-1، ونلمحه في نوعية حوارهما - متحسناً ، عفويًا ، مثيراً - الذي يناقش بحدة أجوبة الراوى الملتزمة بالقواعد في الخطاب السوى. لقد علموه أن يرد كل شيء إلى بيئة جعلت في أشكال رياضية ، ولكنه عندما يصف الانطباعات والناس تتلبس وصفه حيوية حادة العصبية. وإذا يتقدم في يومياته تتضاعف هيمنة الخطاب السوى ليأخذ محله أسلوب «نحن» «المتشظى» - الحركة التعبيرية المتحولة للتفكير التي تشكل التجربة الأساسية لقارئ زمياتن. فحالة الراوى وانتباهه سريعاً التطاير دائماً التغير ، وإحساساته وقتية ، وأفكاره عابرة ، صحيحة كانت أو هرطقية. وإذا يجد D - 503 نفسه ممزقاً بفوضى اللغة المختلفة الألوان ، يحاول جاهداً أن يحافظ على قناعته بأن التعبير عن الذات سيؤدي عاجلاً أو آجلاً إلى النظام والوضوح. ولكن ما يؤدي إليه في الحقيقة هو هوية منفصلة لا ينقذه منها إلا استئصال خياله.

إن «نحن» تصف حقاً ثورة في الشوارع ، ولكن مشاركة الراوى فيها مضطربة وعرضية ، لأن الساحة الحقيقية للمعركة موجودة في رأسه. فاللغات المستخدمة مستقبلية ، وباستثناء بعض الانحرافات المؤقتة فإن النقاط الثابتة التي يرجع إليها D - 503 مختلفة عن ثوابتنا. ثم إنه عندما تتجاوز تجربته الحدود التي تمت برمجته بالنسبة إليها ، لا يستطيع التمييز بوضوح بين الحقيقة والحلم. وقرار زمياتن بأن يتجنب أية وجهة نظر خارجية في السرد ، والدخول في مجاهل الوعي ، لا في السياسة والتكنولوجيا وحسب ، جعلت «نحن» واحدة من أبرز القصص العلمي في القرن العشرين.

٤

كتب زمياتن يقول : «إن الأدب الحي لا يعيش بساعة الأمس ولا بساعة اليوم ، وإنما بساعة الغد». «إن ما نحتاج إليه في الأدب هو آفاق فلسفية شاسعة - آفاق ترى من رؤوس الصواريخ ومن الطائرات. نحتاج إلى ما هو مطلق ومخيف وجسور إلى أقصى الحدود في السؤال " لماذا ؟ " و "ماذا يأتي بعد ذلك ؟ "»^{١٢}. وقد اكتسب مؤلف «نحن» الحق في وضع مثل هذه المطالب العويصة ، ولكنها

قلما تلبى إلا على ضعف فى ما جاء بعد ذلك من القصص العلمى والقصص المستقبلى ، بما فى ذلك كتابات ولز اللاحقة فى هذا المجال . فلغة معظم القصص العلمى الحديث لا تختلف كثيراً عن لغة الأدب الواقعى أو لغة الأنواع الأخرى من الرومانسيات الشائعة وقصص المغامرات . وعندما تظل المسلّمات الأساسية فى القصة والتشخيص دون تغيير فإن القدر المحدود من التجديد اللفظى لا يعدو أن يكون ، فى أحسن الأحوال ، نوعاً من التأنق المتكلف . وقد لخص إيثان يفريموف Ivan Yefremov - مؤلف القصة الفضائية السوفيتية الرائجة « أندروميديا » Andromeda - موقفاً نموذجياً بقوله :

إن الكمّ الضخم من المعلومات العلمية والمصطلحات المعقدة المستخدمة فى القصة هى نتيجة مقصودة . وقد بدا لى أن هذه هى الطريقة الوحيدة لكى نرى أحفادنا الأبعدين - وأن نعطيهم - اللون المحلى اللازم لحوارهم طالما أنهم سيعيشون فى فترة ينفذ فيها العلم إلى جميع المفاهيم الانسانية وإلى اللغة نفسها^{١٢} .

إن كل ما هو موعود هنا هو «اللون المحلى» الذى حققه يفريموف بإدخاله الرطانة العلمية فى المواقف الانفعالية التقليدية فى القصص العاطفى . وإذا كان موقف يفريموف هو المعيار ، فقد كانت هناك محاولات مميزة منذ محاولة زمياتن لخلق تجربة ووعى لثقافة غريبة عن طريق تغيير اللغة أو تغريبها . ومن الأمثلة المرموقة لذلك رواية وليم غولدنج « الوارثون » (١٩٥٥) William Golding: The Inheritors ؛ وغولدنج مثل زمياتن كان يوسع تراث ولز وينقضه . غير أن الرواية الأكثر تمثيلاً للوضع والتى تنقل تأثير زمياتن المباشر هى رواية جورج أورول « ١٩٨٤ » . وما يستجيب له أورول كفنان فى زمياتن ليس وحسب نقده الايديولوجى للدولة الدكتاتورية وفهمه لقسوتها المهووسة ، وإنما مهارته فى المحاكاة الساخرة . والقطعة المقتطفة من الجريدة الرسمية للدولة الواحدة التى يبدأ بها D - 503 يومياته تهىء نموذجاً للشعارات والبلاغات العامة الكثيرة فى « ١٩٨٤ » . غير أن استخدام اليوميات أداة للسرد يختلف كثيراً فى الروايتين . فيوميات ونستن التى يدرجها فى سرد تقليدى بضمير الغائب تشكل منفذاً

متقطعاً ومحدوداً جداً لأفكاره التمردية . وبعد الفقرات الأولى التى يكتبها وهو «أسير نوع من الهستيريا»^{١٤} لا يعود يشعر بأنه يكتشف مشاعره إذ يدونها مثلما يفعل D - 503 باستمرار . ومن السهل تمييز نشاطات ونستن كاتباً ونشاطاته متمرداً .

إن أورول يعطينا ، فى كثير من الوجوه ، استجابة فكاهى انجليزى ساخر لزمياتن . فتساهل «الدولة الواحدة» الصحى فى الأمور الأخلاقية ، بما فى ذلك أيام الإباحة الجنسية وصرف التذاكر الوردية ، يتحول (عند أورول) إلى اتحاد الأحداث المناوئين للجنس Junior Anti-Sex League . وبدلاً من «تحية للمحسن» نجد «الأخ الأكبر يراقبكم» . وأكبر المفاهيم المستقبلية عند أورول هو «الكلام الجديد» Newspeak ، وهو هجاء لأساليب الدعاية الحديثة ومشاريع اللغة العقلانية مثل «الانجليزية الأساسية» . ومع ذلك فإن نيوسبيك هو البيان الشعبى الوحيد فى أوقيانيا Oceania ، وقد وضعت مبادئه فى ملحق للرواية ، ولم يتقرر استعماله نهائياً إلا فى عام ٢٠٥٠ ، وما زال ونستن سمث يفكر ويتكلم باللغة الانجليزية العادية . ولذلك يمكن اعتبار «١٩٨٤» ترويضاً لطريقة «نحن» الحداثية التى لا جنور لها ، فهى هجاء نبؤى يضرب فى تقليد الواقعية الانجليزية ويدور فى أجواء لندن التى يعرفها أورول ، مع رؤية ملحقه للتغيير اللغوى . وقد ظل لاسم أورول فعل السحر خلال النصف الثانى من القرن دون وإز أو زمياتن . ومع ذلك فقد يتبدى أن فى «١٩٨٤» نوعاً من الكتابة المستقبلية التى لا يرجى أن تصبح من الأدب الدائم إلا قليلاً ، كما قال وإز^{١٥} . ومهما تكن ميزات كتاب أورول من حيث كونه رواية سياسية أو رواية سيكولوجية مثيرة فإنه يكون فى أضعف حالاته (حيث تكون «نحن» فى أقوى حالاتها) عندما ينظر إليه على أن عمل من القصص العلمى . وعلى ذلك فإن زمياتن ، لا أورول ، هو الذى يستحق أن يدرسه كتاب القصص العلمى فى المستقبل .

هوامش الفصل الثامن

- 1- Michael Glenny, 'Introduction' to Yevgeny Zamyatin, *We*, trans. Bernard Guilbert Guerney (London: Cape, 1970), p. 22. Subsequent page references in the text are to this edition of *We*. However, I have also consulted the translation by Mirra Ginsburg (New York: Bantam, 1972). I follow Ginsburg rather than Guerney in referring to Zamyatin's heroine as 'I-330' not 'E- 330'
- 2- George Orwell, review of *We* in *Collected Essays, Journalism and Letters*, ed. Sonia Orwell and Ian Angus (London: Secker & Warburg, 1968), IV, pp. 72- 75
- 3 - Mark R. Hillegas, *The Future as Nightmare: H. G. Wells and the Anti-Utopians* (New York: Oxford University Press, 1967), especially pp. 106-09.
- 4- Yevgeny Zamyatin, *Herbert Wells*, trans. Lesley Milne, in Patrick Parrinder, ed., *H. G. Wells: The Critical Heritage* (London and Boston: Routledge & Kegan Paul, 1972), p. 274. Subsequent page references in text.
- 5- Wells's essay was published in English as 'Mr Wells Explains Himself'.
- 6- Yevgeny Zamyatin, 'On Synthetism', in *A soviet Heretic: Essays*, ed. Mirra Ginsburg (Chicago and London: University of Chicago Press, 1970), p. 82
- 7- See for example Yevgeny Zamyatin, 'On Literature, Revolution, Entropy, and Other Matters' in *A Soviet Heretic*, pp. 107-12.

- 8 - Yevgeny Zamyatin, Herbert Wells, pp. 268-69.
- 9 - Yevgeny Zamyatin, 'On Synthetism', p. 81.
- 10- Yevgeny Zamyatin, 'On Literature, Revolution, Entropy', p. 111.
- 11- J. Hillis Miller, *The Form of Victorian Fiction* (Notre Dame and London: University of Notre Dame Press, 1968), p. 621.
- 12- Yevgeny Zamyatin, 'On Literature, Revolution, Entropy', p. 109-10.
- 13- Ivan Yefremov, *Andromeda: A Space-Age Tale* (Moscow, 1959), dustjacket quotation.
- 14- George Orwell, *Nineteen Eighty-Four* (Harmondsworth: Penguin, 1954), p. 19.
- 15- H. G. Wells, 'Utopias', p. 117.

الفصل التاسع

من النبوءة إلى المحاكاة الساخرة

القصص العلمي والتنوير العلمي

تعتور الكتابة عن العلاقة بين العلم والقصص العلمي مشكلات عديدة ومتنوعة. فتعريف المصطلحات وحده لا يكفي، وإنما ينبغي أيضاً تبديد الشكوك المنبثة حول كون هذه العلاقة عارضة لا جوهرية. هل يتعين أن يكون الحرفان SF (ق ع) دالين على القصص العلمي*؟ كثيرون يودون أنهما ليسا كذلك. ويستطيع المرء أن يجمع قدراً كبيراً من مختار أقوال التأييد أو النفي لعلماء ممارسين (وإن كان آرثر كلارك يرى أن هؤلاء علماء من الدرجة الثانية لا يعتد بهم)^١. ولكن يمكن جمع طائفة من المختارات أكثر حيوية تستعرض كتاب قصص علمي، وبخاصة الحديثين منهم، يهيلون ازدراءهم على الفكرة القائلة بأن عملهم يتصل من قريب أو بعيد بالعلم النظامي. ويقول كيرت فونغت Kurt Vonnegut عن بطله كلغور تراوت Kilgore Trout: «وكمعظم كتاب القصص العلمي كان تراوت لا يكاد يعرف شيئاً من العلم، وكانت تُسَمِّه التفصيلات الفنية أشد السأم»^٢. وهذا هو بريان ألدس Brian Aldiss يؤكد أن «معظم القصص العلمي راسخ في العلم مثلما أن حشو البيض لحم الخنزير»^٣.

ويستطيع المرء أن يرد على هذه الأقوال بأنها غير صحيحة، وليس عسيراً إثبات ذلك. فقليل جداً من التطورات المهمة في العلوم الحديثة من فيزياء وفلك وسبرنيات وأحياء وجينات وراثية – ونكتفي بهذه – لا تجد صدى لها في قصص علمية. ثم إن إنكار كل صلة بين العلم والقصص العلمي ضرب من الهرطقة المقصودة؛ فقد ظل كتاب القصص العلمي في إنجلترا وأمريكا جماعة متفوقة على ذاتها، منبتى الصلة بالتيار الرئيسي للثقافة الأدبية بسبب تأييدهم العلني الصريح لقيم العلماء والتكنولوجيين. وبعد عام ١٩٦٠ أصبحت هناك رغبة واضحة في الخروج من هذه القوقعة الضيقة وإثبات وجود صلة لا تنفصم بين

* الاحتمال الآخر هو أن يدل الحرفان SF على Science Facts (حقائق علمية).
(المترجم)

القصص العلمي وأنواع القصص الأخرى المعاصرة . وفي الوقت نفسه طرأ قدر من عدم الثقة بالنظرة العلمية إلى العالم ، تلك النظرة التي ألهمت كثيراً من الكتاب في العقود الماضية . لقد بدأت فترة سيادة المادية العلمية - وهي إيديولوجية تبرر البحث العلمي باعتباره جوهرياً لمعنى وجود الإنسان وغايته - بالانتصارات التكنولوجية وتراجع المعتقدات الدينية التقليدية نتيحة للثورة الصناعية . وما كان للقصص العلمي أن ينمو كصنف مستقل لولا هذه السيادة .

عندما أصدر هيوغو غيرنزباك Hugo Gernsback - وهو الذي يعتبر مخترع الصنف الأدبي المسمى القصص العلمي-مجلته « قصص عجائب العلم » Science Wonder Stories (يونيه - حزيران ١٩٢٩) صدر العدد الأول منها ببيان لسياسة المجلة قال فيه : « لن ينشر فيها سوى القصص المستمدة من القوانين العلمية التي نعرفها ، أو التي تعتمد على استقراء قوانين جديدة مما نعرف » . وأعلن في الوقت نفسه أنه شكل هيئة من الخبراء للحكم على الصحة العلمية في القصص التي تقدم إلى المجلة^٥ . وكان غيرنزباك قبل ثلاث سنوات قد نحت مصطلح « العلمنة » "Scietification" وقد عرفه كما يلي : « أعني بهذه الكلمة القصص على منوال جول فيرن و هـ . ج . ولز وإدغار ألن پو : رومانسية أخاذة ممزوجة بالحقيقة العلمية والرؤيا النبؤية »^٥ . ومن خلال هذا المزج بين الأصناف يمكن أن يقال إن الرؤيا النبؤية عند كتاب القصص العلمي هي التي حملت دينهم الخيالي العام للإيديولوجية العلمية أكثر بكثير مما انعكس في دقة التفصيلات . وقد وجدت هذه الإيديولوجية أتم تعبير لها في قصص كالتى تدور حول السفر في الفضاء مع أنها في كثير من الأحيان تنتهك « الحقيقة العلمية » بشكل فاضح .

لا شك أن هيئة الخبراء العلميين في «قصص عجائب العلم» كانت ستطوِّح بكتاب مارى شلى « فرانكنشتاين » (١٨١٨) إلى الخارج . ومع ذلك فإنه من أوائل روايات القصص العلمي لأنه يأخذنا إلى المختبر ويرينا النتائج المرعبة لأبحاث عالم في أسس الحياة . ففكتور فرانكنشتاين يوجد الحياة بجمع مواد الجسم الانساني من غرفة التشريح والمسالخ ثم يجلفن المخلوق « بالشرارة الحيوية » من الكهرباء .

والذى يوحى بقوة الكهرباء هو العواصف الرعدية التى تدمدم فى الرواية ، وشفقتا المخلوق الرهيب المسودتان وجلده الداوى المتجعد . فالعلم فى هذه الميلودراما الموحشة متهم بإفساد القدرة الهائلة للقوى الطبيعة من أجل غايات شريرة ، إذ تؤدى أبحاث فرانكنشتاين إلى إلحاق أضرار لا علاج لها به وبأسرته ، وكانت كلماته الأخيرة تحذيراً من الطموح إلى التميز فى العلم والاكتشاف .

ويظل المخترع الشيطانى المنعزل شخصية كلاسيكية فى «الرومانسية العلمية» ، غير أن تطوير هذا الصنف الأدبى على مدى القرن التاسع عشر يعكس انتظام المؤسسة العلمية بصورة ثابتة ، إذ أخذت «الاكتشافات» و «الاختراعات» غير المنسقة تخلق المجال لبرامج منظمة للتعليم والبحث . فرومانسيات جول فيرن تنطوى على عنصر من الثقافة العلمية دون عناء . وولز بدأ بتأليف الكتب المدرسية فى علم الأحياء (البيولوجيا) وعلم وظائف الأعضاء (الفسيولوجيا) ؛ وأجريت مراجعات لبعض رواياته الأولى فى المجلة العلمية «الطبيعة» Nature وفى دوريات أخرى أكثر تمسكاً بالأعراف . ثم إن التوسع فى تأسيس الجمعيات العلمية والمجلات المتخصصة والمختبرات والمسابقات الجامعية خلال العهد الفكتورى أضفى على كلمتى « عالم » Scientist ومتخصص Specialist (وضعت الكلمتان عام ١٨٤٠ و ١٨٥٦ على الترتيب) قدراً متزايداً من التقدير العام . وما سماه توماس هكسلى « الروح الأخلاقية » للعلم – بما ينطوى عليه ذلك من شك وتجريب وموضوعية متشددة – كان لها تأثير واسع فى الفكر الاجتماعى والآداب والفنون . وكان العلم والتكنولوجيا يمسكان المفتاح إلى « التقدم » ومن ثم كان التقدم يمثل استثمار المجتمع البورجوازي فى مستقبله .

وقد كان أعمق تأثير للفكر العلمى فى القصص حيث وُجد فيه عرق قوى من الخيال النبوى . ولعبت احتمالات السفر فى الفضاء والتطور إلى أبعد من حدود الانسان دوراً مهماً فى هذا المجال . فالسفر فى الفضاء كان الحلم القديم الذى يستهوى العقلانى الفكتورى باعتبار أنه يمثل الهدف النهائى للتقدم البشرى . وهكذا فإن ونود ريد يتطلع فى كتابه « استشهاد الانسان » (١٨٧٢)

(وهو استعراض وضعى لتاريخ الانسان ظل يطبع خمسين سنة وكان ما يزال تباع منه عشرات الألوف من النسخ فى عشرينات هذا القرن) إلى زمن تكون الأمراض فيه قد استؤصلت وتمّ «اختراع» الخلود ، وأصبح فى وسع الانسان الهجرة فى الفضاء . ويتنبأ ريد أن الأرض ستصبح « أرضاً مقدسة يزورها الحجاج من مختلف انحاء الكون »^٦ . وأخيراً يسيطر الانسان على قوى الطبيعة ويشعر فى بناء أكوان جديدة . ومن الواضح أن «دين الانسانية» عند ريد موضوع على مثال الديانة المسيحية ، ومع الوقت يستولى العلماء على مهمة الرب . وقد سخر من هذه المنظورات مراقبون علميون أكثر استواء فى العقلية بما فيهم هكسلى الذى ألقى عام ١٨٦٠ محاضرة بعنوان : « من الأفضل تحسين المعرفة بالطبيعة » On Advisableness of Improving Natural Knowledge نفى فيها كون العلم عرابة تحضر «قناديل علاء الدين الكلية القدرة» كما تحضر «التلغرافات إلى زحل»^٧ . غير أنه مع اختراع الطيران الآلى فى أوائل القرن العشرين لم يعد السفر فى الفضاء يبدو شيئاً سخيلاً . ثم جاء اكتشاف النشاط الاشعاعى واعداء باطلاق مصدر لطاقة غير محدودة . وفى أثناء ذلك حدثت تطورات فى علم الأحياء أدت إلى الحد من الشيخوخة والمرض ، وفوق ذلك وسعت الأمل فى «تحسين» مخطط للجنس البشرى عن طريق هندسة الجينات الوراثية . ولكن لم يظهر إلا فى العشرينات كيان متماسك يجمع فى إطار كل عناصر رؤية المستقبل التى أصبحنا نسميها «الخيال العلمى» Fictional-Science . وفى هذا الكيان للفكر العلمى الشائع ، وبخاصة فى أعمال ولز و ج . ب . س . هالدين و ج . د . بيرنال J. D. Bernal ، نستطيع أن نجد أهم صلة بين المادية العلمية والقصص العلمى الحديث .

والأسباب التى جعلت هذا المنظور المستقبلى أو « التنوير العلمى » يتخذ شكلاً متماسكاً فى الوقت والمكان اللذين نشأ فيهما هى أسباب بالغة التعقيد ، وكل ما نستطيعه هنا هو أن نقدم بعض الآراء القليلة . لقد بلغ التفاؤل العلمى ذروته فى العشرينات كرد فعل للتفكير التقليدى الذى كان يُظن أنه السبب فى نشوب الحرب العالمية الأولى . ومع أنه كان حركة عالمية فإنه لقى أقوى بيان

فكرى له فى أوروبا، وبخاصة فى انجلترا ؛ أما فى أمريكا فقد كان أصدق من يمثله غيرنزيك وخلفاؤه فى مجالات القصص العلمى . وقد ارتوى كثيراً أن التنوير العلمى كان إيديولوجية طبقة جديدة من المهندسين والخبراء الفنيين ، وهم قطاع من البورجوازية الصغيرة التى كانت تأمل فى كسب الكثير من القوة والتأثير إذ يظهر المجتمع المخطط الذى كانت تتوقعه إلى حيز الوجود . وكان ولز يرى نفسه نبى «مؤامرة علنية» من العلماء والفنيين والصناعيين الذين سيتولون الحكومة العالمية ، فيما كان هالدين وبيرنال يدعوان إلى الجمع بين الاشتراكية ومكانة المتخصص العالمية على النحو الذى وجداه فى الاتحاد السوفييتى .

أما فى انجلترا وأوروبا فإن تصور مستقبل اشتراكى علمى كان يتعارض مع البنية الاشتراكية القائمة أو التى هدمت مؤخراً (فى روسيا) . غير أنه كان يُنظر إلى الولايات المتحدة على أنها مجتمع دينامى مولد للثروة سبق إلى تمثيل «المستقبل» . وفى أمريكا وضعت التطورات التكنولوجية فى خدمة رأسمالية موجهة نحو الاستهلاك بأسرع مما كانت عليه الحال فى أوروبا حيث كانت الأولوية تعطى فى الغالب للدفاع الوطنى . ولعل هذه هى الأسباب التى جعلت أشد دعاة المادية العلمية فى أمريكا وأقواهم تأثيراً يميلون إلى التعبير عن موقف أضيق كثيراً وأطوع فى التوجيه من نظرائهم الأوروبيين . وقد نشأت البرغماتية («ما ينجح فهو صحيح») فى فكر تشارلز بيرس C. S. Peirce ووليم جيمس ومهدت الطريق لأساليب «الهندسة الاجتماعية» التى نادى بها ف. و. تيلر فى «مبادئ الإدارة العلمية» (١٩١١) F. W. Taylor : Principles of Scientific Management ثم نادت بها من بعد المدرسة السلوكية فى علم النفس . وهدف الهندسة الاجتماعية هو زيادة الفاعلية بتحديث جميع نواحي الانتاج الصناعى . وهكذا فإن مداها يمتد من دراسة الوقت والحركة التى كان يدعو إليها تيلر (وهجاءها زمياتن فى «نحن») إلى برامج الرعاية الاشتراكية التى جاء بها «البرنامج الجديد» * New Deal فى

* البرنامج الجديد برنامج للانعاش الاقتصادى والإصلاح الاجتماعى وضعه فرانكلن روزفلت للفترة ١٩٣٣-١٩٤٠ للتغلب على آثار انهيار الاقتصاد الأمريكى عام ١٩٢٩ وما ترتب عليه من بطالة .

الثلاثينات . وقد تصور ب . ف . سكينر فى روايته الطوبائية «والسدين ٢» B. F. Skinner: Walden Two امتداد «الإدارة العلمية» للتحكم فى السلوك الانسانى كله، إذ تصور مجتمعاً مثالياً مؤسساً ضمن النظام الرأسمالى القائم . وحسب سلوكية سكينر يمكن تحقيق الانجاز الانسانى نتيجة للأساليب السيكلوجية المطبقة دون أى تغيير بنيوى أو سياسى فى دنيانا .

وبعد الحرب العالمية الثانية أدى تطوير ترسانة الأسلحة النووية والحرب الباردة بين الشرق والغرب إلى إنتاج طور جديد من المادية التكنولوجية الأمريكية . فقد أصبحت التجديدات التقنية والتقدم العلمى السلاح السرى لدى أمريكا فى جهودها للمحافظة على التفوق الذى اكتسبته فى ساحات القتال فى أوروبا والشرق الأقصى . وأصبح «سباق الفضاء» صورة للمنافسة بين القوى العظمى وليس صورة للمجهود الانسانى الموحد الذى دعا إليه ولز وخلفاؤه . وبات إقرار «علم المستقبل» كفرع من علم الاجتماع موضع ريبة قاتلة لارتباطه بالمنظورات القاسية لدى واضعى الاستراتيجيات الحربية مثل هيرمن كان Herman Kahn . والمنظور العلاجى لكتاب رائج مثل كتاب ألثن توفلر «صدمة المستقبل» Alvin Toffler: Future Shock يعكس تجريد التقدم العلمى من الانسانية لأنه شىء تفرضه الضرورات الاقتصادية القومية بغض النظر عن الإرادة الاجتماعية أو السياسية . وتوفلر غير معنى باتجاهات التغيير المرغوب فيها لذاتها ، وإنما همّه طرق تخفيف وقع التغيير غير الموجه على الفرد . والميل إلى التركيز على نفسية الفرد باعتباره الوحدة الاجتماعية الأساسية يشترك فيه دعاة الهندسة السلوكية من جهة ومناوئو العقلانية والصوفيون الجدد من جهة أخرى .

٢

إن مركز المادية العلمية عند ولز وهالدين وبيرنال وخلفائهم لم يكن العقلانية التكنولوجية المجردة من الصفات الانسانية ، ولا الفرد المجزأ ، بل كيان «الانسان» : ليس الانسان من حيث أنه كائن من خلق إلهى أو أنه النموذج الأكمل للعقل ، وإنما من حيث أنه نوع بيولوجى منافس . وقد أصبح اليوم

استعمال كلمة "man" (رجل) للدلالة على النوع (ومعه تقليد فكري يمتد من عصر النهضة إلى القرن العشرين) موضع تساؤل واسع ، وقد كان للنقد النسوي دوره في إثارة هذا التساؤل . صحيح أن قدراً من انزلاق المفاهيم كان واسع الانتشار في التنوير العلمي ، وإن لم يكن من (man) إلى «الكائن الانساني الذكر» (male human being) كما يُذكر كثيراً ، وإنما أصبحت كلمة (man) (الانسان) تعني (civilized man) (الانسان المتحضر) وبالتالي modern West-ern man (الانسانى الغربى الحديث) ؛ وأصبح معنى الحداثة القدرة على البحث العلمى . وأصبحت المقولات العلمية عن «بقاء الانسان» تعكس اهتمام الكتل الاجتماعية التى ينتمى إليها العلماء . وأصبحوا فى أحسن الأحوال يتوقعون أن تعمل هيئات عالمية كالأمم المتحدة (وسلفها عصبة الأمم) على إحداث التغييرات المرغوب فيها . وكانت فكرة عصبة الأمم عن العمل الجماعى من قبل الحكومات لضمان السلام والأمن المتبادل انعكاساً لمثالية برزت من مجزرة الحرب العالمية الأولى ، ولكنها كانت تنم أيضاً عن رغبة فى تجنب «فوضى الثورات» كالثورة التى قامت فى روسيا . وقد اعتبر بعض المفكرين العلميين (إن لم يكن كلهم) فى العشرينات والثلاثينات أن مصلحة «بنى البشر» شئ مسلم به . ويمكننا أن نجمل فيما يلى تعبيرهم عن المشكلات والاحتمالات التى تواجه «الانسان» ، وهو تعبير موجود فى أعمال ولز ، وقد وسعه خلفاؤه كثيراً ، وبضمنهم بعض كتاب القصص العلمى :

١- التحدى المباشر للانسانية هو التدمير الذاتى الكامن فى التطور الحالى للتطور الاجتماعى والتكنولوجى . وفى الحرب العظمى ١٩١٤ - ١٩١٨ أطلق كابوس الحرب التكنولوجية الذى توقعه ولز وآخرون من كتاب القصص المستقبلية ومن المتوقع أن تكون الحروب القادمة حروباً عالمية تدمر الحضارة بمجملها . وقد أصبحت الحرب لاعقلانية لأنه لم يعد هناك طرف يخرج منها رابحاً . فإذا أُريد تجنب الحروب الكبرى فعلى الشعوب المتقدمة أن تكبح «عفاريته الداخلية» وعفاريته الآخرين . ويمكن تحقيق هذا الكبح بإطار من التنسيق القانونى والسياسى على الصعيد الدولى ، وينشر التعليم وإعمال

الهندسة الاجتماعية (أى الاصلاح الاجتماعى الموجه من أعلى) للقضاء على الفقر والظلم - وهما مصدر الإحباط وعدم المساواة اللذين يولدان الديماغوجية (التهويش الجماهيرى) وهستيريا الجماهير - وينقل السلطة إلى نخبة علمية.

٢- عندما يتطلع الفكر العلمى إلى ما وراء آفاق الأزمة المباشرة فإنه يدخل البعد الأخرى الذى يشكل مجال كثير من القصص العلمى . وإذا تم التغلب على مشكلات الحرب والفقر والإحباط والجهل فما الذى يأتى بعد ذلك ؟ من وجهة نظر التطور تستطيع الانسانية - إذا شأنت - أن تطبق مبادئ الهندسة الاجتماعية لتحقيق مزيداً من التقدم . وبما أن عملية التطور ليس لها وضع نهائى - إلا فى حالة الفناء - فإننا لا نستطيع أن ننظر إلى استقرار أو صيانة أى من ملامح حضارتنا الحالية على أنه هدف بعيد الأمد . وعليه لا بد من أن يكون الهدف هو الارتفاع فوق هويتنا الثقافية الراهنة ، ومع الوقت فوق هويتنا البيولوجية . ويقدم تصور «الارتقاء إلى ما وراء الانسان» عادة بمزاوجة غريبة بين علم الأحياء والسبرنيات ، ويكون وارثو الحضارة الانسانية إما كائنات حية متمددة الأدمغة جداً (كما عند ولز وستيبلدن) أو آلات حاسبة تحررت من صانعيها الأدميين . وتتخذ الخطوات الأولى نحو مزيد من التطور عندما يتعلم بنو البشر أن يعيشوا فى بيئات اصطناعية تماماً ، وأن يستهلكوا غذاء اصطناعياً ، وأن يتبنوا طرقاً اصطناعية للتكاثر وإطالة العمر .

٣- تعويضاً عن فقدان أسباب الحياة الطبيعية يكون أمام الانسانية آخر وأعظم التحديات الفيزيائية التى تواجهها ، وهو السيطرة على الفضاء . وبعد أن كانت أبحاث الفضاء رسالة عدد قليل من الكتّاب والمفكرين الذين كانوا موضع سخرية الجمهور أصبحت الآن حقيقة اقتصادية وحربية معاً ، وأصبحت أحد العناصر الرئيسية فى فنتازيا إمتاع الجماهير .

وبينما تنتظر الإمكانية العملية للسفر إلى الكواكب اكتشاف وسيلة للدفع بأسرع من الضوء ، فإن السفر ضمن المجموعة الشمسية يعتمد على توسعة بسيطة فى تكنولوجيا النقل التى أنتجت السيارة والطيارة النفاثة .

فتورة منتصف القرن العشرين فى الموقف من الفضاء مسجلة بصورة مليئة بالحيوية فى دوريات مثل «مجلة الجمعية البريطانية للسفر بين الكواكب» Journal of the British Interplanetary Society التى أسسها عام ١٩٣٤ مجموعة صغيرة من الحالمين ، ثم أصبحت فى عام ١٩٤٠ المجلة المتخصصة لمهندسى الصواريخ ، ومعظمهم كانوا يعملون فى مشاريع أبحاث تساعد الحكومة . وقد كتب آرثر كلارك فى المجلة فى ديسمبر (كانون الأول) ١٩٤٦ أنه تذكر أن ج . ب . س . هالدين تنبأ فى «العوالم المحتملة» (١٩٢٧) Possible Worlds بالسفر فى الفضاء عام المليون الثامن ، وعندئذ خطر لـكلارك أنه من المحتمل أن يتجه صاروخ موجه إلى القمر بحلول عام ١٩٥٠^٨ . وقبل ذلك ظل المفكرون العلميون وكتاب القصص العلمى عقوداً يبحثون احتمالات استعمار الكواكب القريبة واستغلال الثروة المعدنية فيها ، وبيع عقارات عليها ، واحتمال اكتشاف أشكال الحياة الغريبة . وقد أصبح «الفضاء» خط الحدود الجديد للخيال ، وآخر مستودع لحلم المستعمر بأن يخلص من متاعبه ويبدأ من جديد ، والهدف النهائى لسعى الرأسمالية إلى التوسع الدائم .

ومن وراء الفوائد العملية لفتح المجموعة الشمسية فإن السفر فى الفضاء كانت له دائماً جاذبية شبه دينية لعقول معينة . وقد سبق أن ذكرنا أن «استشهاد الانسان» لـونود ريد من الأمثلة على ذلك ؛ ولعل ولىز أهم كاتب يردد صدى النشوة الدينية التى كتب بها ريد عن الفضاء . ونجد ولىز فى «اكتشاف المستقبل» يتطلع إلى وقت تستطيع فيه «الكائنات الكامنة فى أفكارنا والمخبأة فى أصلابنا أن تقف على هذه الأرض مثلما يقف المرء على مسندٍ للقدمين ، وتضحك وتمد أيديها بين النجوم» (ص ٣٦) . ومثل صانعى الأكوان الذين تنبأ بهم ريد ، سيكون الأطفال الإنسيون هؤلاء ، الذين يتخنون من السماوات ملعباً ، البدائل للآلهة التقليدية .

وهناك على المدى البعيد سبب قائم لمحاولة السفر فى الفضاء قلما توانى المفكرون العلميون عن التنبيه إليه ، وهو أنه سيأتى وقت (ربما بعد ملايين السنين) لا تعود الأرض فيه قادرة على إعالة الحياة الانسانية ؛ وستصبح

الهجرة الجبرية مفتاح البقاء سواء أكان ذلك نتيجة لابتعاد الكوكب الطبيعي أو بسبب كارثة من صنع الانسان . والتيقن من أن الجنس البشرى ، بعد أن اجتاز الأخطار المباشرة ، لا بد له فى يوم من الأيام من مواجهة الخيار بين مغادرة الأرض والفناء ، يجعل السفر فى الفضاء يبدو شكلاً من التكيف الارتقائى الإيجابى . فالفضاء جوهرى فى التنوير العلمى لأنه لا يمثل وحسب المستقبل للانسان بل مصيره .

٤- يُقال إن لينين قال بعد قراءة أعمال ولز : « إذا استطعنا الدخول فى اتصال مع الكواكب فإنه ينبغى أن نعيد النظر فى جميع أفكارنا الفلسفية والاجتماعية والأخلاقية ، وفى تلك الحال تصبح الاحتمالات التكنولوجية بلا حدود وتضع حداً للعنف كوسيلة للتقدم »^٩ . ويبدو أن الاحتمالات الاحصائية تؤيد الاستنتاج بأنه يوجد -أو وجد- أحياء عقلاء فى مكان آخر من الكون . ولا شك فى أن الماديين العلميين كانوا على وجه العموم يريدون تصديق ذلك . وفى تسعينات القرن الماضى كان علم الفلك الشائع يتبنى الفكرة القائلة بأن كائنات ذكية لا بد أن تكون هى التى بنت «القنوات» التى كانت قد اكتشفت على سطح المريخ . أما الآن فإننا لم نعد نتوقع أن نواجه حضارة منافسة لحضارتنا فى المجموعة الشمسية ، ولذلك أصبح التفكير منصرفاً إلى احتمال تأسيس شبكة اتصالات عبر الفضاء بين النجوم . وقد كتب عالم الفلك فرد هويل Fred Hoyle يقول إن السفر خارج المجموعة الشمسية قد «لا يكون صعباً وحسب بل مستحيل» ، غير أن معدل تبادل المعلومات قد يصل إلى حد أننا قد نعثر بطريق الصدفة على «مكتبة مجرية» أو على «دليل تلفون مجرى» . وبهذه الطريقة قد نستطيع الاستفادة من حضارات أخرى تعلمت كيف تتجنب حرباً نووية^{١٠} . وبالمثل فإن كثيراً من كتاب القصص العلمى تخيلوا أفراداً من خارج الأرض جاؤا من الغيب وأقاموا حكماً مطلقاً خيراً - أى نوعاً من «مؤامرة علنية» بين المجرّات - لإنقاذ الانسانية من حماقاتها . وعلى النقيض من ذلك فإن آرثر كلارك ذهب فى عام ١٩٥١ إلى أن إمكانات وجود أحياء أذكىاء فى مكان آخر من الكون عالية

جداً ، غير أن احتمال عثورنا على حضارة بلغت حداً من التطور يقرب من حضارتنا ضئيل إلى درجة متناهية . وفى عام ١٩٩٣ قرر مجلس الشيوخ الأمريكى إيقاف مشروع حكومى كلفته ١٢ مليون دولار فى السنة يستخدم تلسكوبات لاسلكية كبيرة موجهة إلى النجوم أملاً فى التقاط إشارات أو رسائل . ولكن حتى إذا تبين أن الاتصال بحضارات أخرى لا يعدو أن يكون خيالياً صرفاً ، فإن الشك فى ما إذا كان العقل الانسانى وحيداً فى هذا الكون يخفف كثيراً من إقفار علم الكونيات .

هـ- يضع الفكر العلمى الحديث الانسانية فى زمن وفضاء من السعة بحيث يمّحى الفرد ذو العمر القياسى . وكان أقوى ما فى النظرة الارتقائية جاذبية تلك الصفة اللافردية الكامنة فيها . والمفكرون العلميون من أمثال ولز وهالدين وبيرنال يرفضون الأهداف المادية والبرغماتية «القصيرة النظر» للديموقراطيات الحديثة ، ويفضلون عليها اهتماماً بمصلحة النوع البشرى ككل ، وأن ينطوى ذلك الاهتمام على أكبر قدر من التضححية بالذات . والتتوير العلمى ، برفضه الفردية لأسباب أعمق من الحلم بالسفر فى الفضاء والبيئات الاصطناعية وذكاء الغرباء ، قد يعكس شيئاً من حنين الثقافة الانسانية الأعمق والذى لم يُشفَ غليله .

إن الهدف «الروحى» لعملية الارتقاء ، فى رأى ولز وخلفائه ، هو نوع من العقل أو الذكاء الجماعى يشترك فيه الجنس البشرى كله . وهذا العقل الجماعى تجسيد لفكرة مجازية موجودة من قبل ، فالعبارات مثل «العقل الجماعى» و «الحكمة الجماعية» ذات تاريخ طويل . وقد جعل ولز عنوان كتاب يدعو فيه إلى خدمة معلومات متكاملة على نطاق عالمى «الدماغ العالمى» (١٩٣٨) World Brain . والشكل المعاصر لعقل عالمى هو الطريق الأعظم للمعلومات أو إنترنت Internet . غير أن إيجاد عقل جماعى بالمعنى الكامل يقتضى تحقيق انسجام بين عقول الأفراد لم يسبق له مثيل . ومثل هذا الاحتمال قد تكون فيه مسحة من الدكتاتورية أو اللبرالية ؛ وفى الحقيقة يمكن أن يقال إن مزج الانصياغ الفردى والحميمية الأخوية التى ينطوى عليها قد يوجد عند نقطة التلاشى حيث «الديموقراطية الكلية» تعادل «الدكتاتورية» . وطالما كان الانسجام المحقق مؤسساً

على إدارك الحقائق العلمية فإن تحقيق حالة العقل الجماعى ، فى رأى ولز ، هو الهدف النهائى للعلم نفسه .

إن القصص العلمى ، من حيث كونه صنفاً أدبياً ، ليس مكرساً للجماعية collectivism . وبعض أشهر كتّابه ، مثل روبرت هاينلاين ، هم من نوى النزعة الفردية اليمينيين الذين يبرز أبطالهم بفضل شجاعتهم الفردية وخبرتهم وازدراءهم للقطيع . ومع ذلك فإن القصص العلمى عبّر مراراً عن حلم الانسجام العقلى ، وعلى الأخص باستخدام ثيمات التخاطر (telepathy) أو «التخاطب العقلى» (mind speech) . وسواء حدث التخاطر فى شكل رياضة دينية (كما فى روايات أورسولا غوان) أو بواسطة حيلة الكترونية بسيطة كوصل دماغين معاً (كما تصوّر بيرنال) فإنه يمكن اعتباره شكلاً من التغير البيولوجى يطلقنا من سجن شخصيتنا الفردية . وهنا يجب أن نميز تمييزاً حاداً بين القصص العلمى الذى يصوّر التخاطر كدرجة أخرى فى التطور الانسانى ، وأوضح مثال على ذلك رواية أولاف ستيفلن «الرجال الآخرون والأولون» ، وبين الحشد الهائل من الروايات المغرقة فى الخيال والتى تجعل التخاطر بصورة سحرية فى متناول نخبة من الشخصيات فى عالم اليوم . وحيث لا يكون التخاطر والقدرات النفسية الغامضة psi powers موظفة فى خدمة التهربية الصرفة فإنها قد تكون من أشد العناصر الهدامة فى نظرة المادية العلمية . وفكرة العقل الجماعى لا تنطوى وحسب على تطور جذرى فى الطبيعة البيولوجية للذكاء ، وإنما قد تكون من أهم إسهامات العلم إلى حلم الأخوة الانسانية .

٣

مع أن مناصرة ولز للمادية العلمية كانت ذات أثر كبير جداً فى حينها فإنها اليوم مودعة على الأغلب فى كتب قلما تقرأ ، ألفها بعد انتهائه من دورة القصص العلمى الرئيسية حوالى رأس القرن . فقد عرض فكرة العقل الجماعى فى «الأشياء الأولى والأخيرة» First and Last Things (وهو كتاب أجريت له تنقيحات عديدة) وأخيراً بلورها فى أطروحة الدكتوراة التى أنجزها عام ١٩٤٤ ، أى قبل سنتين من وفاته . وقد كان تطوير بنى اجتماعية جديدة وظهور الحكومة

العالمية أبرز اهتمامات فكره السياسى . أما المواضيع الأخرى كالسفر فى الفضاء والغرباء الأذكىاء وتصوّر مزيد من التطور البيولوجى ، فمجالها فى الأغلب هو القصص العلمى . والتقاء الحالم والداعية فى وِلز هو الذى جعل معاصريه يعرفون فيه الناطق الممثل للتنوير العلمى .

ومع أن جذور الحركة نبتت فى الفلسفة الوضعية والمناظرات حول العلم والدين فى القرن التاسع عشر ، فإن تعبيرها أخذ بعين الاعتبار مستجدات أحدث – كالبرغماتية والوضعية المنطقية ونمو فلسفة العلم المتخصصة . ومع بواكير القرن العشرين اعتاد العلماء التوجه إلى «الموقف» أو «المنهج» العلمى بدلاً من «الحقائق» و «القوانين» كما كان يفعل سلفهم . وإذا قسنا بهذا المقياس جميع أنواع الممارسات الاجتماعية ، من الميتافيزيقا إلى العمارة الزخرفية ومساكن الأحياء القذرة ، نجدها ناقصة . وكان كثيرون يرون أن للعلم تأثيراً على المجتمع تقدماً وهداماً ومقللاً للاستقرار . ونجد أن سى . پ . سنو C. P. Snow يؤكد ، حتى فى سنة ١٩٥٩ ، أنه من الناحية الاحصائية ، نجد «أن أكثر العلماء كانوا يساريين فى السياسة العلنية» ، وأنهم سواء أكانوا يساريين أو يمينيين فإن «المستقبل كان منغرزاً فى قرارة أنفسهم»^{١١} . وفى الأربعينات والخمسينات كانت غالبية سنو الاحصائية من العلماء المائلين إلى اليسار تضم أشهر المتقدمين فى هذا المجال وأعداداً من كتّاب العلم الشعبى والصحفيين . وكان بعضهم مثل بيرنال وجوليو - كورى Curie - Joliot ، من أساطين حركة الشيوعية العالمية . وقد وجه علماء يساريون آخرون نقدهم للشيوعية فى ردائها الستالينى باعتبارها ليست علمية بدرجة كافية . وأبدى غارى ويرنسكى Gary Wernsky فى تاريخ العلماء فى الثلاثينات أن العلم ، حتى بالنسبة لماركسى مثل بيرنال ، قوة فائقة تقوم بدور المحرك الرئيسى فى تاريخ الانسانية^{١٢} . وبالمثل فإن الليبرالى سى . هـ . وادنغتن C. H. Waddington فى عرضه المعروف «الموقف العلمى» (١٩٤١) Scientific Attitude يؤكد أن العلم نفسه مصدر مهم للقيم الأساسية . وكتب يقول: «إن للعلم متطلبات اجتماعية يجب الاصرار على الوفاء بها»^{١٣} .

وقد بلغت حركة التنوير العلمى ذروتها فى انجلترا فى أواخر الثلاثينات كما يتبين (على سبيل المثال) من إنتاج كتب پليكان Pelican Books وطبعات پنگوين Penguin غير القصصية ابتداء من سنة ١٩٣٦، وتضمنت ولز وهالدين وجوليان هكسلى والسير جيمس جينز Sir James Jeans و ج. جى. كروثر J. G. Crowther و أ. ن. وايتهد A. N. Whitehead وسيفموند فرويد بين مؤلفيها الأولين. (من الجدير بالملاحظة أن ثالث كتاب نشرته پليكان كان رواية هالدين العلمية « الرجال الأخيرون والأولون » وقد تلقت قضية التعليم الشعبى دفعة بكتاب ولز « موجز التاريخ » الذى أتبعه باستعراضاته لعلم الأحياء المعاصر فى « علم الحياة » Science of Life (شارك فى تأليفه جوليان هكسلى و جى. پ. ولز) ، ولعلم الاجتماع والاقتصاد فى « العمل والثروة وسعادة الانسان » The Work, Wealth and the Happiness of Mankind. يضاف إلى هذه الكتب « الرياضيات للملايين » Mathematics for the Millions و « العلم للمواطن » Science for the Citizen (١٩٣٦ ، ١٩٣٨) على الترتيب لمعجب بولز هو لانسلت هوجبن Lancelot Hogben . وعلى مستوى أقرب إلى المقالات كان المروج للنظرة العلمية هو ج. ب. س. هالدين فى كتبه الرائجة مثل « ديدلس : أو العلم والمستقبل » Daedalus : Or Science and the Future و « العوالم المحتملة » (١٩٢٧) . غير أن العرض الكلاسيكى للنظرة العالمية إلى التنوير العلمى كان فى كتاب ج. د. بيرنال الأول « العلم والجسد والشيطان » (١٩٢٩) The World, the Flesh and the Devil . وكان عمل هالدين الرئيسى فى الجينات بينما كان بيرنال فيزيائياً ومؤلف كتب نموذجية فى تاريخ العلم ووظيفته الاجتماعية . وبعد أواسط الثلاثينات طُمس اهتمامهما بالآفاق الرؤيوية للعلم – ولكن لم يمَحَ كلية – بسبب التزامهما بالمبدأ الشيوعى . ومع ذلك دعى الرجلان للتحدث إلى الجمعية البريطانية للسفر بين الكواكب فى الخمسينات . وقد وجدت رواية طوبائية غير تامة من هذه الفترة بين الأوراق التى عثر عليها بعد وفاة هالدين ، ونشرت بعنوان « الرجل ذو الذاكرتين » The Man With Two Memories (١٩٧٦) .

ولا شك أن أكبر إسهام قدمه هالدين إلى القصص العلمي كان غير مباشر ، ومن النوع الذى أقره آرثر كلارك فى مقالته « هالدين والفضاء »^{١٤} Haldane and Space - وإن يكن صديقه جوليان هكسلى ، الذى أصبح فيما بعد أول رئيس لليونسكو ، كتب قصة بعنوان « ملك زرع الأنسجة » (١٩٢٧) The Culture King - Tissue ، نشرت أول مرة فى « مجلة ييل » Yale Review وسرعان ما أعيد نشرها فى مجلة غيرنيزباك « قصص مذهشة » - Amazing Stories . ويتضمن إنتاج نومي متشيسن Naomi Mitchison - أخت هالدين - الغزير قصصاً علمياً كروايتها « مذكرات امرأة فضاء »^{١٥} (١٩٦٢) Memoirs of a Spacewoman . أما « ديدلس » - ذلك الكراس الوجيز الذى بدأ مسلسل « اليوم والغد » Today and Tomorrow من نتاج سى . ك . أوغدن - فيتضمن بياناً مثيراً جداً لعقيدة هالدين العلمية . وهو من ناحية تأمل حول مكانة الاختراعات البيولوجية فى التاريخ ، ومن ناحية أخرى توقعات نبؤية تستخدم فيه أدوات القصص العلمى المعتادة : مقالة حول علم الأحياء فى القرن العشرين بقلم طالب فى كيمبرج بعد ١٥٠ سنة . والتجديد الذى يتحدث عنه هو شيوع الأمومة الاصطناعية التى تؤدى إلى الفصل بين التكاثر والعملية الجنسية .

ويتميز « ديدلس » بخلطه المزاجى بين الكلاسيكية الأرستقراطية (كان هالدين من طلاب إيتن) والرومنطيقية العلمية . وهو يصور عالم الأحياء « أكثر شخص على الأرض رومنطيقية فى هذه الأيام » (ص ٧٧) . ومن حين إلى آخر يتحول خط هالدين من النبوءة إلى المحاكاة الساخرة . فهو يشرح أن النموذج الأول لجميع التجارب المتعلقة بالجينات هو الجهاز الخشبى الماكر الذى صممه ديدلس لتمكين الملكة باسفائى Pasifaë من إشباع شهوتها إلى ثور أبيض مما أدى إلى ولادة ميناتور * Minotaur . « ولو كان إسكان ميناتور

* تقول الأسطورة إن باسفائى امرأة مينوس ملك كريت أغرمت بثور جميل فكلفت ديدلس ، الذى كان نحاساً بارعاً ومخترعاً قديراً ، أن يصنع لها بقرة اختفت فى داخلها ، فضربها الثور فجاءت بالوحش ميناتور برأس ثور وجسم إنسان ، وأخفاه مينوس فى متاهة بناها ديدلس إلى أن قتله الأمير الاثينى ثيسبيوس بمساعدة أريادنه ابنة مينوس ، فتخلصت بذلك أثينا من الجزية التى كان عليها تقديمها من الشبان والشابات لأطعام الوحش . وديدلس هو نفسه الذى صنع له ولابنه إيكاروس أجنحة من الشمع والريش فرا بها من كريت ، فاقترب إيكاروس من الشمس فى طيرانه رغم تحذير أبيه فانصهر الشمع وتساقط الريش وهوى فى البحر ، ونجا ديدلس حتى وصل إلى صقلية . (المترجم)

وإطعامه أقل كلفة لكان من المحتمل أن يستبق ديدلس مندل» (ص ٤٧) . وبعد ذلك تضمنت مقالة الطالب الجامعي المستقبلي عن علم الأحياء في القرن العشرين وصفاً مرحاً لحادث يقع عام ١٩٤٢ عندما تسربت سلالة سماد جديدة من المختبر وجعلت المحيط الأطلسي يتحول إلى مادة هلامية .

وأحسن مقالات هالدين ، « يوم الحساب » The Last Judgment و« العوالم المحتملة » ، تنطلق في نظرتها إلى الوجود « من وجهة نظر العقول غير الانسانية »^{١٦} . وتتضمن « يوم الحساب » وصفاً لنهاية العالم كما يشهدها مستعمرون من بني البشر على الزهرة ؛ بينما تتخيل « العوالم المحتملة » عالم الطبيعة كما يراه كلب ونحلة وأوزة إلى جانب واحد أو اثنين من الحيوانات الوهمية . وقد أثر هالدين وبيرنال تأثيراً مباشراً في كتاب مثل ستيبلدن وجيمس بلش وك . س . لويس وكذلك آرثر كلارك . وربما كان كتاب بيرنال « العالم والجسد والشيطان » مصدراً للأفكار أهم من كتب هالدين بالنسبة للمجلات الأمريكية الرخيصة ، لأنه تضمن وصفاً قنياً موجزاً للصواريخ وحالة انعدام الوزن وبناء المحطات الفضائية بالإضافة إلى تأمل مصير الإنسان النهائي .

وسفن بيرنال الفضائية هي في الحقيقة مدن في السماء قد يصل سكان الواحدة إلى ٣٠ ألفاً ، وهي مصنوعة من كويكبات جوف داخلها . وكل محطة فضائية عبارة عن نظام بيئي قائم بذاته بحيث يعاد فيه سبك جميع النفايات . وفي إحدى هذه السفن تقدم جماعة من الرجال على مغامرة الخروج من المجموعة الشمسية في رحلة تستغرق مئات السنين ، وينجزها الأحفاد البعيدون للمغامرين الأصليين . والحدس حول من يكون هؤلاء المكتشفون يذكر بيرنال أن الأرض قد تنقسم مع الوقت إلى نوعين : العلماء والآخرين . فالعلماء يستعمرون السماوات ولكنهم يظلون ينظرون إلى من هم دونهم على الأرض نظرة «توقير غريب» : « فالأرض يمكن أن تتحول في الحقيقة إلى حديقة حيوان إنسانية ، تدار بذلك بحيث لا يدرك سكانها أنه ليس لوجودهم هناك غرض سوى أن يكونوا قيد المراقبة والتجريب »^{١٧} .

والمزج فى الكتاب بين الطيران فى الفضاء والحلم بنخبة علمية يقرب « العالم والجسد والشيطان » كثيراً من نظرة القصص العلمى فى الثلاثينات والأربعينات. والذى يختلف فيه بيرنال عن غيرنزابك ووارثيه هو إصراره على أن اكتشاف الفضاء يجب أن يرافقه تحول أخلاقى وجسدى وذهنى فى الانسانية. وأخيراً فإن رؤيته تنتهى إلى كسر حواجز الشخصية الفردية ، كما صورها أولاف ستيفلند فى « صانع النجوم » Star Maker :

وأخيراً فإن الوعى نفسه قد ينتهى أو يتلاشى من الانسانية التى أصبحت أثيرة تماماً، وفقدت الكائن العضوى المحكم النسيج ، وأصبحت كتلاً من الذرات فى الفضاء ، تتواصل بالاشعاع ، وقد تحيل نفسها أخيراً إلى ضوء بصورة كلية . وقد يكون ذلك نهاية أو بداية ، ولكنها من هنا خارج مجال النظر (ص ٤٦) .

لقد كان بيرنال على وعى بأن تلاشى الشخصية الفردية ، مهما يغلف بألفاظ شاعرية ، لا بد أن يظل بغيضاً لدى كثير من الناس . وهو يقر بمدى «النفور والكراهية» اللذين ولدتهم المرحلة الراهنة للثورة التكنولوجية (ص ٥٥) ، ويعتقد - كما رأينا - أن الصراع بين المتمسكين بالأنسنة والمصريين على المكننة قد يؤدى إلى بلورة الجنس البشرى فى شكلين مختلفين . وهذه محاولة بارعة للتغلب على التناقض الأساسى فى المادية العلمية - ذلك أنها رغم كل وعودها لا يمكن تصورها قادرة على تحقيق آمال البشر جميعهم . وهذا التناقض الكامن قد يفسر أسباب عجز خلفاء هالدين وبيرنال من دعاة نشر العلم عن أن يطرحوا بدرجة متساوية الحجة الفكرية واستبصار الواقع . وقد كان بيرنال ، حتى منذ « وظيفة العلم الاجتماعية » (١٩٣٩) The Social Function of Science ، يلاحظ تناقضاً عاماً فى الحماسة لتقدم العلم^{١٨} .

على أن هناك جماعتين لم تشاركاً فى تناقص الحماسة هذا : الأولى هى صلاب كتاب القصص العلمى الأمريكىين ، والثانية هى الصفوة الحاكمة فى الاتحاد السوفييتى . وفى أمريكا كان غيرنزابك وجون و. كامبل John W. Campbell وصنائعهما من الكتاب يرون أن دورهم يفرض عليهم أن يحولوا قراءهم - وأغلبهم من المراهقين - إلى اعتناق العلم والموقف العلمى . وكان آيزك أزيموث بين جميع كتاب المجالات أكثرهم كتابة فى الترويج لهذه القضية .

وبينما كانت قصص أزيموث عن شخصيات آلية (robots) عبارة عن محاولات لمواجهة النظرة إلى التكنولوجيا من زاوية الدكتور فاوستس حيث يرى أنها في أساسها مدمرة لذاتها ، فإن كتبه ومقالاته الكثيرة حول العلم الشعبي تُقرأ في كثير من الأحيان على أنها محاكاة علمية ساخرة ومبتذلة لهالدين وبيرنال . ومع أنه حاصل على دكتوراه في البيوكيمياء فإن نظريته هي نظرة مغامر برغماتي واثق من نفسه أكثر منها نظرة بيولوجي أو فيزيائي .

وفي « نظرة من الأعلى » (١٩٦٣) View from a Height - وهي مجموعة من المقالات أعيد طبعها من مجلة «الخيال والقصص العلمي» - يبحث أزيموث في أنجع الطرق لاستغلال الكواكب والكويكبات في المجموعة الشمسية ، ويرى أن المشتري يجب استعمارها بسبب الهيليوم الموجود فيه وبسبب إمكانية احتوائه على حياة قد يتبين أنها قابلة للأكل^{١٩} ويمكن أن تحل مشكلة التخلص من النفايات المشعة على الأرض بإيجاد منطقة ممنوعة في الفضاء لطرح المخلفات السامة . ومع الوقت يجب تجزئة الكواكب إلى كويكبات لخلق أكبر مساحة سطحية من أجل المستوطنين المحتملين . أما الأرض نفسها فيمكن أن تترك لتظل متحفاً (صدي لبيرنال ؟ !) أو إذا تغلب التقدميون على التقليديين في التصويت حول هذه المسألة ، يمكن أن تنسف وتجزأ . ويختتم الكتاب برؤية أسطول عمل كوني يتقدم لاتمام هذه العملية ، وكل ذلك باسم التقدم العلمي^{٢٠} . وإذا كان علم أزيموث دعامة للمغامرة الحرة التي لا ترحم فإن هالدين وبيرنال حاولا أن يجمعا بين المادية العلمية والغدالة الاجتماعية بالتوجه إلى ماركسية الاتحاد السوفييتي . وقد أصبح كلا الرجلين مناصراً شيوعياً ناشطاً في الثلاثينات كرد على الفاشية ، وانغمرا كلاهما في الخلاف حول مبدأ ليسنكو* Lysenko الذي أظهر مدى خضوع الأبحاث السوفييتية لسيطرة الحزب شأنها في ذلك شأن جميع الأعمال العقلية . ومع أن بيرنال وهالدين كانا ملتزمين بفكرة مجتمع بلا طبقات فإن أعمالهما تظهر ميلاً مكبوتاً نحو حكم النخبة ،

★ مبدأ ليسنكو نسبة إلى ت. د. ليسنكو (١٨٩٨ - ١٩٧٦) عالم بيولوجي وخصائي زراعي قال (١٩٤٥ - ١٩٥٠) إن الخصائص المكتسبة في الجينات لا تورث . (المترجم)

والنظر إلى العالم على أنه عضو في طائفة مميزة . (في حالة هالدين يبدو أن كفاحه الشخصي مع النخبوية ظهر بصورة درامية بهجرته إلى الهند في السنوات الأخيرة من حياته) .

٤

وراء فيض النبوءات في أوائل القرن العشرين حول السفر في الفضاء وتحسين النسل وإطالة العمر يكمن الافتراض بأن هذه الأشياء مرغوب فيها أصلاً ، وأن الذين

يعارضونها رجعيون هدامون* (Luddite reactionaries) . وأكثر ما يصدق ذلك في ترويج المادية العلمية في مجلات القصص العلمي . «إن القصص العلمي المتزمت» في الفترة ١٩٣٠ - ١٩٦٠ يخلّف انطباعاً بعبادة التكنولوجيا بون تعقل . وفي الوقت نفسه فإن التقديس الأعمى للتكنولوجيا رافقه ضده ، وهو أدب لاعلمي يسرف في الخيال ويستخدم أجواء ومواقف القصص العلمي إلا أنه يستخدم السحر والشعوذة لحل أية صعوبة تعترضه . وهذا الانقسام في القصص العلمي ، والذي تزايد بصورة واضحة ، انعكس في الخلاف بين ج . ب . هالدين والروائي الباحث المدافع عن المسيحية ك . س . لويس في الأربعينات .

كان القصد من ثلاثية لويس (« خارج الكوكب الصامت » - ١٩٣٨ Out of the Silent Planet و « بيرلاندر » - ١٩٤٣ Perelandra و « تلك القوة المربعة » - ١٩٤٥ That Hideous Force) هجوماً على النزعة العلمية scientism ، وهو المصطلح الذي يستعمله للدلالة على تقبل الأهداف والطرائق العلمية على أنها صالحة في حد ذاتها دون تفحص أو تمييز . وتخيل لويس البارع للعوالم الغريبة هو الملمح الوحيد الذي يشفع للسياق التعليمي الوعظي الثقيل في الحكمة والتشخيص . وتنطوي المجلدات الثلاثة على ثلاث مراحل من المحاكاة الساخرة لنزع قناع العلم المعاصر والعلماء المعاصرين . ففي « خارج الكوكب الصامت »

★ Luddite reactionary نسبة إلى جماعة من العمال في إنجلترا عمدت في أوائل القرن التاسع عشر إلى تحطيم آلات المصانع لأنها تستقلل الطلب على الأيدي العاملة . وأصبح التعبير يطلق على كل من يعارض التطور التكنولوجي . ويند لضر كان زعيم أعمال شغب في أواخر القرن الثامن عشر . (المترجم)

يكون الفيزيائي وستن Weston شخصية ميكافيلية تتآمر مع مؤسسات الأعمال الكبيرة لتدمير الحرية على الأرض والثقافة والبيئة في أي كوكب يزوره . ويبرر ذلك بإيمانه المتعصب بأن مصير الانسان فوق كل شيء - وهذا الإيمان هو بكل بساطة وجه جديد للامبريالية . وفي « بيرلاندرا » يتخلى وستن عن مبدأ «العنصرية الانسانية» هذا ليؤمن «بالرب المتناهي» عند ولز الذي تمثله العملية الكونية للطبيعة (تمشياً مع رأى لويس في الشيطانية فإن هذا التغيير في الواجهة يأتي من كونه مسكوناً بالشيطان) . وفي « تلك القوة المربعة » يعود لويس إلى عالم الانسان ليبين أن العلماء والمديرين والروائي المعروف هوراس جولز Horace Jules (هـ . ج . ولز) شركاء في مؤسسة أبحاث مشئومة (اسمها نيس NICE) مكرسة لنوع من السيطرة الاجتماعية يجعلها معادلة للاضطهاد الفاشي . والجدير بالملاحظة في هذه الرواية (وهي في بعض النواحي سخيفة جداً) هو استباقها بعض الموضوعات الأكثر شيوعاً في القصص الخيالية في النصف الثاني من القرن العشرين . واختزال لويس التاريخ الحديث إلى صراع بين مؤامرتين سريتين ترجعان إلى عهود سحيقة ، واعتماده على إحسان قوى سحرية تقوم بدور الوسيط لها جماعة صغيرة من أناس يبدوون بلا حول أو قوة ويعيشون في جورعوى ، هما من الملامح التي نجد كثيراً من الموازيات لها . وكثير من هجومه على «العلمية» أثبت في شكله ومادته أنه كان صادراً عن بعد نظر .

لقد أخذ هالدين ثلاثية لويس مأخذ الجد إلى حد أنه جعلها عام ١٩٤٦ موضوع مقالة في Modern Quarterly الناطق النظري للحزب الشيوعي . والاحتقار في رده على اتهام لويس بعبادة الشيطان يتجلى في عنوان مقالته : « الشيطان العجوز » Auld Hornie, F. R. S* . ولم يشأ لويس أن يدافع عن نفسه ، ولكن بين مجموعة مقالاته التي نشرت بعد وفاته بعنوان « عوالم أخرى » Of Other Worlds مقالة لم يسبق نشرها بعنوان « رد على الأستاذ هالدين »

*Auld Hornie اسم للشيطان في لغة اسكتلندية F. R. S. قد تكون Fellow of the Royal Society (زميل في الجمعية الملكية) . (المترجم)

Reply to Professor Haldane . وهنا يبين لويس - على ضعف - أن هالدين قد أساء فهم مقاصده ، ويمضى فى تبرير استخدامه للمفاهيم العلمية الزائفة فى القصص العلمى طالما أنها لا تتنافى مع «العلم الشعبى» اللزوم لتعليق إنكار القارئ العادى . (هنا يمكن أن نلاحظ أن طريقته ، كوصفه مثلاً القنوات على سطح المريخ ، مما يجمع عليه كتاب القصص العلمى) . أما بالنسبة لنقطته الرئيسية فنحيل القارئ إلى كتابه «إلغاء الانسان» (١٩٤٣) The Abolition of Man ، وهو كتاب عرض فيه لويس الموقف الفلسفى الذى تقوم عليه الثلاثية . وفى رأيه أن الالتزام باخضاع الطبيعة - وهو من الأهداف الأساسية للعمل الحديث - هو بالضرورة التزام باخضاع الانسان أيضاً . ورداً على برنامج التكنولوجيين الرامى إلى «إلغاء الانسان» يحلم لويس فى شىء من الكتابة «بعلم جديد» يشبه أعلى تطلعات علماء البيئة فى هذه الأيام . ومثل هذا العلم - كما يقول - « لن يفعل حتى للمعادن والخضار ما يهدد العلم الحديث أن يفعله بالانسان نفسه »^{٢١} . والمثل الأعلى عند لويس ليس «رعوياً» - لأن ذلك يهدد وجود الزراعة - وإنما هو لسوء الحظ سخييف ، فهو يعنى إزالة الطبيعة وتاريخ الانسان .

وتوجه لويس إلى القيم الأدبية والدينية فى مواجهة القيم العلمية يذكر بقضية أحدث تاريخاً وأوسع انتشاراً ، هى الخلاف الذى احتدم بين سى . پ . سنو والناقد الانجليزى ف . ر . ليكس فى أوائل الستينات . ومع أن الجدل الذى أثاره ذلك الخلاف كان قليل الصلة بالقصص العلمى فإن محاضرة سنو بعنوان «الثافتان والثورة العلمىة» (١٩٥٩) The Two Cultures and the Scientific Fiction كانت بياناً بليغاً للمادية العلمىة من روائى كان من المريدين الخّص لرجال كولز وهالدين ، ولكن من حيث السياق التاريخى الذى تتبعناه فى هذا الفصل ، فإن أشد ما يلفت النظر فى محاضرة سنو أنها جاءت متأخرة . وقد ذهب سنو إلى أن الحياة العقلية الغربىة مستقطبة بين الثقافتين الأدبية والعلمىة ، ولكنه قال ذلك فى مقالة لاحقة . وفى «الثافتان: نظرة ثانية» (١٩٦٣) The Two Cultures: A Second Look

ألمع إلى قرب ظهور « ثقافة ثالثة » هي ثقافة علماء اجتماع يتركز اهتمامهم حول المؤثرات الانسانية للثورة العلمية . غير أن القصص العلمي كان في هذا الوقت قد أجرى تحوله الجوهرى من تصديق النبوءة إلى المحاكاة الساخرة للنظرة إلى العالم التى نادى بها التنوير العلمى .

٥

سجل روبرت جنك فى كتابه عن تاريخ علماء الذرة « أسطع من ألف شمس » (١٩٥٦) Robert Jungk: Brighter than a Thousand Suns محادثة مع عالم من وسط أوروبا فى لوس ألamos عام ١٩٤٩ . قال العالم : « يا له من شىء غريب لا يفهم ! كان شبابى كله مكرساً للحقيقة والحرية والسلام ، ومع ذلك شاء القدر أن يطرحنى هنا حيث حرىتى فى الحركة مقيدة ، والحقيقة التى أحاول اكتشافها حبيسة وراء بوابات ضخمة ، والهدف النهائى لعملى هو بناء أهول أسلحة الحرب»^{٢٢} . فالقدرة التدميرية للطاقة النووية كانت جليلة منذ بداية القرن العشرين ، وتلخص فى رمز مربع الجانب المظلم من التنوير العلمى . فقد كان فرديك صدى Frederick Soddy ، شريك روثرفورد Rutherford ومؤلف «شرح الراديوم» (١٩٠٨) ، واحداً من الذين بشروا بفجر «حضارة جديدة كلياً» تيسرها الاكتشافات العلمية الأخيرة ، وكتب يقول : «هذه هى رسالة الأمل والإلهام التى قدمها الراديوم للتسابق إلى حل مشاكل الوجود العظمى»^{٢٣} . ولكن الأوهام تقشعت سريعاً عقب إلقاء القنابل الذرية على هيروشيما وناغازاكي عام ١٩٤٥ . وكان رد فعل العلماء لنمو المؤسسات العسكرية الصناعية فى السنوات الأولى للحرب الباردة أن قاموا بحملة لتنبيه الشعب إلى أخطار الطاقة النووية ، كما صدرت قصص كثيرة حول «الدمار الذرى» فى مجلات القصص العلمى إلى أن شعر جون و . كامبل بأنه مضطر إلى أن يقول للكتاب فى عام ١٩٤٨ إن مثل هذه القصص لم يعد مرغوباً فيه^{٢٤} . وفى الستينات ، وبعد فترة شاعت فيها الروايات والأفلام «الواقعية» حول الكارثة النووية ، مثل رواية نقل شوت « على الشاطئ » Nevil Shute: On the Shore ، أخذ جيل كتاب القصص العلمى الذى يعرف باسم « الموجة الجديدة » New Wave يستغل ما بعد الكوابيس النووية كطريقة للتشكك فى المغامرة العلمية بمجملها . وأكبر الكتاب أثراً فى هذا الصدد هو ج . جى . بالارد J. G. Ballard .

وبالارد هو شاعر التنوير العلمى فى أفوله . لقد أتى على سلسلة نبوءات القصص العلمى من أولها إلى آخرها ، من كوارث الغد إلى تحقيق الاتحاد مع الكون فى النهاية (« الأرض المنتظرة » - ١٩٦٧ The Waiting World) . وكثيراً ما قال إن « أساطيرنا حول المستقبل القريب » ليست سوى استقراء وإسقاط لرغبات وحاجات هى فى جوهرها معاصرة . وبعض قصصه لا تعدو أن تكون تاريخاً متكاملأ لإخفاق عصر الفضاء . فقصته « قفص الرمل » (١٩٦٣) The Cage of Sand تصور جماعة من الهاربين أصابتهم عدوى فيروس مريخى خطر يكمن فى كيب كانقرال وهى مهجورة وخاضعة للحجر الصحى . وتصف « ثلاثة عشر إلى قنطورس » Thirteen for Centaurus سفينة فضاء متوجهة إلى الأرض ، ولكن طاقمها يخدع ويصدق أنهم فى رحلة إلى ألفا قنطورى Alfa Centauri تستغرق مائة عام . ويعبر أحد الشخصيات عن خواطره قائلاً : « ما بدأ مغامرة عظيمة بروح كولبس قد أصبح نكتة مروعة » ٢٥ . واللهجة الواقعية لتبدد أوهام العلم هى الأداة المستخدمة عموماً فى هذه القصص .

ويمكن ملاحظة القلب الساخر الذى قام به بالارد للنظرة العلمية بالالتفات إلى إحدى الاستعارات المحببة إليه : « الشاطئ النهائى » . والمفروض أن هذا الرمز الرؤيوى مستمد من « آلة الزمن » حيث الشاطئ فى « الرؤية الأخرى » Further Vision هو آخر حصن للحياة قبل تراجعها إلى البحر * . غير أن شواطئ بالارد تنتمى إلى المستقبل القريب . وأبرز نموذج لها مناظر لندن شبه المغمورة فى « العالم الغريق » (١٩٦٢) The Drowned World ؛ والشاطئ المكتظ بالسباحين الذين ينتظرون إطلاق قمر صناعى فى « حظيرة الزواحف » (١٩٦٤) The Reptile Enclosure ؛ و« يباب جزيرة اينوتك ** » - Ein-wetok Island الذى سببته التجارب النووية فى « الشاطئ النهائى » (١٩٦٤) The Terminal Beach . وفى جميع هذه القصص إشارة إلى التراجع البيولوجى . فنباتات وحيوانات العصر الترياسى يعاد خلقها فى « العالم الغريق » .

★ أنظر الفصل الثالث عشر من « آلة الزمن » . (المترجم)

★★ إحدى جزر مارشال فى المحيط الهادى كانت موقعاً للتجارب الذرية والنووية فى الفترة ١٩٤٧-١٩٥٢ . (المترجم)

وفى « حظيرة الزواحف » تنبعث الأشعة تحت الحمراء من القمر الصناعى فتحرك «آليات الاطلاق الداخلية» التى ورثناها عن أجدادنا الكرومانيين* Magnon-Cro ، فتندفع جماهير السابحين إلى البحر كالفيران القطبية. واينوتك يحج إليها المهووسون - مثل ترافن أحد شخصيات بالارد - الذين يجدون فيها «جنة عدن أنطولوجية». وفى قصص كيب كانقرال يجعل من شواطئ فلوريدا مكاناً مناسباً لمحاولة الانسانية اليائسة إقامة رأس جسر فى الفضاء. ومع أن بالارد يستخدم نظرية التطور كعامل مساعد لتطوراته عن الكارثة البيئية ، فمن الواضح أن الخلفية العلمية الرئيسية لهذه القصص ليست علم الأحياء ، كما كانت عند ولز ، وإنما سيكولوجية يونغ Jung . فالبحر الذى ترجع إليه الحياة هو الرحم ، مثلما أن الفضاء الخارجى يقوم عند بالارد مقام العقل الباطن . وهو بمعنى من المعانى محق فى تلميحہ إلى أن الاهتمام بالمستقبل البعيد جداً ، كالذى نجده عند ولز وخلفائه ، ليس إلا تصعيداً لأنواع القلق فى الوقت الحاضر . غير أن التأثير التراكمى لقصص بالارد اختزالى إلى أقصى حد . وقد يوسع نطاقه ليشمل مجالات جديدة للتجربة الاجتماعية ، سواء ما كان منها متعلقاً بحوادث السيارات أو مبانى الشقق العالية أو المدينين المشردين المسجونين فى «جزرهم الخرسانية» ، غير أنه كلما فعل ذلك زاد استبعاده لمعنى الاحتمالات العلمية . وأبطاله نظارة محصورون يشاركون صانعهم فى بعض استمتاعه بجماليات الفساد والدمار .

وبالارد ، كأبلافة ، أستاذ فى نهج النبوءة الأدبية . وتتضمن سيرته الملحقه بطبعات پنغوين من كتبه فى الستينات تصريحه بوجهة نظره بأن القصص العلمى هو الأدب الرؤيوى للقرن العشرين ، وأنه اللغة الصادقة لأوشفتس واينوتك والدرماستن . لم يجرب أحد من الكتاب غيره فى زمانه أن يستقصى من أنواع الرؤى قدر ما فعل هو، وافتتانه بالنهاية الكبرى لقصة الحداثة العلمية لا يساويه إلا قدرته على أن يستخلص منها سلسلة طويلة من النكت المروعة . لقد كان بالارد فى أوائل حياته العملية أسير حرب وطالب طب وكاتب إعلانات وطيّاراً

* نسبة إلى انسان قديم طويل منتصب اكتشفت بقاياہ فى كرومانيون فى جنوب فرنسا . (المترجم)

فى القوات الجوية الملكية ، ولكنه لم يكن عالماً ممارساً . وكان معاصره الانجليزى بريان ألدس كُتُبياً ومحرراً أدبياً قبل أن يتحول إلى القصص العلمى . وفى الولايات المتحدة أيضاً كان جيل الكتّاب الذين شكّلهم التنوير العلمى - أزيموث ويلش وكامبل وهارينلاين وجاك وليامسن Jack Williamson وغيرهم - قد خلفهم جيل لم يتلق المرموقون منه إلا قدراً يسيراً من الدراسة العلمية أو لا شىء منها على الإطلاق . وهذا يصح مثلاً على ساميول ديلينى Samuel Delany وفليب ديك وهارلن إلِسْن Harlan Ellison وأورسولا غوان (مع أن أورسولا ابنة عالمى أنثربولوجيا مرموقين) وروبرت سلفبرغ Robert Silverberg . وقد يكون أكثر كتّاب القصص العلمى طموحاً فى هذه الأيام على الأرجح معلماً للغة الانجليزية لا طالباً باحثاً فى الفيزياء . فهارلن إلِسْن (المولود عام ١٩٣٤) قد يكون أول كاتب من هذا القبيل ينهى دراسته بأن عمل على طرده لا من مختبر العلوم وإنما من صف الانشاء . فهل من السذاجة القول (وإن كان ألدس قد قالها) ^{٢٧} أن هؤلاء الكتّاب وخلفاءهم أشد تأثراً بالقصص العلمى السابق منهم بالرؤية العلمية ^{٢٨} .

٦

إن المحاكاة الساخرة العدائية للتنوير العلمى ، كما فى روايات لويس أو فى الإشارة إلى قنبلة هكسدين - هالى Halley-Huxdane (لنشر مرض الجذام) فى رواية إقليدس وو « الأجسام الكريهة » (١٩٣٠) ^{٢٩} Evelyn Waugh: Vile Bodies ، كانت دائماً شيئاً متوقعاً . غير أننا سننهي الفصل بدراسة مدى ملائمة جانب نموذجى من النظرة المادية العلمية للمحاكاة الساخرة حتى عند المتزمين بالمنظور العلمى .

كتب ستيقن واينبرغ Steven Weinberg ، وهو فيزيائى معاصر ، عن « الكون الممتد أنه كلما كان أقرب إلى مدارك الأفهام بدأ أكثر فراغاً من المعنى » ^{٣٠} . وإذا قبلت هذه النظرة بصورة عامة ، فإنها تؤدى حتماً إلى تحويل الطلاب الجدد إلى حقول جديدة ، وتؤدى أيضاً إلى عبثية بعض المواضيع الأكاديمية ، وجفاف مصادر منح الأبحاث . وقد درج القصص العلمى (تفاؤلياً

٢٨ - ينبغى عدم التقليل من تأثير الرومانسيات العلمية الشائعة فى القرن التاسع عشر على ولز .

كان أو تشاؤمياً) على التعاون مع المؤسسة العلمية بجعل منظوراتها الكونية والمستقبلية تبدو للقارئ أوفر معنى مما هي في حقيقة الأمر. ولهذا وُجد كون يسكنه غرباء وأشخاص آليون يتحدثون ويسلكون ككائنات مميزة ، واشتغال بالسياسة يشبه كثيراً ما يجرى على الأرض ، إلى جانب أنواع المحاولات للتوصل إلى وسيلة يتم بها اختراق الحاجز الذي يبدو منيعاً ، وهو سرعة الضوء. وعلى مدى النصف الماضي من القرن كان يبدو بصورة متزايدة أنه من الصعب على هذا الصنف الأدبي أن يستمر في «تدجينه» للكون دون اللجوء إلى أعراف آسنة أو إلى استخدام العلم الزائف بصورة فاضحة.

وبما أن الفضاء والزمن يبدوان في حد ذاتهما قابلين للاستداد إلى ما لا نهاية ، فإنه من التناقض التفكير بأن نظاماً للفضاء والزمن - تطويق العالم حسب تعبير كارلايل - يمكن أن يمثل بنوع من السجن. غير أن الفلسفة الوضعية في القرن التاسع عشر وضعت لاستمرارية الفضاء والزمن نوعاً من الرسم البياني أو الشبكة المتسامتة. وهذه الفكرة ، التي ترجع في أصلها إلى بيير لاپلاس^{٣١} Pierre Laplace ، تعنى ضمناً أنه لا بد أن يأتي وقت يمكن أن يكون المستقبل فيه معروفاً كالماضي. وعندما كان ولز طالب علوم في الثمانينات ، تخيل «رسماً بيانياً للكون» يمكن منه - كما ذكر في سيرته الذاتية - «استنباط جميع الظواهر بالاستقراء» (١، ص ٢١٤). و«وجدتها» ليو ، بوصفها الكون بأنه يتمدد ويتقلص بالتناوب على طول المدى كالهواء في زقّي الكير ، هي إثبات غير مباشر لصورة أخروية على هذا النحو.

إن فكرة «كون ساكن» كما دعاه ولز ، هي من وجهات نظر عديدة شيء سخيف حقاً. وكان ولز أول من تنصّل منها أو عدّلها. على أنه يمكن القول بأن «شبح الرسم البياني للكون» ما زال يعاود القصص العلمي الحديث ، مبرزاً المؤثرات النبؤية مع شيء من المحاكاة الساخرة. فالأثر الذي يوجده معظم السفر في الفضاء أو الدورات الزمنية ، على سبيل المثال ، هو جعل الكون أصغر وأيسر للحدس ، وأكثر تكراراً لظواهره. والخرافات حول التحول الداخلي

(الانتروبيا) للكون توضع عمداً لخلق جو من الحصر الخانق . وحتى عندما يبدو أن العكس هو المقصود في أوبرا الفضاء* المليئة بالتحريك عن بعد ، والاتصال الآن ، والالتواء الفضائي ، والقفز في الزمن ، فإن انطباع الحركة الجنونية لا يفيد كثيراً في تبديد الاحساس بالحصر . وقد كتب فليب دك في روايته « قاليس » (١٩٨١) Valis أن كل إنسان حي يكون محصوراً دون أن يدري في «سجن الحديد الأسود» لكون ساكن الفضاء والزمن . ولا يستطيع الهرب من هذا السجن إلا قليلون (هم المسيحيون الجدد في عالم دك الغريب)^{٣٢} . وهناك إصرار على الحبس الكوني في قصص علمي قائم على المحاكاة الساخرة والاستهزاء ، مثل رواية كيرت فونغت « فانتات تيتان » (١٩٦٣) The Sirens of Titan ، وفي الأوبرات الفضائية الشائعة (« دليل المسافر المتطفل إلى المجرة » (١٩٧٨) و«مطعم في نهاية الكون» (١٩٨٠) لدوغلاس آدمز Douglas Adams: The Hitchhikers Guide to the Galaxy ; Restaurant at the End of the Universe . وفي الآونة الأخيرة أخذ القصص العلمي القائم على السبرنيات التافهة يختزل الفضاء والزمن الكونيين إلى واقع الموازة الالكترونية .

وفي « دراسات في الزمن الانساني » ذهب جورج پوليه في «دراسات في الزمن الانساني» George Poulet: Studies in Human Time إلى أن برغسون Bergson هو النموذج الأول لمفهوم القرن العشرين للزمن ، وهو يلغى جبرية «الكون الساكن» . وتؤكد نظريات الفعل العفوى والاختيار الوجودي على «الاحساس بأن أية لحظة يمكن التعبير عنها بأنها لحظة جديدة ، وأن الزمن يمكن دائماً استحداثه من اللحظة الراهنة فما بعدها»^{٣٣} . وقياس الفضاء والزمن ، حسب النظرية النسبية ، يعتمد على موقف المراقب . ويبدو أن ولز توقع هذا في ذلك الفصل الغريب في «أول رجال على القمر» ، بعنوان «المستر بدفورد في الفضاء اللامحدود» ، حيث يجد الراوي نفسه وقد انطلق ، حسبما يذكر ، من مدة زمنية قياسية ومن سجن هويته الجسدية . وكان وهو عائد إلى الأرض تراوده فكرة عبر عنها بقوله : «حقيقة كنت شيئاً خارج العالم ، لا بل خارج كل

* أوبرا الفضاء قصة خيالية حول المستقبل يشارك في أحداثها مسافرون في الفضاء وكائنات من عوالم خارج الأرض . (المترجم)

العوالم ، وخارج الفضاء والزمن ، وكان هذا البدفوردي المسكين مجرد ثقب اختلس منه النظر إلى الحياة» (الفصل ٢٠) . ومع ذلك يعود من الفضاء اللامحدود إلى الأرض ، ليسقط في البحر على مسافة من ساحل كنت قرب قرية باسم مناسب بصورة رائعة هو «لِيتلستون أن سى» Littestone-on-Sea (الحجر الصغير عند البحر) . وعندما كان ينظر إلى الوراء كانت تراوده فكرة أنه إذا خرج مرة من مجال الجاذبية الأرضية اختل توازنه العقلي ، شأنه في ذلك شأن أى «مجنون» عادى .

إن «جنون العظمة الغائم» هذا ، كما دعاه بدفوردي ، هو نوع من الإيماءة الروحية إلى الوعي العام ، وينم عن افتتاحنا الداخلى بالسفر فى الفضاء . ومثل هذا الاحساس موجود أيضاً لدى روائى ومفكرى التنوير العلمى الآخرين ، وعلى الأخص بيرنال وكلارك وستيبلدن . غير أن خيبة الآمال وتقشع الأحلام يكادان يكونان حتميين فى إطار نظام الفضاء والزمن ، ولذلك لا بد للكتاب من اللجوء إلى خلق الأساطير عامدين لانكار ذلك . ففي رواية روبرت هاينلاين «ستارمان جونز» (١٩٥٣) Starman Jones يشرح البطل اليافع وجود «شنوذات» كونية تجعل السفر بسرعة تفوق سرعة الضوء شيئاً ممكناً : « ولولا هذه الشنوذات لما كانت لدينا أية طريقة لبلوغ الكواكب ، فالمسافات أكبر من أن تسمح بذلك . ولكن إذا نظرنا إلى الوراء اتضح لنا أن كل ذلك الفراغ لا يمكن أن يكون حقيقياً – لا بد من وجود شنوذات . هذا ما كان يقوله عمى»^{٣٤} . واحتجاج ستارمان جونز بعمه يعنى أنه من صلب الجيل الثانى للتنوير العلمى ، وأن المحاكى غير الواعى يسير على خطى المتنبئ . وفى الوقت نفسه هناك تراث طويل من الاكتشافات الهامة لم يتوصل إليها الساحر نفسه ، ولكن توصل إليها ، ربما صدفة ، ابن أخيه أو متتلمذ عليه . وإذا كانت النبوءة تتحول إلى محاكاة ساخرة فإن المحاكاة الساخرة يمكن أيضاً أن تتحول إلى نبوءة .

إن أكثر التطورات إثارة فى علم الكونيات (الكوزمولوجيا) اليوم ناتجة من التقاء الرياضيات والفيزياء مرة أخرى . وقد تبين أن الانتقال من الفضاء – الزمن الرباعى الأبعاد إلى فضاء أكثر أبعاداً يسهل كثيراً البحث عن نظرية

فيزيائية موحدة. وقد أدى فرع الهندسة المتعددة الأبعاد – والذي يعرف بالنظرية الزنبركية Spring Theory – إلى فرض كون عشرين الأبعاد مقسوم إلى قسمين ، أحدهما الكون الذي نعرفه والآخر «توأمة القزم» ، وهو «كرة سداسية الأبعاد صغيرة إلى حد تدقّ معه عن الملاحظة»^{٣٥}. وإذا يتمدد أحدهما يتقلص الآخر والعكس بالعكس. وبالإضافة إلى ذلك هناك بحث كثير حول ما يسمى «الثقوب النودية» worm holes في الفضاء – الزمن تصل الأكوان المختلفة أو المناطق المختلفة من الكون نفسه بعضها ببعض. غير أن التحقق العملي من هذه النظريات مستحيل في الوقت الحاضر. وتبدو هذه النظريات من بعض جوانبها شبيهة بالكون الذي يصوره القصص العلمي ، وعلى وجه التخصيص تجارب المستر بدفورد في الفضاء اللامحدود. وقد علق ستيقن واينبرغ –الذي كتب عام ١٩٧٧ عن فراغ الكون ظاهرياً من المعنى– في الآونة الأخيرة قائلاً إن الفيزياء النظرية تبدو أشبه بالقصص العلمي بصورة متزايدة^{٣٦}. وفي عام ١٩٨٨ نشرت مجلة Physics Re-view Letters ما وصف بأنه «أول اقتراح جاد لآلة زمن»^{٣٧}. وليس من المستبعد أن يتمخض التفكير الكوزمولوجي في نهاية القرن العشرين عن قصص علمي جديد ، لا يقف عند تعديل الأنماط الموجودة حالياً. ولكن ذلك القصص ما زال ينتظر متنبئه ، ونحن في محاولتنا أن نتخيل ما يكون عليه القصص العلمي في المستقبل إنما نمسك إلى حين بالظلال.

هوامش الفصل التاسع

- 1- Arthur C. Clarke, *Profiles of the Future: An Enquiry into the Limits of the Possible* (London: Gollancz, 1962), pp. 10-11.
- 2- Kurt Vonnegut, Jr., *Breakfast of Champions* (New York: Delta, 1973), p. 123.
- 3- Brian Aldiss, *The Shape of Further Things: Speculation on Change* (London: Corgi, 1974), p. 127.
- 4- See Paul A. Carter, *The Creation of Tomorrow* (New York: Columbia University Press, 1977), p. 11.
- 5- Quoted in Gary Westfahl, "'The Jules Verne, H. G. Wells, and Edgar Allan Poe Type of Story': Hugo Gernsback's History of Science Fiction", *Science Fiction Studies* 58 (November 1992), p. 342.
- 6- Winwood Reade, *The Martyrdom of man* (London: Watts, 1924), p. 423.
- 7- Thomas H. Huxley, 'On the Advisableness of Improving Natural Knowledge' (1860), in *Methods and Results: Essays* (London: Macmillan, 1904), p. 30.
- 8- Arthur c. Clarke, 'The Challenge of the Spaceship', *Journal of the British Interplanetary Society* 6:3 (December 1946), p. 69.
- 9- Cited by E. Drabkina, 'Memories of Lenin', *Izvestiia*, 22 December 1961. I am indebted to Darko Suvin for this information.
- 10- Fred Hoyle, *Of Men and Galaxies* (London: Heinemann, 1965), pp. 41, 47.
- 11- C. P. Snow, *The Two Cultures: and A Second Look* (New York: Mentor, 1964), p. 16.

- 12- Gary Werskey, *The Visible College: A Collective Biography of British Scientists and Socialists of the 1930s* (London: Free Association, 1988), p. 187.
- 13- C. H. Waddington, *The Scientific Attitude*, 2nd edn (West Drayton: Penguin, 1948), p. 35.
- 14- Arthur C. Clarke, 'Haldane and Space', in *Report on Planet Three and Other Speculations* (London: Corgi, 1973), pp. 236-243
- 15- See Patrick Parrinder, 'Siblings in Space: The Science Fiction of J. B. S. Haldane and Naomi Mitchison', *Foundation* 22 (June 1981), pp. 49-56.
- 16- J. B. S. Haldane, *Possible Worlds and Other Essays* (London: Chatto & Windus, 1927), p. 285.
- 17- J. D. Bernal, *The World, the Flesh and the Devil: An Inquiry into the Future of the Three Enemies of the Rational Soul*, 2nd edn (London: Cape, 1970), p. 71.
- 18- J. D. Bernal, *The Social Function of Science* (London: Routledge, 1939), p. 380.
- 19- Isaac Asimov, 'By Jove!' in *View From a Height* (London: Scientific Book Club, 1964), p. 237.
- 20- Isaac Asimov, 'Superficially Speaking', in *View From a Height*, pp. 251-52.
- 21- C. s. Lewis, *The Abolition of Man, or Reflections on Education with Special Reference to the Teaching of English in the Upper Forms of Schools* (London: Oxford University Press), p. 39.
- 22- Robert Jungk, *Brighter Than A Thousand Suns* (Harmondsworth: Penguin, 1960), p. 11.
- 23- Frederick Soddy, *The Interpretation of Radium*, pp. 239, 252.

- 24- Paul A. Carter, *The Creation of Tomorrow*, pp. 250-51.
- 25- J. G. Ballard, 'Thirteen for Centaurus', in *The Best Short Stories of J. G. Ballard* (New York: Holt, Rinehart & Winston, 1978), p. 159.
- 26- J. G. Ballard, 'The Terminal Beach', in *The Best Short Stories of J. G. Ballard*, p. 263.
- 27- Brian Aldiss, *The Shape of Further Things*, p. 127.
- 28- However, the influence of popular nineteenth-century scientific romances on Wells should not be underestimated.
- 29- Evelyn Waugh, *Vile Bodies* (Harmondsworth: Penguin, 1938), p. 221.
- 30- Steven Weinberg, *The First Three Minutes: A Modern View of the Origin of the Universe* (London: Deutsch, 1977), p. 154.
- 31- See Stephen Kern, *The Culture of Time and Space 1880-1918* (Cambridge, Mass.: Harvard University Press, 1983), pp. 100-01.
- 32- Philip K. Dick, *Valis* (New York: Bantam, 1981), pp. 40-41.
- 33- George Poulet, *Studies in Human Time*, trans. Elliott Coleman (Baltimore and London: John Hopkins, 1956), p. 35.
- 34- Robert A. Heinlein, *Starman Jones* (New York: Ballantine, 1975), p. 80.
- 35- Michio Kaku, *Hyperspace*, p. 27.
- 36- *Ibid*, p. 9.
- 37- *Ibid*, p. 245.

مؤلفات هـ. ج. ولز الرئيسية

مرتبّة حسب تواريخ نشرها
(ما بين قوسين هو اسم الناشر باختصار)

- 1893 A textbook of Biology (Clive)
 Honours Physiography (With R. A. Gregory) (Hughes)
- 1895 Select Conversations with an Uncle (Lane)
 The Time Machine (Heinemann)
 The Wonderful Visit (Dent)
 The Stolen Bacillus and Other Incidents (Methuen)
- 1896 The Island of Doctor Moreau (Heinemann)
 The Wheels of Chance (Dent)
- 1897 The Plattner Story and Others (Methuen)
 The Invisible Man (Pearson)
 Certain Personal Matters (Lawrence & Bullen)
- 1898 The War of the Worlds (Heinemann)
- 1899 When the Sleeper Wakes (Harper)
 Tales of Space and Time (Harper)
- 1900 Love and Mr. Lewisham (Harper)
- 1901 The First Men in the Mood (Newnes)
 Anticipations (Chapman & Hall)
- 1902 The Discovery of the Future (Unwin)
 The Sea Lady (Methuen)
- 1903 Mankind in the Making (Chapman & Hall)
 Twelve Stories and a Dream (Macmillan)
- 1904 The Food of the Gods (Macmillan)
- 1905 A Modern Utopia (Chapman & Hall)
 Kipps (Macmillan)

- 1906 In the Days of the Comet (Macmillan)
The Future in America (Chapman & Hall)
- 1908 New Worlds for Old (Constable)
The War in the Air (Bell)
First and Last Things (Constable)
- 1909 Tono-Bungay (Macmillan)
Ann Veronica (Unwin)
- 1910 The History of Mr. Polly (Nelson)
- 1911 The New Machiavelli (Lane)
The Country of the Blind and Other Stories (Nelson)
- 1912 The Great State (with 12 other authors) (Harper)
Marriage (Macmillan)
- 1913 The Passionate Friends (Macmillan)
- 1914 An Englishman Looks at the World (Cassell)
The World Set Free (Macmillan)
The Wife of Sir Isaac Harman (Macmillan)
The War that will End War (Palmer)
- 1915 Boon (Unwin)
Bealby (Methuen)
The Research Magnificent (Macmillan)
- 1916 What Is Coming (Cassell)
Mr. Britling Sees It Through (Cassell)
- 1917 War and the Future (Cassell)
God the Invisible King (Cassell)
The Soul of a Bishop (Cassell)

- 1918 In the fourth Year (Chatto & Windus)
 Joan and Peter (Cassell)
- 1919 The Undying Fire (Cassell)
- 1920 The Outline of History (Newnes)
 Russia in the Shadows (Hodder & Stoughton)
- 1921 The Salvaging of Civilisation (Cassell)
- 1922 Washington and the Hope of Peace (Collins)
 The Secret Places of the Heart (Cassell)
 A Short History of the World (Cassell)
- 1923 Men Like Gods (Cassell)
- 1924 The Story of a Great Schoolmaster (Chatto & Windus)
 The Dream (Cape)
 A Year of Prophesying (Unwin)
- 1924-27 The Atlantic Edition of the Works of H. G. Wells (Unwin)
- 1925 Christina Alberta's Father (Cape)
- 1926 The World of William Clissold (Benn)
- 1927 Meanwhile (Benn)
 The Complete Short Stories of H. G. Wells (Benn)
- 1928 The Way the World Is Going (Benn)
 The Open Conspiracy (Gollancz)
 Mr. Blettsworthy on Rampole Island (Benn)
- 1929 The King Who Was a King (Benn)
- 1930 The Autocracy of Mr. Parham (Heinemann)
 The Science of Life (with Julian Huxley and G. P. Wells)
 (Amalgamated Press)

- 1931 What Are We To do With Our Lives? (Heinemann)
The Work, Wealth and happiness of Mankind (New York: Doubleday, Doran)
- 1932 After Democracy (Watts)
The Bulpington of Blup (Hutchinson)
- 1933 The Shape of Things to come (Hutchinson)
- 1934 Experiment in Autobiography (Gollancz)
Stalin-Wells Talk (New Statesman)
- 1935 The New America: The new World (Cresset Press)
Things to Come (Cresset Press)
- 1936 The Anatomy of Frustration (Cresset Press)
The Croquet Player (Chatto & Windus)
- 1937 Star Begotten (Chatto & Windus)
Brynhild (Methuen)
The Camford Visitation (Methuen)
- 1938 The Brothers (Chatto & Windus)
World Brain (Methuen)
Apropos of Dolores (Cape)
- 1939 The Holy Terror (Joseph)
Travels of a Republican Radical in Search of Hot Water (Penguin)
The Fate of Homo Sapiens (Secker & Warburg)
The New World Order (Secker & Warburg)
- 1940 The Rights of Man (Penguin)
Babes in the Darkling Wood (Secker & Warburg)
The Common Sense of War and Peace (Penguin)
All Aboard for Ararat (Secker & Warburg)

- 1941 Guide to the New World (Gollancz)
 You Can't Be Too Careful (Secker & Warburg)
- 1942 The Outlook for Homo Sapiens (Secker & Warburg)
 Science and the World-Mind (New Europe)
 Phoenix (Secker & Warburg)
 The Conquest of Time (Watts)
- 1943 Crux Ansata (Penguin)
- 1944 '42 to '44 (Secker & Warburg)
- 1945 The Happy Turning (Heinemann)
 Mind at the End of Its Tether (Heinemann)

مؤلفات نشرت بعد وفاته

- 1964 Journalism and Prophecy 1893-1946 , ed. W. Warren Wagar
(Boston: Houghton Mifflin)
- 1969 The Wealth of Mr. Waddy, ed. Harris Wilson (Carbondale and
Edwardsville: Southern Illinois University Press)
- 1975 Early Writings in Science and Science Fiction, ed. Robert M.
Philmus and David Y. Hughes (Berkeley, Los Angeles and
London: University of California Press)
- 1980 H. G. Wells's Literary Criticism, ed. Patrick Parrinder and
Robert M. Philmus (Brighton: Harvester Press, and Totowa, N.
J.: Barnes & Noble)
- 1984 H. G. Wells in Love, ed. G. P. Wells (Faber & Faber)
- The Man with a Nose and Other Uncollected Short Stories, ed.
J. R. Hammond (Athlone Press).

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رقم الإيداع ١٣٢٠٠ / ١٩٩٧

الترقيم الدولي (3 - 924 - 235 - 977 - I.S.B.N.)

الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

٣٠١٤ - ١٩٩٧ - ٤٥٩٨

المشروع القومى للترجمة

أ. د. أحمد درويش	جون كوين	اللغة العليا
أ. أحمد فؤاد بليغ	مادهو بانيكار جى. ام	الوثنية والإسلام
ت : شوقى جلال	جورج/ جيمس	التراث المسروق
ت : أحمد الحضرى	اتى كاريتنكوف	كيف تتم كتابة السيناريو
ت : د. محمد علاء الدين منصور	إسماعيل فصيح	ثريا فى غيبوبة
ت : د. سعد مصلوح/ د. وفاء كامل فايد	ميلكا إفيتش	اتجاهات البحث اللسانى
ت : يوسف الانطاكى	لوسيان غولدمان	العلوم الإنسانية والفلسفة
ت : د. مصطفى ماهر	ماكس فريش	مشعلوا الحرائق
ت : د. محمود محمد عاشور	أندرو س. جودى	التغيرات البيئية
ت : محمد معتصم وآخرون	جيرار جينيت	خطاب الحكاية
ت : د. محمد هناء عبدالفتاح	فيسوافا شمبيوريسكا	مختارات
ت : أحمد محمود	ليفيد برانستون وايرين فرانك	طريق الحرير
ت : عبد الوهاب علوب	روبرتسون سميث	ديانة الساميين
ت : حسن المودن	جان بيلمان نوبل	التحليل النفسى والأدب
ت : أشرف رفيق عفيفى	ادوارد لويس سميث	حركات الفن المعاصر
ت : د. لطفى عبد الوهاب يحى/ د. فاروق القاضى/ د. حسين الشيخ/ د. منيرة كروان / د. عبد الوهاب علوب	مارتن برنال	أثينة السوداء
ت : محمد جمال عبد الرحيم	هانز جورج جادامر	واحة بسيوة وموسيقاها
ت : سيد توفيق	جلال الدين الرومى	تجلى الجميل
ت : د. إبراهيم الدسوقي شتا	باتريك بارندر	المثنوى
ت : د. بكر عباس		ظلال المستقبل
		مصادر دراسة التاريخ الإسلامى

المشروع القومي للترجمة (نحت الطبع)

مختارات	فيليب لاركين	ت : د. محمد مصطفى بلوى
الشعر النسائي في أمريكا	مختارات	ت : د. طلعت شاهين
اللاتينية		
الأعمال الكاملة	حورج سفيريس	ت : د. نعيم عطية
قصة العلم	ج. ج. كرواثر	ت : د. يمنى طريف الخولى / د. بلوى عبد الفتاح
خوخة وألف خوخة	صمد بهرنكى	ت : د. ماجدة محمد على
مذكرات رحالة	جون أنتيس	ت : سيد أحمد على الناصرى
دين مصر العام	محمد حسين هيكل	ت : أحمد محمد حسين هيكل
اللهب المزدوج	اكتافيو باث	ت : المهدي أخريف
التنوع البشرى الخلاق		ت : نخبة
ما بعد المركزية الأوربية	بيتر جران	ت : د. محمد عاطف أحمد السيد / إبراهيم فتحى سليمان / محمود ماجد
الانقراض	ديفيد روس	ت : د. مصطفى إبراهيم فهمى
النظريات الحديثة للسرد	والاس فاوتن	ت : د. حياة جاسم
قصيدة حب	بابلو نيرودا	ت : د. محمود السيد
التراث المغفور	روبرت نوتيا جون فاين	ت : أحمد محمود
الرواية العربية		ت : د. حصة عبد الرحمن منيف

Shadows of the Future

H. G. Wells, Science Fiction and Prophecy

PATRICK PARRINDER

باترك بارندر من مواليد ودبرج بجنوب إنجلترا عام ١٩٤٤ ، حصل على الليسانس والماجستير والدكتوراه من جامعة كيمبردج . وقد تتلمذ على يدى الناقد المشهور ريموند وليمز الذى اعتبره من ألمع الطلبة الذين قام بتدريسهم ، ونظراً لتفوقه فقد عُين محاضراً فى جامعة كيمبردج لمدة ست سنوات بين عامى ١٩٦٨-١٩٧٤ ، وقد حصل فى هذه الفترة على زمالة من كلية الملك فى الجامعة نفسها ، وبعدها انتقل إلى جامعة ردينغ لبدأ عمله فيها أستاذاً مشاركاً إلى أن ترقى إلى درجة الأستاذية عام ١٩٨٦ ، وشغل فى الجامعة نفسها مراكز إدارية عدة : عميد لكلية الآداب ، ونائب لرئيس الجامعة . كذلك شغل منصب أستاذ زائر فى كل من جامعة كاليفورنيا وجامعة ميجيل وجامعة ألينوى .

تضم منشوراته كتباً عدة عن ولز بشكل خاص وعن النظرية النقدية الأدبية ويعد من أبرز النقاد فى أدب القصص العلمى حيث استطاع بمقدرة فنية أن يحتل مكانة الصدارة فى تقديم وتقييم هذا الموضوع . ومن أبرز مساهماته النقدية كتابه « فشل النظرية » الذى رد فيه على تيرى إيجلتون وفند مزاعمه النقدية .

وللأستاذ بارندر مساهمات عديدة فى مجال النقد الأدبى تطالعنا على صفح الملحقات الأدبية والمجلات الفكرية .

وهذا الكتاب ما هو إلا ثمرة من جهود الأستاذ بارندر المتواصلة فى

الميدان .